إعداد وتأليف
محمّد علي نوح قوجيل

أصول الجَدل وآداب المحاجّة في القرآن الكريم

جمعيّة الدعوة الإسلاميّة العالميّة

حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الثانيـة

1430 من ميلاد الرسول محمد ﷺ

2001 بالتقويم الافرنجي

منشورات

جمعية الدعوة الاسلامية العالمية

هاتف 4800730 - 4800294 - بريد مصور 4800293 ص . ب 2662

طرابلس - الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ . . .﴾

سورة الإسراء، الآية 9

وقال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾

سورة النحل، الآية 125

وقال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾

سورة العنكبوت، الآية 46

إلى إخواني طلبة الدراسات العليا، وإلى إخواني المدرسين والمهتمين بالعلم والتعليم، أهدي هذا البحث راجياً الله أن ينفع به، وأن يجعله خالصاً لوجهه. إنه نعم المولى ونعم النصير.

الباحث

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله، العادل في أحكامه، المتفرد بالبقاء، وتوحد بالكبرياء، الأول بلا غاية، والآخر بلا نهاية، الذي عزب عن الأفهام تحديده، وتعذر على الأوهام تكييفه، وعميت عن إدراكه الأبصار، وحارت في عظمته الأفكار، الشاهد لكل نجوى، والسامع لكل شكوى، والكاشف لكل بلوى، العزيز الذي لا يخضع، والجبار الذي قامت السماوات والأرض بأمره، ورجفت الجبال من خشيته.

والحمد لله، الذي بعث محمداً ﷺ بالدلائل الواضحة، والحجج القاطعة، والبراهين الساطعة، بشيراً ونذيراً، وداعياً إليه بإذنه، وسراجاً منيراً، فبلّغ الرسالة، وأدّى الأمانة، ونهض بالحجّة، ودعا إلى الحق، وحضّ على الصدق.

وبعد، فقد حظي القرآن بعناية، لم يحظَ بها غيره من الكتب المنزلة الأخرى. فقد بذل علماؤنا قصارى جهدهم في تناوله بالبحث، فتلقوه منذ نزوله، تلقي الحفي به المعظم له، وصنفوا فيه من البحوث ما جلّ قدره، وعظم نفعه، وخلفوا لنا تراثاً ضخماً، كان النبراس الذي اهتدي به في معرفة دقائقه، وتبينّ حقائقه، مما لا نزال نعيش عليه إلى يومنا هذا.

القرآن أحد كتب الإسلام وخاتمها، والذي يحمل تعاليمه كلها، في قواعد كلية، وإنه النص الموحى به القطعي الثبوت، المتميز بخصائص، تفرده عن غيره من النصوص الدينية السابقة عليه.

وموضوع الجدل والمحاجّة في القرآن الكريم، من الموضوعات المهمة التي تدور أساساً على الإيمان بالله ورسله، وعلى وحدانيته، وأحقيته بالعبادة دون سواه، والإيمان بالبعث والجزاء. وتعد هذه العناصر الثلاثة من أبرز قضايا القرآن، ولهذا جادل عنها كثيراً.

لقد تناول القرآن الكريم كثيراً من الأدلة والبراهين، التي حاجّ بها خصومه في صورة واضحة جلية، يفهمها العامة والخاصة، وأبطل بها كل شبهة فاسدة، ونقضها بالمعارضة والمنع في أسلوب واضح النتائج، سليم التراكيب، لا يحتاج إلى إعمال عقل أو كثرة بحث، فيذكر الحقائق ويقررها واضحةً جلية، يلمسها الإنسان، وتنطق بها شواهد الكون.

فقد حكى القرآن الكريم، في كثير من آياته، إنكار الكفرة من أهل الكتاب، والمشركين لوحدانية الله تعالى، ثم ردّ على مزاعمهم بأدلة عديدة متنوّعة، تثبت أن الله تعالى واحد لا شريك له، وأنه وحده المستحق للعبادة والخضوع. وردّ على إنكارهم للبعث والحياة الأخرى بأنواع من الحجج والبراهين. وكذلك أبطل أقوالهم الباطلة في شأن النبي محمد ﷺ، وشأن دعوته، والقرآن الذي أنزل عليه، وفي غير ذلك من الشؤون الدينية. ردّ عليهم في كل ما تقدم، بما يخرس ألسنتهم، ويرشدهم إلى سبيل الحق والصواب. وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ﴾[1].

والقرآن الكريم، جاء ليدعو الناس جميعاً، وقف أمام نزعاتهم

---

(1) سورة الأنبياء، الآية 18.

المختلفة، إذ يوجد منهم من يكره الحق ويجادل بالباطل، فألجمهم الحجّة، وألزمهم الإقرار بالحق، وعارضهم بأسلوب مقنع واستدلال واضح، وجدل محكم: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ①﴾[1].

وهذه الدراسة التي أعددتها، في أصول الجدل وآداب المحاجّة في القرآن الكريم، قد مهدت لها بالحديث، وقد فصلت القول بعض التفصيل، مدعماً لما أذهب إليه بالشواهد والأدلة، والرجوع إلى ما توافر من المصادر الأصلية، قديماً وحديثاً. وقد كشفت هذه الدراسة أصول الجدل وآداب المحاجّة في هذا الكتاب المحكم[2]؛ إنه منهج فريد في الجدل والمحاجّة، وله طريقته الخاصة في إلزام الخصوم.

---

(1) سورة هود، الآية الأولى.

(2) لقد بحثت في كتب اللغة وغيرها فوجدت ما يؤيد ما اخترته عنواناً لبحثي هذا، وهو كما يلي:
أولاً ـ كلمة أصول: جاء في المنجد، ص 11: «والأصل ما يقابل الفرع والجمع أصول، والأصول القوانين التي ينبني عليها العلم» (المنجد في اللغة العربية والآداب والعلوم، تأليف الأب لويس معلوف، المطبعة الكاثوليكية بيروت، لبنان). وجاء في إرشاد الفحول للشوكاني، ص 3: الأصل ماينبني عليه غيره (إرشاد الفحول، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، 1255 هـ ـ دار المعرفة، بيروت، لبنان). وجاء في كتاب الأحكام في أصول الأحكام للآمدي: جـ 1، ص 8، أن أصل كل شيء هو ما يستند تحقيق الشيء إليه (الأحكام في أصول الأحكام للآمدي، ط 1983) دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان). وقال الراغب، المفردات، ص 19: وأصل الشيء قاعدته التي لو توهمت مرتفعة لارتفع بارتفاعه سائره. قال تعالى ﴿... أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ㉔﴾ الآية 24 من سورة إبراهيم.
وهذه الكلمة، أعني كلمة أصول، حينما أضيفت إليها كلمة جدل، وعلى الخصوص القرآني منه، يكون المقصود منها أن تجعل أساساً وقاعدة لكل جدل أريد به إحقاق الحق وإزهاق الباطل. قال تعالى: ﴿وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا ㉛﴾ الآية 81 من سورة الإسراء. وقوله تعالى: ﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ﴾ الآية 18 من سورة الأنبياء.
والآداب جمع أدب، وهو ما يتأدب به الأديب من الناس. سمّي أدباً لأنه يؤدب الناس إلى المحامد، وينهاهم عن المقابح. (لسان العرب، لابن منظور جمال الدين=

عرض القرآن الكريم أساليب مختلفة من المحاجّة والمجادلة، ناقش من خلالها الكافرين والمشركين والمنافقين من أهل الكتاب، وغيرهم. فهم المجادلون في آيات الله، والمشككون في دعوة الرسل ـ عليهم السلام ـ، وفي أحقيتهم بالرسالة، وفي توحيد الله سبحانه، وفي البعث والنشور. وفي دعاوى أخرى كشف عنها هذا البحث.

وقد راعيت في معالجة هذا الموضوع، الاعتماد فيه على عرض النص، وما يحويه من معانٍ في إيجاز، وحاولت الكشف عن هدف المجادلة والمحاجّة في النص، ونظرت نظرة فاحصة إلى صياغة الجدل المعروض، والهدف منها، ثم كشفت عن الأدلة المطروحة والمحاجّة المقصودة، في إطار الإجابة عن التشكيك، أو عن السؤال المقدم، أو عن الدعوة المزعومة.

إن القرآن الكريم، آخر وحي الله إلى البشرية، وهو وحده الدواء لكل داء. وكلما أمعنا في آياته النظر، وقفنا على الجديد الذي يؤكد الإعجاز والصلاحية الدائمة للتطبيق.

وهذه الرسالة خطوة جادة على طريق البحث العلمي في كتاب الله، الذي جاء بالحق بشيراً ونذيراً. فلقد أخرج الناس من الظلمات إلى النور، وحرّر الإنسان من العبودية لغير الله تعالى، وبيّن له سبيل الفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة.

محمد بن مكرم الأنصاري، ت 711 هـ، جـ 1، ص 201، طبعة مصورة عن طبعة بولاق، الدار المصرية للتأليف والترجمة).
وفي المنجد، ص 5: الأدب ملكة تعصم من كانت فيه عما يشينه، والجمع آداب وتطلق على المعارف والعلوم عموماً، وعلى المستطرف منها فقط، ويطلقونها على ما يليق بالشيء أو الشخص، فيقال آداب الدرس وآداب القاضي.
ومن هنا، يمكن استعمال هذه الكلمة مضافة إلى المحاجّة في القرآن الكريم، للدفاع عن الحق وإثباته، وهو المقصود بهذا العنوان.

وهي محاولة للاستزادة والدراسة الموسوعية، فنحن أمة لا حياة لها بغير هذا الكتاب، وعلينا أن نعكف عليه حفظاً وفهماً وتدبراً. وأن يكون هذا وسيلة للغاية المقدسة.

إن أخطر ما يتعرض له المسلمون، منذ عصر الضعف والتقليد، أن أصبحت الدراسة القرآنية، وما يدور في فلكها، لا تعكس واقعاً عملياً في حياة المجتمع الإسلامي، فأصابه من جراء ذلك ما أصابه من التمزق والتخلف والغزو الأجنبي، وفي مقدمها، الغزو الفكري، وهو أشد فتكاً بحرية الأمم وكرامتها من الغزو العسكري.

وقد آثرت أن أحاول محاولة متواضعة في هذا المجال ـ مجال الدراسات القرآنية ـ وبخاصة أننا نعيش في عصر تتصارع فيه المذاهب الوضعية، وقوى الشر، ويكثر فيه الجدل حول ما ينبغي أن يكون، آثرت أن أقدم هذه الدراسة التي تتلمس الطريق الصحيح.

إن العالم يعيش واقعاً لا إصلاحياً، ويعيش أوهاماً، وقد اخترت أن أسلك هذا الطريق الصعب في رحاب القرآن الكريم، مع اعترافي بضعفي، عليَّ أَن أسهم بجهدي المقل، في إلقاء بعض الضوء حول هذا المنهج الربّاني، وأهم سماته، وأصول جدله، ومحاجته التي تفرد بها، والتي تؤكد إعجازه وخلوده.

ولا أعتبر نفسي، في هذا الموضوع، أتيت بجديد؛ لأني كجالب تمر إلى هجر. وليس للباحث إلاّ أن يقلّب المعلومات، ولا يستطيع أن يضيف جديداً، باستثناء الصياغة والتبويب.

إن ما يحفز همتي، ويقوي عزيمتي، أن رحلة الألف ميل تبدأ بخطوة واحدة. ونظراً إلى أن قضايا البحث متداخلة، كان التكرار في بعض الأفكار أحياناً، وما يترتب عليه من تكرار بعض الجمل والعبارات. ولا

بأس بهذا، ما دام الأمر لا يتجاوز حدود الضرورة العلمية، ولا يدخل في باب التكرار الممل.

واخترت هذا الجانب من الدرسات القرآنية، إمتثالاً لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾﴾[1]، ولأنه موضوع الساعة، الذي يعتبر الردّ العملي والحضاري على ادعاءات المستشرقين المغرضين وأعداء الإسلام، وهو المنهج العملي للدعوة المعاصرة للتصدّي لحركات التبشير والتنصير والإلحاد.

ولهذا، رأيت من واجبي أن أسهم بنصيب في هذا المضمار، وأن أقدم هذا البحث المتواضع، أبيّن فيه حقائق الإسلام وحججه، من خلال آيات الذكر الحكيم، وأبطل زيف ما يدعيه خصومه، من ملاحدة وكفار ومشركين ومنافقين وأهل كتاب... وهنا تكمن أهمية هذا البحث في هذا الموضوع، وفي هذا الوقت.

وباختصار شديد، فإني آثرت البحث في كتاب الله وتدبره، لما فيه من خيرَي الدنيا والآخرة، وهو الذي يكفي أن يتعبد بتلاوته، ناهيك من تدبره ودراسته.

وستكون هذه الدراسة مركزة ومختصرة، لعدة أسباب: أنها رسالة، وليست كتاباً تعليمياً، أو كتاب تفسير. ولأن الإطالة، قد تبعد الباحث أو القارىء عن تكوين النظرة الجامعة إلى أوجه الفكرة المختلفة والمتعددة، والعبرة بالكيف لا بالكم.

وهذه المحاولة التي أطمع أن تكون موفقة، تقوم على مقدمة وتمهيد وخمسة فصول وخاتمة. وهي مجملة كما يلي:

بعد المقدمة والتمهيد:

---

(1) سورة محمد، الآية 24.

الفصل الأول: منهج القرآن الكريم في تناول أصول الجدل وآداب المحاجّة، وفيه مبحثان.

المبحث الأول:
مفهوم الجدل والجدال في القرآن الكريم.

المبحث الثاني:
منهج القرآن الكريم في الاستدلال على وجود الله، ووحدانيته.

الفصل الثاني: مجال الجدل والمحاجّة في القرآن الكريم، وفيه المباحث التالية:

المبحث الأول:
تعريف الحجّة وأنواعها في القرآن الكريم.

المبحث الثاني:
الاحتجاج القرآني ـ في مقام النبوة وقصص الأنبياء.

المبحث الثالث:
حوار ومحاجّة الأنبياء ـ عليهم السلام ـ لأقوامهم.

الفصل الثالث: جدال ومحاجّة القرآن الكريم عن عقيدة البعث والجزاء، ويشمل مبحثين:

المبحث الأول:
جدال القرآن الكريم ومحاجته عن أحقية البعث.

المبحث الثاني:
في مقام محاجّة منكري البعث.

الفصل الرابع: نصوص الجدل والمحاجّة في القرآن الكريم لأهل الكتاب:

المبحث الأول:
المحاجّة العامة لأهل الكتاب.
المبحث الثاني:
جدال أهل الكتاب اليهود ومحاجتهم.
المبحث الثالث:
جدال أهل الكتاب النصارى ومحاجتهم.

الفصل الخامس: نصوص الجدل والمحاجّة في القرآن الكريم لغير أهل الكتاب، واشتمل على مبحثين، هما:
المبحث الأول:
جدال المشركين والكافرين ومحاجتهم.
المبحث الثاني:
جدال القرآن الكريم للمنافقين ومحاجتهم.

الخاتمة: وفيها أستخلص الصورة العامة لنتائج البحث.

وقد اقتضى هذا المنهج، أن أستعين، في دراستي، بكثير من المصادر والمراجع، كأمهات كتب التفسير، القديمة والحديثة، مثل: تفسير الطبري والكشاف والرازي وابن كثير والمنار ومحاسن التأويل. وأمهات كتب العلوم القرآنية، كالإتقان والبرهان وقصص الأنبياء، وغيرها من المصادر والمراجع التي اعتمدت عليها في هذه الدراسة، والتي أطمع أن تكون قد جاءت وافية، وحققت غايتها في الكشف عن طرف من أصول الجدل، وآداب المحاجّة في القرآن الكريم، في دقة وموضوعية. والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن يجعل القرآن الكريم حجّة لنا، لا علينا، إنه نعم المولى ونعم النصير.

ولخصت في الخاتمة أهم نتائج هذه الدراسة، وهي تمثل الجهود العلمية القائمة، التي بذلها العلماء العرب، وتراثنا الإسلامي غني

وحافل بذلك، حتى إني لا أبالغ إذا قلت إنهم لم يتركوا شيئاً إلا وكتبوا فيه.

هذا، وقد حاولت، في هذه الدراسة، إتباع الأسلوب المبسط، البعيد عن الحشو والترهات والخرافات، لأنه الطريق المجدي، ثقتي بالله تعالى، والقرآن الكريم، لأنه هو سبيل الإقناع الأمثل، وهو الرائد والسبيل إلى المعرفة، وإني أقدمه بين يدي القراء، لا أبغي من ورائه إلا كشف الحقيقة، مردداً ما قاله الحافظ ابن عساكر: «فمن وقف فيه على تقصير أو خلل، أو عثر فيه على تغيير أو زلل، فليعذر أخاه في ذلك متطولاً، وليصلح فيه ما يحتاج إلى إصلاح متفضلاً. فالتقصير من الأوصاف البشرية، وليست الإحاطة بالعلم إلا لبارىء البرية، والله من وراء القصد».

* * * * *

التمهيد

هذه الدراسة تستند إلى مجموعة من الأسس، التي هي منطلقها وقاعدتها، وأهم هذه الأسس:

أولاً: الاعتقاد الجازم بأن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم، وأنه: ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾[1].

ثانياً: إن قضية الإيمان والفكر، هي المحور الذي تدور حوله أكثر الآيات في القرآن الكريم. وفي هذا الإطار، حشدت مجموعة هائلة من الحجج والبراهين، وطرق المجادلة، وقواعد الحوار، تسير كلها في اتجاه واحد، ويربطها خيط واحد. هذا الحشد كله، إنما كان من أجل التمكين للإيمان، واجتثاث الكفر والإلحاد، وملاحقة الشرك ومحاصرته.

ثالثاً: إن أصول المجادلة والمحاجّة في آيات القرآن الكريم، حول قضية الإيمان، قد جاءت متنوعة الأساليب، متعددة المسالك والغايات، مختلفة صورها، لكنها ستكاملة متناسقة، والإنسان

---

(1) سورة فصلت، الآية 42.

المخاطب بها، باعتباره إنساناً، لا يمكنه إلاّ التسليم بها، وقبول مقتضياتها، إذا تخلص من المؤثرات الجانبية والأهواء.

رابعاً: إن حجج القرآن الكريم، لأسس العقيدة وقواعد الإيمان، تستند إلى ثوابت في الكون ومرتكزات في حياة الإنسان. ومن ثم فهي ليست مقيدة بزمان أو مكان، وهي حقيقة ثابتة، وإن كانت بالنسبة إلى هذه الدراسة لا تزال دعوى، ستحاول هذه الدراسة أن تقدم مجموعة من الدلائل لإثباتها.

خامساً: لقد تكونت عبر رحلة التاريخ ـ تاريخ الفكر الإسلامي ـ مجموعة من الغيوم والظلال، كانت ولا تزال حائلاً، دون الفهم الجلي لمنهج القرآن الكريم وأساليبه، وطرق البرهنة على قضية الإيمان. وتكفينا جولة سريعة خلال تراثنا الفلسفي والكلامي والروحي، لنخرج بتصور مؤداه، أن منهج القرآن الكريم وحده، هو الذي تنبت في أرضه بذور عقيدة التوحيد ومتمماتها، ولا تعتمد على سواه.

سادساً: إن هذه القضية، في رأيي، تحتاج إلى استكشاف جوانبها وملابساتها من خلال دراسة متخصصة متأنية، تضطلع ببحثها، والكشف عن بعض معالمها. ومبلغ علمي أن هذا الموضوع كما أتصوره، لم يحظَ بدراسة خاصة وبحث مستقل. من أجل ذلك أقدمت على بحثه، مستعيناً ومسترشداً بجهود من عُنوا بدراسة بعض جوانبه، ولم يستكملوه، أو لم يظهروه في الصورة التي قصدت إليها في هذه الدراسة.

سابعاً: إن خطة البحث التي سأتبعها وأسترشد بها في دراستي هذه، مستوحاة في مجملها من القرآن الكريم نفسه، وممن عُنوا أو كتبوا في الموضوع، كما أشرت.

وقد تراءى لي البحث على الصورة الآتية:

المقدمة

وفيها أتناول بالبحث والدراسة، مجموعة من القضايا ذات الصلة بهذا الموضوع، تمثل في رأيي، التمهيد اللاّزم والمدخل الضّروري لهذه الدراسة، والتي سأتناولها في المقدمة:

1 - منهج القرآن الكريم في بناء أسس العقيدة.

2 - حرية الإرادة من لوازم العقيدة في الإسلام.

3 - التفكر والتأمل في خلق الله تعالى، وأثر ذلك في تثبيت العقيدة.

4 - افتقاد الأديان الوضعية والرسالات السماوية المحرفة لغة الحوار.

5 - الفرق بين مقاصد القرآن الكريم وأغراض الجدل عند الفلاسفة والمفكرين.

6 - «وكان الإنسان أكثر شيءٍ جدلاً».

7 - لغة القرآن الكريم تدعو إلى النقاش المنصف البريء.

8 - لغة الحوار وأهميتها في الإقناع والاقتناع.

وفيما يلي تفصيل هذه النقاط.

منهج القرآن الكريم في بناء أسس العقيدة

القرآن الكريم، كتابٌ أُحكمت آياته، ثم فصلت من لدن حكيم خبير. أوحاه الله تعالى إلى رسوله محمد ﷺ بلسانٍ عربي مبين، ليبشر به المتقين، وينذر به قوماً بالموعظة الحسنة، ولفت النظر إلى ما في الكون من آيات وعبر، فانطلقت به الأفكار من قيودها، وتحركت بعد ردح من الزمن من ركودها، واستبان الحق ووضح، وقامت الحجّة، وانزاحت الشبهة.

قصّ من أخبار الأمم الماضية ما فيه عبرة لمن يعتبر، فبيّن ما حلّ

بهم، منهم الغارقون في لجة الطوفان الغامر، ومنهم المأخوذون بالعاصفة المدمرَة، ومنهم من أخذته الصيحة، ومنهم من خُسفت به وبداره الأرض، ومنهم من يقدم قومه فأوردهم النار. كان ذلك جزاء إعراضهم عن شرع الله، الذي أكده على لسان رسله وأنبيائه.

جاء هذا الكتاب ليهدي البشرية إلى الطريق السوي، ويرد على مزاعم وتخرصات الأقوام الذين جادلوا بالباطل، وأفسدوا في هذه الأرض، وأخرج لهم نفاقهم الذي في قلوبهم، ووقف سداً منيعاً أمام المجادلين بغير علم، ولا هدى، ولا كتاب منير.

نعى على علماء الأديان ما حرفوا وبدلوا وأفسدوا، وبيّن نياتهم وخبثهم، وأبان لهم طريق الصواب ليتبعوه.

ووقف ضد كل من يحاولون التحريف والتغيير في القرآن الكريم، وأوضح لهم بأنه محفوظ من التبديل والتغيير، وأوضح أنه كتاب الله فعلاً، ولم يخطه محمد ﷺ بيمينه، كما يدّعون، ولا تعلمه من غيره.

نعى القرآن الكريم على الناس ما اتخذوه من شتى المعبودات.

كما نعى على عبدة الأوثان والأصنام أفعالهم، ووبخهم، وأبان لهم نقص عقولهم، وشدة جهلهم.

والتفت إلى الكفار من أهل الكتاب والمشركين، فوصف ما قاموا به من عمل خبيث، سجله عليهم، وذكر ما أكنته صدورهم، وأضمرته نفوسهم من الكيد والغدر بالنبي ﷺ، والإصرار على الكفر، والتمادي في النفاق، والإعراض عما جاء به القرآن الكريم من حقائق. والحق في منهج الله أصيل، وهو قيام هذا الوجود، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل.

وأخذ على بني إسرائيل كتمانهم ما أنزل الله عليهم في التوراة،

ونصبِ العداوة والمكر والخديعة، فأظهر الله ما كتموه من العداوة، وكشف ما أضمروا من الحسد والجحود والإنكار.

ولقد تتبع أقوال المشركين، لأنهم أول فريق واجه الدعوة في مهدها بالرد والمعارضة والتحدي والإبطال، حتى لجأوا إلى الهروب من صوغ القرآن الكريم وقوي حجته، وذلك بالدعوة والإعراض عن سماعه، فكشف ذلك الفزع والخوف في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾[1].

ورغم كل محاولاتهم، فما استطاعوا إبطال أثره، ولا منعوه من التغلغل إلى القلوب، واستقر الإسلام، ورست سفينته على شاطىء الأمان، كما أراد الله تعالى. وهكذا أغلقت السبل أمام كل المعارضين، لأنهم تشبثوا بالطحالب، ولأنهم يعلمون أن ادعاءاتهم وافتراءاتهم مجانبة للواقع.

لفت القرآن الكريم أنظار الناس إلى أدلة وجود الله ووحدانيته واستحقاقه للعبادة دون سواه، من خلال هذا الكون الذي يحيط بالإنسان ويملأ أفقه.

ولقد كان من رحمة الله بخلقه، أنه لم يدَعهم، على ما منحهم من طاقات فكرية، إلى أنفسهم، يضطربون في الحياة على غير هدى، بل تكرم بإرسال مبشرين ومنذرين، وتتابع هؤلاء الرسل بداية بآدم ـ عليه السلام ـ ونهاية بخاتم رسله محمد ﷺ.

حقاً إن رحلة القرآن الكريم في بناء أسس العقيدة مستوعبة، إتصلت بفطرة الإنسان، لأن خالق الإنسان هو الذي تحدث إليه في القرآن الكريم. إن الذي يضع خطة الرحلة للطريق، هو الذي يدرك الطريق كله، والإنسان محجوب عن رؤية هذا الطريق.

---

(1) سورة فصلت، الآية 26.

إن العودة إلى منهج الله تكون من طريق واحد، هو منهج الرسالات، ومنهج الرسل الذين أرسلهم الله لهداية البشرية، ومنهج الفطرة الموصلة بالوجود وخالق الوجود. وعليه يكون الإيمان بالله نقطة التحول في حياة البشرية من العبودية لشتى القوى، وشتى المعبودات، إلى إله واحد: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾[1].

وبهذا يتحرر الإنسان من كل عبودية، تحول دون الإيمان برب الوجود.

حرية الإرادة من لوازم العقيدة في الإسلام

تجلت قدرة الله تعالى وبدائع صنعه وخلقه في ما يحويه معرض الكون الهائل من مخلوقات، تجلت في خلق الإنسان وما أودع في تفكيره من إدراك ووصول إلى المعرفة، وما منحه الله من حرية الاختيار وتكريمه بأن يكون خليفة الله في أرضه.

ومنذ خلق الإنسان، وهو ينشد الإيمان الذي يريح قلبه وفكره، وإن ضل طريقه الصحيح، عبر مراحل تاريخه الطويل، نحو ما يجب أن يؤمن به. وكان من رحمة الله بهذا الإنسان، أن كرمه وسخر له هذا الكون، وأنعم عليه بما لا يحصى من نعم، أن أرسل إليه رسله وأنبياءه لهدايته الصراط السوي. فالإنسان، على ما منحه سبحانه من الطاقات والقدرات، التي يميز بها بين الخير والشر، والحق والباطل، فوق هذا وذاك، أمهله مهلة تكفيه أن يتدبر أموره، ويختار النهج الذي يريد أن يسير فيه بمحض إرادته.

ابتدأ القرآن الكريم بالأصل الأول، وأرشد إلى دلائله الأساسية،

---

(1) سورة الإخلاص كاملة.

وخاطب الناس بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ...﴾[1]، وقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾[2]. وأوضح أن دين الله واحد، منذ عهد آدم إلى خاتم رسل الله محمد ﷺ مصداقاً لقوله: ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾[3]، ويكاد هذا الغرض يكون هو الأصل.

وأوضح أن هذا الدين، يرتكز، قبل كل شيء، على أصول ثلاثة، الإيمان بالله، وبالرسالات السماوية، والبعث والجزاء، وما أرسل الله من نبي إلا بهذه الأصول الثلاثة لاستحالة تبديلها.

«وجه القرآن الكريم العقل البشري إلى أصول العقيدة، من الإيمان بالله واليوم الآخر وما فيه من جنة ونار، عن طريق عرضها لدلالتها على وجود الله ووحدانيته، من خلال الكون الفسيح، وما يشيع فيه من دقة وروعة الخلق والإبداع والجمال والترتيب والتنسيق بأسلوب يفهمه الناس جميعاً، دون اللجوء إلى الأدلة المنطقية أو العلمية، التي يختص بها قلة من الناس، من أجل أن تتضح الرؤية أمام العقل البشري السوي، فيختار بمحض إرادته العقيدة التي يطمئن إليها»[4].

خاطب القرآن الكريم الإنسانية بما جبلت عليه، قبل أن ترين عليها غشاوات الجهل والأنانية، وقبل انحرافها، فأقنعها كل الإقناع بما ساقه من أدلة وبراهين، فانقادت إلى الحق عن حب وإيمان.

جاء بآخر رسالة تمحو آثار الشرك والوثنية، وتحارب التقليد، وترسم قواعد الفضيلة عن حب للخير ودعوة للسلام.

---

(1) سورة البقرة، الآية 21.
(2) سورة الذاريات، الآية 56.
(3) سورة الأنبياء، الآية 92.
(4) انظر «من روائع القرآن»، د. محمد سعيد البوطي، ص 193، ط 5، مكتبة الفارابي.

أكثر القرآن الكريم من معالجة قضية الوحدانية، وتحرير عقل الإنسان من عبودية غير الله، والدعوة إلى الإيمان بالله والرسل واليوم الآخر، وما فيه من ثواب وعقاب، وجنة ونار، وبيان أن الأصنام التي اتخذها الإنسان معبوداً له وتقرب إليها زلفى، لا تملك له نفعاً ولا ضراً.

وكان للقرآن الكريم منهجه الفريد في معالجة تلك القضايا التي عرض لها، واستخدم القرآن الكريم في كل ذلك استغلال المشاعر والعواطف الإنسانية من طريق الترغيب، وإشباع الغرائز والميول، لا بواسطة التهديد والتعنيف اللذين تأتي بهما القوة، وخاصة أن طبيعة هذا الدين تأبى الإكراه: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾[1]. ناهيك بقوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾[2]. وبين لخاتم رسله محمدﷺ أنه لا يريد إيماناً يحمل عليه الناس بالإكراه. وبهذا المبدأ عرض القرآن الكريم عقائده وتشريعاته على الناس، وكان طريقه، في عرضها، دائراً بين النظر العقلي وما يجده الإنسان في داخله من حاجة فطرية.

التفكر والتأمل في خلق الله تعالى وأثر ذلك في تثبيت العقيدة

خلق الله تعالى الإنسان في أحسن تقويم، وكرمه أبلغ تكريم، وجعله أسمى مخلوقاته، فاستخلفه في الأرض ليعمرها، ويعمل على استمرار الحياة فيها، فقال: ﴿۞وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا ٧٠﴾[3]، ومنحه القدرة على الإدراك، والتمييز بين الخير والشر، وترجيح ما يراه أولى

---

(1) سورة البقرة، الآية 256.
(2) سورة الكهف، الآية 29.
(3) سورة الإسراء، الآية 70.

بالتنفيذ ـ وهذا معنى الحرية الإنسانية التي تتفق مع طبيعة الإنسان، والتي خلقه الله عليها.

ولقد أشاد القرآن الكريم بالعقل، واعتمد عليه في التعرف بوجود الله وتوحيده، فدعا الناس إلى النظر في الكون، ليدركوا، من جماله وعظمته، الخالق العظيم، ويؤمنوا به لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾[1]، وقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾[2].

ومدح الذين يتفكرون في خلق السموات والأرض، بأنهم هم العقلاء، فقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾﴾[3].

والتفكر والتأمل في بديع صنع الله تعالى، يهدي إلى الله، ويثبت

(1) سورة البقرة، الآية 164.
(2) سورة الرعد، الآيات 2، 3، 4.
(3) سورة آل عمران، الآيتان 190، 191.

الإيمان به، ويدعو إلى تعلم ما يعين على إدراك ما في الكون من تدبير محكم ونظام دقيق، وجمال لا حدّ له، من علوم طبيعية وفلكية وكيماوية وطب وغيرها، مما يجعل الإنسان متعلماً متعبداً. إن درساً في الطبيعة أو الكيمياء هو صلاة خاشعة، وإن سياحة في عالم الأفلاك هي تسبيح وتحميد، وإن جولة في الحقول النضرة، والحدائق الزاهرة، أو جولة مثلها في المصانع الضاجة بالحركة، المائجة بالوقود والإنتاج، هي صلةِ حسنة بالله تعالى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

وبالتأمل في الكون، يرى الإنسان ثباته على نظام لا يتغير. فحركة الكواكب تجري على نظام ثابت، منذ كانت الدنيا، والفصول تتابع كما ألِفها الناس، وقوانين السحاب والمطر، والنبات، لم يصبها تغير، وكل ما في الكون باقٍ على نظامه الثابت المحكم، لم يتغير، ولم يضطرب. ألا يهدي ذلك إلى أن مدبر الخلق واحد لا شريك له؟ ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾[1] ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾[2].

وقد أراد القرآن الكريم بالدعوة إلى النظر والتأمل في خلق الله، أن يصل العقل إلى الإيمان بالله وتوحيده، دون إكراه، بل بالطريق الفطري، الذي اهتدى به الراشدون من الناس.

لقد كرم الله الإنسان، ووهبه العقل، وجعله سيد الكون، بما سخر له من عوالم تسعى لخدمته، وتهدف إلى إسعاده، وذلك بغرس العقيدة الصحيحة. ودعاه إلى العلم واستعمال العقل، في ما يعود عليه بالنفع. وسما به فكرياً وسلوكياً بما يتفق مع كرامته.

---

(1) سورة الأعراف، الآية 54.

(2) سورة المؤمنون، الآية 91.

وهذا لا يمكن، إلا إذا تحررت إرادة الإنسان من كافة أنواع القيود والاستبداد، ومن الخضوع للأشخاص والأشباح، والتخلص من شتى ألوان الأوهام والخرافات، والاعتقادات الباطلة التي تغشى النظر، وتشل انطلاقة العقل، وتعمل على تكريس الجهل وتعميق مظاهر التخلف.

وقد شدد الله تعالى في الدعوة إلى النظر في الكون، واستعمال العقل في ما اشتمل عليه من الآيات الدالة على وجود الله وقدرته وعظمته ووحدانيته، وأنذر بالنار من لا يستعملون حواسهم وعقولهم في إدراك ما في الكون من أسرار تهدي إلى الخالق العظيم، وجعلهم كالأنعام بل أحط منها. فقال: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ (1)، وأنكر على الناس أن يتبعوا ما وجدوا عليه آباءهم، دون تأمل في صحته أو بطلانه، أو الوقوف عند محط الأقدمين، وكان الجديد أجدى وأنفع لهم، فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ (2).

ولقد أثنى الله تعالى على الذين يخلصون للحقائق، ويتحرون الأشياء بعد البحث والتمحيص، فيأخذون ما هو أحسن ويتركون غيره، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾﴾ (3). «لقد انطلق القرآن الكريم من فكرة رفض التقليد للعقائد والعادات الموروثة، وتركيز قيمة العقل كأساس من أسس

(1) سورة الأعراف، الآية 179.
(2) سورة البقرة، الآية 170.
(3) سورة الزمر، الآية 18.

المعرفة، واعتبار الحجّة هي الأساس للإيمان بالحقيقة، فلا حقيقة بدون نور، ولا نور بدون برهان يسلط الضوء على الحقيقة»[1].

افتقاد الأديان الوضعية والرسالات السماوية المحرفة لغة الحوار

كان من رحمة الله تعالى على الإنسان، أن استخلفه في الأرض ليعمرها، ويعمل بأمره، أن عرفه كل أمر يخص عقيدته، ولم يتركه ليهيم بين شتى التصورات والجهالات والخرافات.

ساق القرآن الكريم آيات عديدة تحدد، وترسم قاعدة الانطلاقة الإنسانية تجاه الخير والسعادة، بإتّباع نهج الله السوي، البعيد عن الخرافة والتفكير غير المجدي.

فقد أورد القرآن الكريم مجموعة من المحاورات الهامة، التي دارت بين الرسول محمد ﷺ، وأهل الكتاب، حول العقيدة، مستهدفة تصحيح فكرتهم وتقويم تصوراتهم، وتوضح للمسلمين المعرفة الدقيقة عن التشويه الذي ألحقوه بالكتب السماوية المنزلة، والتحريف الذي أدخلوه عليها، حتى صارت بعيدة كل البعد عن منهج الوحي الإلّهي. لقد تعرف المسلمون بالعديد من الحقائق، التي كانت خافية عن أهل الكتاب، ساقها لهم القرآن الكريم حججاً، فنّد بها ادعاءات أهل الكتاب.

إن الحوار الذي ساقه القرآن الكريم لتوضيح الحق ودحض الشبهات، هو المنهج الواقعي الذي يوضح كافة شؤون العقيدة، بالحجّة والبرهان، وبكل بساطة، لأن ذلك الحوار، لا يربط العقل بالوهم، ولا بالخيال. ومن خلال تتبع حجج القرآن الكريم في شأن العقيدة، وما أثار من جدال منطقي مهذب حول هذا الموضوع، وما منحه من

(1) «أسلوب الدعوة في القرآن»، محمد حسين فضل الله، ط 2، ص 7، دار الإهداء، بيروت، لبنان.

حوار مثمر بنّاء، نرى أنه جاء ليصحح أخطاء أهل الكتاب وغيرهم، ويجادلهم بالتي هي أحسن.

إن كافة الردود القرآنية، جاءت شافية كافية، حيث أعطت الفكر الصحيح عن الأديان الوضعية والرسالات المحرفة، وَدَلَّلَتْ بأنها أديان وضعية محرفة أتت بها إلى الطريق السوي، ومسحت ما علق بها من ضلال وخرافة.

ومن خلال تتبع مسالك الحوار القرآني، نجده أنه كتاب وحي بالفعل والنظر. إن حوار القرآن الكريم واستدلاله، هدفهما إيضاح الحق. وأصحاب الأديان المحرفة، استخدموا الحوار لإضاعة الحق ونصرة الباطل وأوليائه، وللبرهنة على الخطأ أنه صواب.

إن حوار القرآن الكريم وجدله لا يصدان صدود أصحاب الرسالات المحرفة، والأديان الوضعية، بل يتركان باب التفاهم والحوار مفتوحاً.

إن افتقاد الأديان الوضعية لغة الحوار، يرجع، أصلاً وأساساً، إلى التحريف والتبديل اللذين أدخلا إلى مبادىء هذه الأديان من قبل أتباع ذوي غايات سيئة، حرفوا وبدلوا وفق أهوائهم وأغراضهم الخاصة، ولو أن هذه الأديان بقيت على مبادئها من غير تحريف، لانسجمت مع الإسلام الذي حمله القرآن الكريم إلى البشرية.

إن مهمة جدل القرآن الكريم محددة، مقيدة بما يجلب منفعة ويدفع ضراً، لأن لغة الحوار الذي ساقه القرآن الكريم، تقوم على التبسيط كقوله تعالى: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[1].

ولقد تتبع المحققون كتب أهل الكتاب، فوجدوا فيها الكثير من التحريفات التي يشهد العقل بداهة، أنها محرفة لا شك في ذلك،

---

(1) سورة إبراهيم، الآية 10.

وكشفوا عن جملة من المتناقضات والأغلاط التي ملئت بها هذه الكتب المحرفة. وإذا كانت الكتب محرفة، فبديهي، أن يكون الحوار أشد، مما جعلهم يعيشون في معزل عن منهج الله الذي ارتضاه للبشرية. يتخبطون في متاهاتهم وجدلهم اللاهوتي، الذي لا يسمن ولا يغني من جوع، مما جعلهم يعيشون عيشة الشقاوة الحائرة، ولن يجدوا السعادة إلى أن يرجعوا إلى منهج الفطرة، فطرة الله التي فطر الناس عليها.

الفرق بين مقاصد القرآن الكريم وأغراض الجدل عند الفلاسفة والمفكرين

إن طريقة الفلاسفة والمفكرين ومقاصد جدلهم، التي اتبعوها لإقناع سامعيهم، تدعو إلى السخرية، فضلاً عن أنها لا تمت إلى الإقناع بأي صلة. إن هؤلاء الفلاسفة والمفكرين لم يبحثوا عن الحقيقة لذاتها، بل كانوا يبحثون عن وسائل النجاح في الحياة، «فوجدوا أن طريقة الغلبة هو إقناع سامعيهم بأي ثمن، ولو كان ذلك على سبيل التغرير بهم، واستخدموا لتحقيق هذا الهدف الخطابة الرنانة، التي تعتمد على زخرف القول، ولجؤوا إلى الجدل والمراء واختراع الحجج الزائفة أكثر من اعتمادهم على العقل. وكانت نقطة البدء مشابهة للأسس التي يقوم عليها مذهب أرسطو، غير أنهم اعتمدوا على الآراء السائدة الغامضة، التي يسلّم بها الناس عادة دون نقد أو تمحيص.

لأن الناس قديماً، تأثروا بالسحر والطلاسم والفلسفة والمنطق السفسطي، لذلك لجأ المتكلمون إلى الفلسفة اليونانية، وقام القصاص بتأليف نمط القصص والأساطير على غرار قصص ألف ليلة وليلة. وجملة القول.. هؤلاء الفلاسفة والمفكرون لم يفعلوا شيئاً سوى أن نموا قوة المهاترة واللجج على حساب التفكير المجدي النافع والحجّة الواضحة، لكنهم برعوا في اختيار الموضوعات، ومهروا في عرضها عرضاً شائقاً، يأخذ بلب السامع، ثم إنهم ادعوا أنهم يعلمون كل

شيء، وأنهم لا يعلمون الناس إلا ما يعود عليهم بالنفع، وكانوا يقرون أن الخطأ مستحيل»[1].

مما تقدم، يتضح أن الجدل عند هؤلاء الفلاسفة والمفكرين، يقوم على المخاصمة والانفعال ويشغل عن النظر في الحق، ويحجب وضوح الرؤية الفكرية، ويبعد عن الاهتداء إلى الصواب عند البحث، وهذه أمور لا يبحثها القرآن الكريم، بل ويبعد أتباعه عنها، ألا يكون ذلك منهم دفاعاً ضد العلم لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾[2]. إن جدل القرآن الكريم يتناسب مع المقام. وحتى لا يكون قيد الجدل وشروطه بالتي هي أحسن، يدفع كل أنواع الجدل الأخرى التي ينشأ عنها إضاعة الحق، وتتسبب بمضايقات وإحراجات لا طائل من ورائها.

إن الحوار الحاد المتوتر الذي يستند إلى الشتم والسباب، لا ينتج فكراً حراً نزيهاً، إنما تداخله الاعتبارات الذاتية، المؤدية إلى التجني والمكابرة والعناد. لذلك، فإن اختيار أسلوب الجدل بالتي هي أحسن من باب اختيار الأمثل والأجدر، عند تحاور العقول وتفاعلها وتناظرها.

وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً

حقاً أن الله تعالى خلق الإنسان، وأسكنه في الأرض، وأمره بعبادته، وحدد له منهجاً سليماً، ينبغي أن يسير عليه، إن أراد أن يسعد في دنياه وآخرته. إلا أن الإنسان قد تنكب طريقاً آخر في القرون المتعاقبة، واتبع السبل المعوجة والمناهج المنحرفة المتضاربة، فضل الطريق السوي حتى إنه أشرك بالله أوثاناً عديدة من السموات والأرض، وهمية وبشرية وغير بشرية، وخلط أنواعاً من الأوهام وضروباً من النظريات

(1) المنطق الحديث ومناهج البحث، د. محمد قاسم، ص 15، 16، ط 6، دار المعارف بمصر (مع اختلاف).
(2) سورة العنكبوت، الآية 46.

وألواناً من الفلسفات، ونبذ وراء ظهره ما أمره الله به من مبادىء، كما أوحى له هواه وعصبيته نُظماً ومناهج للحياة، ملأت الأرض ظلماً وفساداً أو جوراً وشقاء، حتى إنه ظل يجادل في الله بغير علم، ولا هدى، ولا كتاب منير.

وتبدو المجادلة مستغربة مستنكرة في ظل ذلك البرهان الكوني، وفي جوار هذه النعمة السابغة، ويبدو الجحود والإنكار قبيحين تنفر منهما الفطرة، ولا يستجيبان لداعي الكون كله حولهما.

والله الذي أعطى للإنسان ذلك الاستقلال المحدد، لم يتدخل، بصفته تعالى خالقاً، في رد من ضل وغوى من الناس إلى المنهج الصحيح بالقهر والقسر.

إن القرآن الكريم دعا الإنسان إلى أن يفكر ويتدبر، وأن يجادل بالحجّة والمنطق، وترك له حرية الاختيار والتعبير.

إن حياة الإنسان القصيرة على هذه الأرض، والمصير الذي ينتظره، يفترض أن يصرف أموره إلى ذلك، ويقلل من غلوائه وغروره، وألا ينزلق في متاهات الجدل، إذ أَن الجدل منهي عنه، وإذا كان ممكناً، فيكون الجدل في الحق، ولأجل إعلاء كلمة الله تعالى، وإسقاط كلمة الذين كفروا.

وبما أن القرآن الكريم نزل وهو يحمل إلى الناس عقيدة وشريعة، «وكان من حكمته تعالى أن يترفق بعباده في التفاهم معهم، فيرسل القول ويستنهض فيهم العقول، مراعياً في الإنسان خصائصه الجدلية»[1]، لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾[2]

---

(1) التعريف بالإسلام، في رياض القرآن، عبد اللطيف الشبكي، الكتاب الخامس، ص 98، ط 1963، مطابع الشروق.

(2) سورة الكهف، الآية 54.

وقد قدم القرآن الكريم صوراً كثيرة من جدل الإنسان. أذكر منها جدل اليهود مع المشركين، حدث الجدل بينهما نتيجة لاختلاطهما، ونشأت بينهما مناقشات ومنازعات، إذ أنهما طائفتان لم تتوحد مشاعرهما، ولم تجتمع عاداتهما، فنشأ صراع دائم بينهما. واليهود، كما هو معروف، قوم مغالون في تقدير أنفسهم ومنزلتهم الدينية.

ثم إن هناك جدلاً آخر دار بين النصارى والمشركين نتيجة التجاور والتداخل بينهما. وكان بعض النصارى يدعو بعض القبائل العربية إلى اعتناق عقيدتهم، وحكى التاريخ بعض المناظرات التي تصور بعض النقاشات الجدلية. ومن أبرز الصراعات الجدلية، تلك التي ابتدعها فرق الخوارج والمعتزلة، ومن يسمون بالشيعة والرافضة وغيرهم... من الفرق المحسوبة على الإسلام، وهي في الواقع فرق هدامة، ليست منه في شيء. إن قضايا العقيدة التي كانت في القرآن الكريم موضع تصديق وإيمان، صارت بين تلك الفرق المتصارعة موضع تشريع ثم جدال ومراء. والمتصفح لكتب الطبقات والفرق والملل والنحل، يجد الصورة الباهتة من المراء والجدل المقيت الذي كان يجري بين هذه الفرق التي صالت وجالت قروناً متتالية»[1].

اشتبه عليهم دينهم، فاشتبهت آراؤهم. كانوا قصيري النظر، تمسكوا بحرفية النص. لم ينتبهوا إلى أن هذا الدين دين العدل الذي قامت عليه السموات والأرض، وأنه دين الفطرة السوية، والعقل الصحيح، والفكر القويم.

ذهب بهم الشطط واللّجاج، وتعددت آراؤهم، وكان أغلبها مجانباً

(1) أنظر: تاريخ الجدل، لأبي زهرة، الطبعة الأولى، ص 109 وما بعدها، دار الفكر العربي، بيروت، سنة 1934.
وانظر: الشيخ د. محمد عبد الغني، النثر الفني العباسي الأول، ص 207، 215، الدار العربية للكتاب ـ الجماهيرية 1988.

للحق، ينقصهم المدد الإلّهي. أعماهم الكبر والحقد، أشعلوا ثورة جوفاء، فكانوا عقبة ضد الإسلام وتقدمه، شوهوا مبادئه السمحة. لهذا، تعدّ أعمالهم خسارة كبرى، تناسوا وشيجة العقيدة التي غمرتهم، تناسوا قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾[1].

ويكفي لنطالع قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾[2]، لنعلم أي خسارة حلت بأولئك المتعصبين، مهما كانت الحجج التي يدافعون بها.

ويتضح مما تقدم، أن الجدل شأن اجتماعي، لا يمكن أن تتخلى عنه أمة، أو يتخلى عنه شعب. وذلك لأن الناس مختلفون في المعتقدات والآراء، متباينون في الأغراض والميول. وما الحروب الطاحنة، في هذا العصر، إلا وليدة اختلاف الآراء، ونتيجة تشعب الأفكار. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه المظاهر الطبيعية، فقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾[3].

وليس كل جدل شراً محضاً، بل البعض منه مدعاة للخير، ومراده النفع العام، إذا كان الغرض منه الوصول إلى الحق وتمحيص أوجه الصواب.

لغة الحوار تدعو إلى النقاش المنصف البريء

الإسلام دين اتخذه الله للبشرية، أرسى دعائم وأساسيات لانطلاقته، وحثّ على النقاش المنصف البريء، الذي نراه دفع بجمهور المسلمين إلى

---

(1) سورة آل عمران، الآية 105.
(2) سورة الأنعام، الآية 159.
(3) سورة هود، الآيتان 118، 119.

العلم والمعرفة بإلزام وإلحاح، ودفع بهم إلى دق أبواب المعارف المغلقة بكل وسيلة معقولة ومقبولة، وبكل تصميم وعزم على البحث والتأمل والنظر للوصول إلى المعرفة الحقة. ولم يجعل على العقول حجاباً ساتراً، لأنه لا يخشى على عقائده ومبادئه من أي بحث علمي سليم أو إطالة النقاش، ولأنه على يقين من أن من ازداد علماً، ازداد معرفة بالله، وهذا أكملُ غرض عنده، لأن البحث العلمي السليم والتأمل والنظر، السديدين البريئين من الهوى والتعصب الذميم، لا بد أن توصل أصحابها إلى النتائج نفسها التي قررها الإسلام ودعا إليها، ونادى بها، في عقائده ومبادئه، فهو مطمئن من جهة أي بحث أو نقاش مطلبه الحقيقة. إذ من الخطأ غلق باب النقاش، بل هو مخالف مخالفة صريحة للدعوة القرآنية إلى النظر في ملكوت السموات والأرض، وما خلق الله من شيء. ومن المكابرة التي لا يرضاها الإسلام بحال من الأحوال، رفض الحقائق العلمية، لأنها تخالف أو تجانب مطلب الخصم.

لذا، فإني أراه واسع الصدر لكل نقاش منصف بريء من الهوى والتعصب، يتقبل أي نقاش متجرد، يستهدف الحقيقة، كما يتقبل كل تأمل ونظر ومقارنة. ولذلك فقد طلب من جمهور المسلمين أن يكونوا في نقاشهم وجدالهم متصفين بالحق متحلين بسعة الصدر، وعلمهم ما يأتي:

أولاً: أن يبحثوا بتجرد، ويقولوا للخصوم، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٢٤﴾[1]. وهذه غاية النصفة والاعتدال في الجدال، أن يقول رسول الإسلام ﷺ للمشركين، إن أحدنا لا بد أن يكون على صواب والآخر مخالف، ثم يدع تحديد الضال من المهتدي، وعلى الضال أن يملك أعصابه، ويتدبر ويتفكر في هدوء، لا تغشى عُليه العزة بالإثم، والرغبة في الجدال المحال، فإنما

(1) سورة سبأ، الآية 24.

هو هاد ومعلم يبتغي هداهم وإرشادهم، لا إذلالهم وإفحامهم لمجرد الإذلال والإفحام.

إن الجدل إذا سار على هذا المنوال، فإنه من غير شك، سيصل إلى قلوب المستكبرين المعاندين المتطاولين بالجاه أو المقام، المستكبرين على الإذعان والاستسلام، وأجدر بأن يثير التدبر الهادي والإقناع العميق. وهو نموذج من أدب الجدل القرآني وأصوله. فإن للقرآن الكريم مسلكه الخاص في أدب الجدل، ومراعاة شعور الخصوم، أدب يتفق مع مكانة القرآن السامية، ومراعاة تتناسب مع الرسول الكريم ﷺ.

وقد علم الله خطر الجدل، إذا لم يقصد به الوصول إلى الحق، فذكر في كتابه العزيز الأصل العام، الذي يجب أن يكون عليه النقاش، والأساس الذي يجب أن يبني عليه المسلم جدله ونقاشه من حسن الأسلوب، ولين الجانب، وغف القول والإغضاء عن الهفوات، والصفح عن الزلات، كما في قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾[1]. فقد رسم العلي القدير لرسوله محمد ﷺ دستوراً يتبعه في رحلة دعوته، بأن يقيم الدعوة على الحكمة والموعظة الحسنة بالأدب والأخلاق المثلى، التي تضم الخصم إلى ساحته، وتقربه إلى مبادئه، ثم حبب إليه طريقة الصفح، وبصره بمكانة الصبر لقوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾[2].

ومثل ذلك نجده في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[3]، وقوله تعالى لرسوله موسى ـ عليه السلام ـ، عندما اصطحب أخاه هارون وزيراً، فزودهما بقوله الحكيم: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾[4].

---

(1) سورة النحل، الآية 125.
(2) سورة النحل، الآية 126.
(3) سورة العنكبوت، الآية 46.
(4) سورة طه، الآيتان 43، 44.

هذا هو دستور القرآن الكريم، ودعوته الحسنة، وتحريضه أتباعه من المؤمنين، أن يتجهوا إلى سلوك طريق الحسنى في حجاجهم ونقاشهم، وأن ينهجوا نهجه.

لغة الحوار وأهميتها في الإقناع والاقتناع

لقد شجع القرآن الكريم على الحوار، بمعنى الكلام، وتبادل الرأي، من أجل التوضيح والوصول إلى معرفة الحقيقة.

والقرآن الكريم، عندما فتح باب الحوار والمناقشة وصولاً للإقناع في إيناس ورضاء، لقد وقف أمام المراء الباطل. وما دام الأمر على هذا الوضوح، فكان بالأحرى أن يجعل المحاور قصده الحق وبغيته الصواب، لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ۝٣٨﴾[1]، وأن يكون منصفاً غير مكابر، لأنه يطلب الإنصاف، وأن يقصد قول الجد، فقد وصف الله نبيه محمداً ﷺ بقوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣﴾[2]، وأن يقصد الحوار الحسن، وهو كل ما كان في معالي الأمور وفي محاسنها، لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[3]، وقال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٣٣﴾[4].

لهذا أمر الله أنبياءه بالتلطف في الحوار، وبالتي هي أحسن. ولقد تجلى هذا المعنى واضحاً، عندما أوحى إلى رسوله محمد ﷺ فقال له:

---

(1) سورة النبأ، الآية 38.
(2) سورة النجم، الآية 3.
(3) سورة الزمر، الآية 23.
(4) سورة فصلت، الآية 33.

﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨﴾[1]، وقوله: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ﴾[2].

فعلى من يتصدى للحوار أن يعتزل الهوى، في ما يريد من إصابة الحق، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾[3]، وأن يتجنب الكذب في قوله وخبره، لأنه خلاف الحق، وإنما يريد الحوار وإبانة الحق واتباعه، ولأن اللجوء إلى الكذب من الأمور التي حذر الله تعالى منها المؤمنين، فقال: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ١٠﴾[4]، وأن يتجنب الضجر وقلة الصبر، لأن عمدة الأمر في استخراج الغوامض وإثارة المعاني هو الصبر على التأمل والتفكر. ولقد ذم الله تعالى من اقتصر على ظواهر الأمور، دون بواطنها، ونفي العلم عنهم، حيث قال: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨٧﴾[5]، وشبه من حملوا التوراة ثم لم يحملوها عن تدبر لمعانيها، بالحمار، حيث قال: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥﴾[6].

ولقد أجمع العلماء وذوو العقول على تعظيم من أفصح عن حجته، وبين حقه، واستنقاص من عجز عن إيضاح حقه، وقصر عن القيام بحجته، وذم من لا يقيم حجته، ولا يستبين عن حقه في خصومته،

---

(1) سورة الحجر، الآية 88.
(2) سورة آل عمران، الآية 159.
(3) سورة ص، الآية 26.
(4) سورة البقرة، الآية 10.
(5) سورة الأعراف، الآية 187.
(6) سورة الجمعة، الآية 5.

لقوله تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾﴾[2].

إن المتتبع لآيات القرآن الكريم، يعرف كيف دعا كتاب الله المؤمنين إلى اتباع سلوك طريق الحسنى في حوارهم، وبيّن لهم حصاد ذلك من أنه يقلب العدو صديقاً والخصم الألد ولياً حميماً. ولهذا حرص القرآن الكريم على أنه يجب على كل من يحاور أو يجادل، أن يكون حواره دحضاً للباطل وإحقاقاً للحق، حتى يصل المجتمع الإنساني إلى الغاية التي رسمها سبحانه وتعالى له.

ومن خلال تتبع حوار الأنبياء المرسلين: نوح وهود وصالح وشعيب وإبراهيم ـ عليهم السلام ـ، ومواقفهم من أقوامهم في محاوراتهم وتساؤلاتهم، وقبولهم كل غِلظة وقسوة وجفوة وشدة في الخطاب بكل أدب رفيع، وسلوك كريم، وتوجيه صادق سليم، وتسامح ورحمة. نرى أنها لجديرة أن تحول كل عناد إلى انقياد، وأن ترد كل غواية إلى أدب وهداية، لو كانوا يعقلون. تلك من الدروس المستفادة، التي يجب أن ترتفع إليها مستويات الإنسانية اليوم، في المعاملة وفي التفاهم والمخالفة، في كل ميادين الحياة الزاخرة.

لقد بدد القرآن الكريم ظلمات الشك والحيرة، وقاد النفوس الشاردة إلى حظيرة الطمأنينة. إن دعوة القرآن الكريم دعوة إقناع واقتناع وتدليل وتأثير. ولن تجد أهدى من حقائقه وأسطع من براهينه وأدنى إلى شغاف القلوب، وأدعى إلى اطمئنان العقل من قوله عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾[3].

---

(1) سورة الزخرف، الآية 18.
(2) سورة الشورى، الآية 16.
(3) سورة سبأ، الآية 46.

إن القرآن الكريم موضع تصديق لا يقبل الشك، بعد أن توالت الأدلة وتضافرت البراهين. بهذا الإقناع المكين، بلغ القرآن مبلغه، حين نادى برسالة سماوية خالدة، حين أخرج الناس من الظلمات إلى النور: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ...﴾[1].

بعد هذه النقاط التي تعد بمثابة التمهيد، أرجو أن أكون قد وضعت النقاط على الحروف، والله من وراء القصد.

(1) سورة إبراهيم، الآية 1.

الفصل الأول

منهج القرآن الكريم
في تناول أصول الجدل
وآداب المحاجّة

المبحث الأول

مفهوم الجدل والجدال في القرآن الكريم

قبل البدء بتناول الأسلوب القرآني في محاجته لخصومه وجدالهم، أقدم نبذة سريعة عن المقصدْ اللغوي لكلمة «الجدل»، كما وردت في القرآن الكريم. ولعل من الخير أن أستعين بما ورد في كتب التراث، وكتب الفقه اللغوي، ومفردات القرآن الكريم، حتى أكون على بينة مما أتحدث عنه. وقد أورد هذا المعنى الإمام الراغب، فقال: «الجدل المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة، وأصله من جدلت الحبل، أي أحكمت فتله، ومنه الجديل، وجدلت البناء أحكمته، ودرع مجدولة، والأجدل الصقر المحكم البنية، والأجدل القصر المحكم البناء». وقيل الأصل في الجدال هو الصراع وإسقاط الإنسان صاحبه على الجدالة، وهي الأرض الصلبة قال تعالى: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ - ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ - وقال: ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ﴾، وقال: ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا﴾، ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢا﴾، ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا ٥٤﴾، وقال: ﴿وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ﴾، وقال: ﴿يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ ٧٤﴾، ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ - ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ﴾، ﴿وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ﴾[1].

---

(1) المفردات في غريب القرآن، للراغب، تحقيق سيد كيلاني، ص 89، 90، دار =

وقال الإمام الحسين بن محمد الدمغاني:

«الجدل على ثلاثة أوجه: الخصومة ـ المراء ـ الدعاء.

1 ـ فوجه منه الجدال الخصومة: فذلك قوله تعالى في سورة إبراهيم: ﴿وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ﴾، يعني يخاصمون. وقال تعالى في سورة هود: ﴿يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾﴾، يعني يخاصمنا. وقوله في سورة الحج: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ﴾، يخاصم في الله.

2 ـ الجدال المراء: قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾، يعني ولا مراء في الحج، وقال تعالى في سورة هود: ﴿قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا﴾. يقولون ماريتنا فأكثرت مراءنا. وقال تعالى في سورة غافر: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، يعني يماري، ونحوه كثير.

3 ـ الجدال الصراع: قال تعالى في سورة النحل: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[1].

وقال أبو الفرج قدامة:

«وأما الجدل والمجادلة، فهما قول يقصد به إقامة الحجّة فيما اختلف فيه اعتقاد المتجادلين، ويستعمل في المذاهب والديانات، وفي الحقوق والخصومات، والتنصل في الاعتذارات.

وهو ينقسم إلى قسمين: أحدهما محمود، والآخر مذموم.

فأما المحمود، فهو الذي يقصد به الحق، ويستعمل به الصدق. وأما المذموم، فما أريد به المماراة والغلبة، وطلب الرياء والسمعة. وقد جاء

= المعرفة، بيروت،، لبنان.

(1) قاموس القرآن، للدمغاني، تحقيق عبد العزيز سيد الأهل، ص 103، ط 3، دار العلم، بيروت، لبنان.

في القرآن الكريم مدح ما ذكرنا أنه محمود، وذم ما ذكرنا أنه مذموم»[1]. قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[2]، وقال: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ﴾[3]. قوله تعالى في خليله إبراهيم ـ عليه السلام ـ، عندما حاج قومه ولزمتهم الحجّة. وقال موصياً رسوله محمداً ﷺ: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾[4].

والقرآن الكريم لا يلجأ إلى الجدل، إلا في حالات الضرورة، وهي حالات رد الخصم وإلزامه وإظهار الحجّة، إذن هي اوكد الأشياء. وفي الوقت نفسه، يطلب البرهان ويقصد التبيين والبيان، من ذلك قوله تعالى لليهود، لما أراد إلزامهم الحجّة فيما حرموا على أنفسهم بغير أمر ربهم: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾﴾[5].

تمت مجادلة أهل الكتاب اليهود بما جاءهم به كتابهم التوراة، وبفرض ما فيه، وأعلمهم أنهم إذا حرموا على أنفسهم ما لم يحرمه الله في كتابهم، فإن لم يسلّموا بما جاءتهم به التوراة، فقد ظلموا واعتدوا. ولهذا لزمتهم الحجّة.

والمعارضة في الجدال صحيحة، وقد عارض سبحانه وتعالى من أبى

---

(1) نقد النثر، لقدامة البغدادي، ص 117، ط 1982، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

(2) سورة العنكبوت، الآية 46.

(3) سورة الأنعام، الآية 80.

(4) سورة النحل، الآية 125.

(5) سورة آل عمران، الآيتان 93، 94.

البعث واستنكره مع إقراره بالابتداء (ابتداء الخلق) فقال: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩﴾[1]. فلقد ألزم الله المعاندين ألاّ ينكروا إعادتهم بعد إقرارهم بإنشائهم وخلقهم أول الأمر.

وفي موضوع آخر، فقد قدم الحجج لمن أنكر البعث: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ۝٣٧﴾[2]. فقد دلل الله تعالى على بعثهم من جديد بأن الذي بدأ الخلق من العدم في قدرته أن يعيده، فهنا تقاس الإعادة على الابتداء، وأيضاً تقاس الإعادة على إحياء الأرض بعد موتها ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ۝١٩﴾[3]. فلقد أعلمهم كيفية الاستدلال برد النشأة الآخرة على الأولى، والجمع بينهما بعلة الحدوث، وهذا في غاية البيان في رد الشيء على نظيره والجمع بينهما، وبهذا صار الخلاف الموجود أوضح دليل على كون البعث الذي ينكره المنكرون حقيقة لا يتطرق إليها أدنى شك[4].

وهذه هي طريقة القرآن الكريم في الاستدلال، القائم على النظر الصائب حتى في أعقد القضايا، فقد وصل بالمعاندين أن أقروا بأن البعث الذي ينكرونه حقيقة لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور للمجازاة والحساب.

وأكتفي في هذا المقام بما أوردت ذكره، ورأيت أن أشير إلى ما ذكره

---

(1) سورة يس، الآيتان 78 ـ 79.
(2) سورة المؤمنون، الآية 37.
(3) سورة الروم، الآية 19.
(4) البرهان في علوم القرآن، للزركشي، جـ 2، ص 26، 27، ط 2، دار المعارف للطباعة والنشر، القاهرة.

العلماء القدامى في هذا العنى، حيث رأيت المعنى الذي ذهبت إليه واضحاً جلياً لدى هؤلاء الأعلام.

المنهج الجدلي في القرآن

ومن خلال تتبع آي الذكر الحكيم، التي جادلت المفكرين والمبطلين، أرى أن المنهج الجدلي في القرآن الكريم يقوم على حرية العقل وإطلاقه في جميع الآفاق والميادين، وتتجلى هذه الحرية، حيث يقدم القرآن الكريم الدليل القاطع على صحة دعوته، ووجوب الإيمان بها لقوله: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ٣٥﴾[1].

وأيضاً، تظهر هذه الحرية حين يطالب القرآن الكريم المنكرين أن يبرروا موقفهم بالدليل: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ١١١﴾[2].

إن الجدل القرآني في حقيقته وواقعه: إقامة الحجّة على الدعوة، بما تستدعيه طبيعتها في نظر العقل وطلب الحجة ممن جحد وعاند، ورده بحجّة أبلغ وأقوى، إن كان لديه إثارة من شبهة أو دليل»[3].

وقد ظهر هذا المنهج الجدلي في موضوعات متعددة، سأتعرض لها في النقاط التالية:

أولاً ـ مجادلة القرآن الكريم لخصومه في إثبات الألوهية لله وحده، وإبطال عبادة غيره. لقد تناول القرآن الحكيم هذا الموضوع بأساليب شتى منها:

---

(1) سورة فصلت، الآية 35.

(2) سورة البقرة، الآية 111.

(3) التفسير الكاشف، لمحمد جواد مغنية، مجلد 6، جـ 1، ص 116، ط 3، 1981، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان.

الاكتفاء ببيان حقيقة الشيء وتحليل معناه، وقد استعمل القرآن الكريم هذا الأسلوب للرد على عبدة الأصنام، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾[1].

إن معبودات المشركين عاجزة عن خلق أتفه الأشياء. كيف يعبد الإنسان من قعد به الضعف والعجز عن خلق الذباب.

كما استعمل القرآن الحكيم هذا الأسلوب في الرد على من ألّه المسيح ـ عليه السلام ـ فقال: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾[2].

بيّن تعالى لهؤلاء النصارى الآيات والبراهين على بطلان دعواهم في المسيح ـ عليه السلام. أقام البرهان من حال المسيح وأمه على بطلان كونه إلَهاً، وقفى على ذلك بالتعجب من بعد التفات ما بين قوة الآيات التي حججهم بها وشدة انصرافهم عنها. «فهؤلاء انصرفوا عن الحق، فالمسيح عليه السلام، وإن ظهرت الآيات على يده لإعجاز قومه، فإنما جاء كما جاءت بها الرسل، فإن كان إلَهاً فليكن كل رسول إلَهاً، فهذا رد لقولهم واحتجاج عليه»[3].

الله خلق آدم بدون أب وأم، فهو سبحانه قادر على خلق عيسى بدون أب. ونظراً إلى وضوح هذا المنطق الواقعي، ونصاعته والذي لا يجادل فيه إنسان يعقل، فإنه يعقب عليه باستنكار موقفهم والتعجب من انصرافهم عن ذلك المنطق البين. فهؤلاء ينصرفون عن الحق بعد هذا

---

(1) سورة الحج، الآية 73.
(2) سورة المائدة، الآية 75.
(3) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، جـ 6، ص 250، ط 3، دار إحياء التراث.

البيان. حقاً، لقد كانت الحياة البشرية الواقعية للمسيح - عليه السلام -، مصدر تعب لمن أرادوا تأليهه، على الرغم مما جاءهم به من الحقائق، وقد أجهدوا أنفسهم كثيراً، واحتاجوا إلى كثير من الجدل والخلاف حوله. وهذا ابتعاد عن أصول الجدل.

ومنها الاستدلال بوجود حادث على وجود علته، بحيث يستلزم العلم بوجوده. والقرآن الكريم استعمل هذا الأسلوب إثباتاً لوجوده في آيات كثيرة، منها على سبيل المثال: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ ۝٥ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦﴾[1]. إن هذا الكون، على دقته وتنظيمه، لم يقم صدفة، بل دل على وجود مدبر قائم به، ألا وهو الله سبحانه وتعالى.

كما استعمل القرآن الكريم هذا الأسلوب في إثبات وحدانية الله تعالى، حيث قال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[2]. لقد برهن تعالى عن أدلة وحدانيته، لأن تعدد الآلهة، ينجم عنه فساد هذا الكون، وحيث لا فساد فلا تعدد. وقد استعمل سبحانه وتعالى هذا الأسلوب للدلالة على إمكان البعث، ومحاسبة الناس بعد إحيائهم يوم القيامة. وفي ذلك يقول: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٢٧﴾[3]. إن من قدر على إيجاد الشيء، فبالأحرى أنه قادر على جمع أجزائه من جديد.

وهذه الأمثلة، برهان قاطع على أن جدل القرآن الكريم يقوم على أساس العقل، وأن الهدف منه إظهار الحق للإيمان والعمل به، أو لإفحام من جحد وعاند، كل ذلك بأسلوب مقنع بغيته طلب الحق

(1) سورة ق، الآيتان 5، 6.
(2) سورة الأنبياء، الآية 22.
(3) سورة الروم، الآية 27.

لوجه الحق. ﴿وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾[1].

إن كل من قرأ القرآن الكريم، وتدبره غاية التدبر، يفهم منه أن قواعد الإيمان وأصوله، والتي تمثل العمود الفقري لهذا الدين، الذي ارتضاه الله للبشرية جمعاء، لم يعرضها القرآن الكريم بشكل تعقيدي جامد، يسوق القضايا سوقاً يلزم بها الناس بالشدة، ويقسرهم على قبول تلك المبادىء والأصول قسراً. بل على العكس من ذلك تماماً، إذ نزل بتلك الأصول المقدسة إلى منزلة الأخذ والرد، جدل منظّم وحوار هادىء.

وركز القرآن الكريم جداله على إثبات أحقية العبادة لله تعالى، والتي هي الوظيفة الأساسية للإنسان على هذه الأرض، حيث قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾[2]، وقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾[3]. خطاب عام صريح، موجه إلى كل فئات الناس، القصد منه التقرب إلى الله تعالى والإخلاص في عبادته. ثم قال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ.. ﴾[4].

بعد أن أمر الله الناس بالعبادة، بادر إلى تعداد صنوف نعمه، ليستدلوا بها على وجوب عبادته. ومن هذا المنطلق، فإن القرآن الكريم يحاج الإنسان لإثبات ذاته لاستحقاقه العبادة فيقول: ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾[5]. وقد تكررت هذه الآية في السورة للتأكيد وعلى النعم

(1) سورة العنكبوت، الآية 46.
(2) سورة البقرة، الآية 21.
(3) سورة الذاريات، الآية 56.
(4) سورة البقرة، الآية 22.
(5) سورة الرحمن، الآية 13.

الكثيرة التي تفضل الله بها على عباده. والإيمان بالله تعالى هو الأساس الأول، الذي جرت لإثباته محاورات القرآن الكريم.

«وهو ليس أمراً على هامش الوجود، يجوز لنا أن نغفله، أو نستخف به، أو ندعه في زاوية النسيان، وكيف وهو متعلق بوجود الإنسان ومصيره، بل إن قضية الإيمان هي أعظم قضية مصيرية بالنسبة للإنسان، إنها سعادة الأبد أو شقاوته، إنها الجنة أبداً أو النار أبداً، فكان لزاماً على كل ذي عقل أن يفكر فيها ويطمئن إلى حقيقتها، وقد فكر الكثيرون من أولي الألباب وانتهى كل منهم إلى أبحاث العقيدة في الله بطريقته الخاصة، فمنهم من استند إلى صوت الفطرة في أعمالهم، ومنهم من اعتمد على مبدأ السببية، الذي يقرر أن كل صنعة لا بد لها من صانع، وكل حادث لا بد له من محدث، وكل حركة لا بد لها من محرك، وكل نظام لا بد له من منظم، وهذا المبدأ ثابت بثبوت الأوليات في العقول.

ومنهم من ناقش المسألة مناقشة حسابية رياضية، فانتهى إلى أن الأضمن لحياته وما بعد حياته، أن يؤمن بالله وبالآخرة والبعث والجزاء»[1].

وهذا المعنى هو الذي تكفل بتفصيله المبحث الثاني.

---

(1) الإيمان والحياة، يوسف القرضاوي، ص 5، 6، ط 1، الدار السعودية للنشر والتوزيع، سنة 1969 م.

المبحث الثاني

منهج القرآن الكريم
في الاستدلال على وجود الله ووحدانيته

«لا شك أن للإيمان جذوراً تمتد في أعماق النفس الإنسانية، فلا يكاد المرء يفكر في هذا الأمر، إلا وتهتز أوتار القلب خشوعاً بين يدي الله تعالى.

الإيمان بوجود الله عقيدة تملأ الشرايين، وتسري من الإنسان مسرى الدم، إنها فطرة فطرت عليها النفوس البشرية، ويكفي دليلاً على هذا أن الإنسان الملحد، إذا وقع في شدة أو أحدق به خطر عظيم، تطايرت من ذهنه الأوهام والخيالات، وتنتفي عنه الأباطيل والتزييفات، ولا يبقى في أعماق نفسه إلا أن يلتجىء إلى حظيرة أنس الله تعالى.

حقاً إنها الحقيقة الراسخة في أعماق النفوس الإنسانية، ومهما طغت على هذه الحقيقة الراسخة أوهام من زائف التفكير، وسراب الضلال، فإن جوهرها الأصيل لا يتأثر أبداً، بل نراها تقع في أعماق النفس بانتظار الظروف المناسبة. ولا تكاد تسنح الفرصة حتى تطفو على السطح مرة أخرى، لتثبت وجودها الصارخ على الرغم من الدعاوى والغلواء»[1].

---

(1) انظر: العقيدة الإسلامية وأسسها، لعبد الرحمن الميداني، ص 124، 125، ط 4، دار القلم، دمشق، سوريا، 1986 م.

أدلة الإيمان بوجود الله

والأدلة على وجود الله تعالى، كثيرة متنوعة، وردت في العديد من الآيات القرآنية، وهي مرتبطة بالعقل والكون والأنفس، وسأتناولها بالبحث والدراسة كلها في النقاط التالية:

أولاً ـ الأدلة الكونية

فالكون مرتبط وجوده ابتداءً واستمراراً بمبدأ السببية، التي هي مبدأ وجوده، إذ لا يمكن تصور وجود هذا الكون بدون موجد يوجده، وهو الله سبحانه وتعالى. فالإيمان بوجود الله متصل حكماً، بالإيمان بوجود هذا الكون، وهذا ما يدركه كل إنسان. وهذه القضية قضية وجود الله تعالى، تتجلى عند الإنسان كلما أعمل فكره ونظره في ما يحيط به. وقد أرشدنا الله ـ سبحانه وتعالى ـ إلى بلوغ حقيقة الكون بالنظر العقلي في قوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾[1]، وقوله سبحانه: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾[2]، وقوله: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾[3].

هذا الكون بهذا التنظيم الدقيق، يستحيل، إذاً، أن يكون قد خلق

(1) سورة البقرة، الآية 164.
(2) سورة الرعد، الآية 4.
(3) سورة الذاريات، الآيات 47 ـ 49.

تلقائياً، أو خلق صدفة، لأن الصدفة تعني أن هذا الكون غير خاضع لقانون ما، وأن مبدأ السببية غير قائم.

«وليس في هذا الكون أي حدث يحدث صدفة، وإنما كل ظاهرة، لا بد لها من قوانين تحكمها، حتى لو تداخلت هذه الظواهر مع بعضها البعض. ليس معنى ذلك أنها خلقت أو وقعت صدفة»(1).

وهكذا نجد أنه لا يمكن لعاقل أن يقرر أن هذا الكون، بتنظيمه ودقته واختلاف الفصول، والليل والنهار فيه، جميعها وجدت صدفة.

ولقد فكر أصحاب العقول، على مر التاريخ، في الله تعالى لإدراك حتمية الإيمان به سبحانه، فمنهم من اهتدى إليه تعالى عن طريق التفكير في الكون.

والقرآن يوجه القلوب والأنظار توجيهاً مكرراً مؤكداً، إلى أن هذا الكتاب المفتوح، الذي ما برحت صفحاته تقلب، فتبدو في كل صفحة آية موحية، تستجيش في الفطرة السليمة إحساساً بالحق المستقر في صفحات هذا الكون، وفي تصميم هذا البناء، ورغبة في الاستجابة لخالق هذا الكون، إن أولي الإدراك الصحيح، يفتحون بصائرهم لمشاهدة آيات الله الكونية، ولا يقيمون الحواجز، ولا يغلقون المنافذ بينهم وبين هذه الآيات، ويتوجهون إلى الله بقلوبهم، فتتفتح بصائرهم، ويدركون حقيقة الكون على كونها الصحيح.

فالقرآن الكريم يعالج هذا الموضوع بعرض مظاهر الطبيعة ويربط العقيدة بها. فالعقيدة جزء من بناء هذا الكون الذي يموج بكافة المخلوقات، والدالة على الخالق العظيم، وهي تقوم على الحق الذي قامت عليه السموات والأرض وليس لعباً ولا باطلاً.

---

(1) انظر: العقيدة في القرآن، د. عبد السلام التونجي، ص 124، الطبعة الأولى، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية، طرابلس، الجماهيرية العظمى.

كما أن هذا الكون لم يخلق لعباً ولم يشب خلقه باطل. قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝١٦﴾[1].

موكب الإيمان بدأ بنوح ـ عليه السلام ـ وانتهى برسولنا محمد ﷺ، وفي مطلع هذا الموكب يعرض سبحانه وتعالى حقيقة الألوهية، كما تتجلى في فطر إبراهيم ـ عليه السلام ـ، وهو يرسم مشهداً حقيقياً للفطرة السليمة. إن إبراهيم ـ عليه السلام ـ قد رسم من نواميس الطبيعة لقومه في طريق جدلي حجي، ليدلل لهم على أن الله تعالى وحده المستحق للعبادة، ويدلل على بطلان ما يعبدون. وأرى في هذه المحاجّة الجدلية البسيطة، أن سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ قد وصل بقومه إلى طريق إقناعي واحد، وهو أن الله تعالى وحده المستحق للعبادة. وهذا ما صرح به القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ۝٧٦ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ۝٧٧ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٧٨﴾[2]. وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ۝٢٧﴾[3].

فالطبيعة كانت المدخل للإيمان، لأن الكون كان المادة الخام، التي أخذ منها إبراهيم ـ عليه السلام ـ حتمية الإيمان وحقيقته.

ويورد القرآن الكريم تعليقاً على موقف إبراهيم ـ عليه السلام ـ في مناظرته قومه، يبرز فيه منزلة الحجّة التي وهبت لإبراهيم ـ عليه السلام ـ فكسر بها دعاوى المشركين، من ذلك قوله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ

---

(1) سورة الأنبياء، الآية 16.
(2) سورة الأنعام، الآيات 76 ـ 78.
(3) سورة الزخرف، الآيتان 26، 27.

﴿عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۝٨٣﴾[1]. فالدرجات هنا، درجات الحجّة والبرهان العقلي على العلم. ولذلك قدم فيه ذكر الحكمة على العلم، وتلك إشارة إلى جميع ما احتج به إبراهيم ـ عليه السلام ـ على قومه.

ثانياً ـ الفطرة

فطرة الإنسان التي فطره الله عليها، هي أيضاً كانت منطلقاً، إستند عليها كثير من العلماء في إثبات الإيمان بالله تعالى. قال الإمام شلتوت في تفسيره: «التوحيد شأن تدعو إليه الفطرة التي خلق الناس عليها، وما أودع في الكون من الآيات، هي في وضوح دلالتها على التوحيد بمثابة عهد وإقرار، أخذه الله على الناس في الإقرار بربوبيته، والاعتراف بوحدانيته»[2]، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ۝١٧٢ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ﴾[3].

إن الاعتراف بربوبية الله وحده، فطرة في الكيان البشري، وشهدت بها البشرية على نفسها، بحكم وجودها ذاته، وحكم ما تستشعره في أعماقها من هذه الحقيقة.

إن التوحيد ميثاق معقود بين فطرة البشر وخالق البشر، فلا حجّة لهم في نقض الميثاق، حتى لو لم يبعث إليهم الرسل، يذكرونهم ويحذرونهم. ولكن رحمته تعالى اقتضت ألا يوكلهم إلى فطرهم هذه، فقد ينحرف الإنسان، وألا يوكلهم كذلك إلى عقولهم، التي منحها لهم؛

(1) سورة الأنعام، الآية 83.
(2) تفسير الإمام شلتوت، ص 449، الطبعة الخامسة، دار الشروق.
(3) سورة الأعراف، الآيتان 172، 173.

فقد تضل. لقد عرض القرآن الكريم هذا التوضيح لتلك الحقيقة العميقة المستكنة في أعماق الفطرة الإنسانية، وفي أعماق الوجود.

إن حقيقة التوحيد مركوزة في هذه الفطرة، يخرج بها كل مولود إلى الوجود، ولا يفسدها إلا عامل خارجي عنها. إن حقيقة التوحيد ليست مركوزة في فطرة الإنسان وحده، ولكنها كذلك مركوزة في فطرة هذا الوجود من حوله. وما الفطرة إلا جزء من فطرة الوجود كله، موصلة به غير منقطعة عنه.

ومن رحمة الله بعباده ـ لما يعلمه عنهم ـ أنه لم يكلهم إلى فطرتهم هذه، لأنه يعلم أنها ستنحرف في يوم ما، لذا قدّر ألا يحاسبهم على عهد الفطرة هذا، كما أنه لا يحاسبهم على ما أعطاهم من عقل، حتى يرسل إليهم الرسل، ويفصل لهم الآيات لاستنقاذ فطرتهم مما طرأ عليها من وهم وتعطيل وانحراف.

إلا أن الفطرة، على سويتها، تقود إلى الإيمان ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾[1].

بهذا تعتبر الفطرة هي المعيار الذي يحس به الإنسان بالله ويؤمن به، ولا يسوغ له إخراج هذه الفطرة عن أصلها الأول. والدليل على إحساس الإنسان بهذه الفطرة السوية، أنه يحس دائماً بوجود الله وقوته عند الشدائد والمصائب والأزمات، مهما يكن قوياً، فهو يلجأ إلى طلب العون من الله، لأنه يشعر بالعجز والضعف تجاهه. ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِن

(1) سورة الروم، الآية 30.

أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[4].

وتنقل لنا كتب التراث قصة طريفة على لسان أعرابي، حينما سئل عن الاستدلال على وجود الله تعالى. قال: الأثر يدل على المسير، والبعرة تدل على البعير، وسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، أفلا يدل ذلك على اللطيف الخبير[5].

إن كل أصل من عقيدة الإسلام، وكل فرع من شريعته، وكل حكم من أحكامه، يرتكز على الفطرة النقية الصافية ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾[6].

ولهذا جاء الإسلام يدعو العقل إلى التأمل والتفكر والملاحظة لهذه الطبيعة، منقباً عن أسرارها وفوائدها ومنافعها، وعن علاقتها بالخلق وبالإنسان، ويدعو إلى تركيز الدين والعلم والفلسفة على هذه المشاهدة والمعرفة الحسية، التي سار عليها المسلمون من قبل، والتي انتقلت منهم إلى الغرب، فكانت أساس العلم التجريبي عندهم. وفي ذلك يقول تبارك وتعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾[7].

---

(1) سورة يونس، الآية 22.
(2) سورة الإسراء، الآية 67.
(3) سورة الروم، الآية 33.
(4) سورة لقمان، الآية 32.
(5) أنظر: أيوب حسن، تبسيط العقائد الإسلامية، ط 7، ص 41، دار التراث العربي، القاهرة، 1986 م.
(6) سورة الروم، الآية 30.
(7) سورة الأعراف، الآية 185.

ولقد أطلق الإسلام الحرية في العقول والتفكير، إلى حد سمح فيه الله تعالى لعبيده الملائكة أن يحاوروه ويراجعوه، كما نطق بذلك دستور الإسلام: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾[1]. وسمح لخليله إبراهيم - عليه السلام - أن يجادله في قوم لوط: ﴿يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾﴾[2]، بل سمح لإبليس - لعنه الله - أن يحتج لديه: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾[3].

أباح الله تعالى كل هذه المناقشات، ورد عليها رداً مقنعاً، ولفت نظر الإنسان إلى التفكير والتدبر والتذكر وإعمال العقل. ولهذا دعا إلى النظر إلى ما في السموات والأرض، حيث قال: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾[4]، وقال: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾[5]، ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾[6]، وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾[7]. إلى غير ذلك من الآيات؛ وإكثار القرآن الكريم من شيء، دليل على تعظيم شأنه، ووجوب الاهتمام به.

---

(1) سورة البقرة، الآية 30.
(2) سورة هود، الآية 74.
(3) سورة الأعراف، الآية 12.
(4) سورة يونس، الآية 101.
(5) سورة العنكبوت، الآية 20.
(6) سورة الحج، الآية 46.
(7) سورة الغاشية، الآيات 17 ـ 20.

ومن فوائد الحث والنظر في ما يحويه الكون، للوقوف على أسراره قدر المستطاع، واستخراج العلوم لترقية النوع البشري، الذي خلق لأجله كل شيء. وأيضاً لمقاومة التقاليد الفاسدة الموروثة، التي كان عليها أهل الكتاب، فأودت بهم، وحرمتهم من الانتفاع بما أمر الله الناس أن ينتفعوا به. فقد وجه الله نظر الإنسان إلى المخلوقات وإلى ما في الكون، مما يدل على قدرة الصانع وعلم المبدع وإرادة الجبار: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ﴾[2]، وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾﴾[3]. فليس يخفى على ذي عقل، إذا تأمل بفكره مضمون هذه الآيات، وأدار نظره على عجائب خلق الله في السماء وفي الأرض، وبدائع فطرة الحيوان والنبات ـ أن هذا الأمر العجيب والترتيب المحكم، لا يستغنيان عن صانع يدبرهما وفاعل يحكمهما ويقدرهما، بل تكاد فطرة النفوس تشهد بكونها مقهورة تحت تسخيره، ومصرفة بمقتضى تدبيره.

إن مشاهد الكون التي ساقها القرآن الكريم، في كثير من الآيات، تمضي لتصور الإيمان على قاعدته الأصيلة، قاعدة التوحيد، توحيد الله سبحانه ـ فالخالق العظيم ـ يعرض من مشاهد الكون، ما يؤكد هذه الحقيقة شهادة لا تقبل الجدل، هذا الكون، بما يعج به، شاهد بوحدانية الله.

---

(1) سورة البقرة، الآية 164.
(2) سورة الروم، الآية 8.
(3) سورة ق، الآيتان 6 ـ 7.

إن مثل هذه الطريقة في تنبيه الحواس والمشاعر، جديرة بأن تفتح العين والقلب على عجائب هذا الكون. فالسموات والأرض، هذه الأبعاد المترامية، وهذه الأجرام الضخمة والآفاق المسحورة، والعوالم المجهولة، دليل على وجود الخالق لأنه سبب لها، وهي سبب إلى الإيمان به: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ﴾[1]. وقوله: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾[2].

إن النظر إلى هذا الكون من أول وهلة، أو بعجالة، لا يستطيع الإنسان أن يدركه، لهذا أوصى الله تعالى بالنظرة الجادة الفاحصة، المتأملة المتدبرة، كما في قوله: ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾﴾[3].

وكل ما ورد في هذا الكون من مشاهد، إستهدفت لفت النظر إلى عظمة الله تعالى، وسعة ملكه، وبديع صنعه وإتقانه، ودليل وجوده، واتصافه بأكمل الصفات. إن هذا الكون شاهد ناطق بوجود الله، وأنه وحده الأحق بالعبادة.

بعد كل تلك الدلائل، يبدو واضحاً أمر وجود الله وخلقه لهذا الكون، ليس أمراً صعباً على العقول، ولا هو بعيد عن فطرة الإنسان. فالإنسان يهتدي إلى الخلاق العليم سبحانه ما دام سليم الفطرة غير متأثر بالأهواء والأغراض: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾[4]. ولكن عمى البصيرة،

---

(1) سورة آل عمران، الآية 191.
(2) سورة الأحقاف، الآية 3.
(3) سورة الملك، الآية 4.
(4) سورة إبراهيم، الآية 10.

وتحكم الجهل والضلال، هما اللذان أعميا بعض الفئات من الناس عن نور الإيمان.

وقد وجه إليهم القرآن الكريم لومه وناقشهم، وأعني الجاحدين لنعماء الله، وهم موجودون في كل زمان ومكان، وكشف عن ضلالهم وجهلهم، وفي ذلك يقول: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾[1]. ورد على الجميع بأسلوب السخرية والاستهزاء، لإثبات الإيمان وتأكيد وجوده.

إن الجدل الذي تناوله القرآن الكريم، جاء أغلبه لإثبات الإيمان، لأن الإيمان أساس السعادة البشرية: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾[2].

إن قضية الإيمان هي من القضايا الأساسية التي عالجها القرآن الكريم، لأنها موضوع صراع بين مجتمعين كبيرين، مجتمع المؤمنين من جهة، والمشركين والمنافقين والكتابيين من جهة أخرى. وقد حاربوا الإسلام وحاربهم، لا بالسيف وحده، ولكن كذلك بالمحاجّة العلنية، ولهذا كانت الفرص كثيرة للدعوة إلى الإيمان، ومحاجّة غير المؤمنين، وكلما كانت الفرصة أعطى القرآن الكريم للإيمان معنى قد يكون جديداً، وقد يكون توضيحاً أو إضفاء إشعاع جديد على ما سبق من المعاني[3].

وقد نزل القرآن الكريم إلى حلبة الصراع بين المسلمين والمشركين والمنافقين، ومسلحاً المسلمين بسلاح الجدل المنظم الذي يعتمد على

---

(1) سورة الطور، الآيتان 35، 36.

(2) سورة النساء، الآية 124.

(3) صراع المذهب والعقيدة في القرآن، لعبد الكريم غلاب، ص 35، الطبعة الأولى 1973، دار الكتاب اللبناني، بيروت.

أصول، وأوصى الله تعالى نبيه محمداً ﷺ أن يجادل بالتي هي أحسن، لقوله تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[1]. بالجدل الذي ليس فيه إفراط ولا تفريط، بأسلوب يليق به كداع وقدوة يقتدى به إلى اليوم، حيث حارب هؤلاء جميعاً الإسلام بكل سلاح، فكان الجدل أول سلاح يواجهون به.

حكى القرآن الكريم أخبار الأولين، وكيف أخلص المؤمنون لله، فنجوا مع رسلهم. وكيف طغى الكفار، وأسكرهم الإمهال، فتعنتوا وتجبروا. ثم حل العدل الإلّهي، فذهب الظالمون بدداً، وتركوا وراءهم دنيا مدمرة ودوراً خربة. وكانت قصص الأمم السابقة دليلاً على قوة المحاجّة - محاجّة القرآن الكريم - لخصومه من المشركين والمنافقين. وكذلك أهل الكتاب، سيتعرضون جميعاً لمثل ما نال الأمم السابقة من العذاب، إن ساروا على منوالهم، ولعلهم يثوبون إلى رشدهم، ويبتعدون عن غيهم، إن أرادوا الوصول إلى الحق.

وهكذا، فإن قضية الإيمان كانت الشغل الشاغل للقرآن الكريم، وكانت المنطلق الذي يجادل من أجله الخلق لإثباتها، وقد سلك القرآن الكريم في ذلك طرقاً متعددة:

«ولعل أرق أساليب الإقناع، وأبلغ وسائل الإيمان التي جاء بها القرآن، حيث طلب من المخاطبين الاحتكام إلى غرائزهم وفطرتهم السوية، ومحاسبة عقولهم، والاعتبار بسير الغابرين، والنظر في أحوال المعاصرين. إن مثل هذه الإحالة لجديرة بأن تبعث في الإنسان الطمأنينة، وتأخذ بيده إلى حظيرة أنس الله التي أرادها الله له»[2]، ولهذا

(1) سورة النحل، الآية 125.
(2) أنظر: تفسير المنار، تأليف محمد رضاء رشيد، جـ 3، ص 273، ط 2، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

قال تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾[1].

إن نظرة صائبة في آيات الله تعالى، في الأرض وفي الأنفس، لجديرة برد البشرية إلى فطرتها الأصيلة، وقادرة على إعطاء رصيد معين لكل ذي عقل ودراية.

إن قضية العقيدة التي ساقها القرآن الكريم إلى البشرية جمعاء، قضية إقناع بعد البيان والإدراك، وليست قضية إكراه وغصب وإجبار. جاء القرآن الكريم يخاطب الإدراك البشري بكل قواه وطاقاته، يخاطب العقل المفكر والبداهة الناطقة، ويخاطب الوجدان المنفعل، كما يخاطب الفطرة السليمة، يخاطب الكيان البشري كله. لهذا قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ۚ﴾[2]. لهذا، لا يجوز إكراه أحد على الدخول في دين الله تعالى، الذي ارتضاه للبشرية جمعاء، وهو دين الإسلام الذي جا به محمد ﷺ، منذ أكثر من خمسة عشر قرناً.

لماذا؟ لأنه دين واضح جلي، دين الفطرة، فطرة الله التي فطر الناس عليها، لا يحتاج إلى أن يكره عليه أحداً أو يجبره حتى يدخل فيه، ويتوقف الدخول فيه على الرشد والبيان، لقوله تعالى: ﴿قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ۚ﴾. الآية.

فالآية جاءت توضيحاً بعد نفي الإكراه، الذي لا يقبله الله لعباده. ولهذا قال لرسوله ﷺ: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾[3]، «لأن دخول الإنسان في هذا الدين بالإكراه لا يجدي نفعاً. وقد أعطى الله سبحانه للإنسان حق الاختيار، وألقى عليه تبعية ذلك الاختيار، فلكل إنسان كامل الحرية في الاختيار،

---

(1) سورة الذاريات، الآيتان 20، 21.
(2) سورة البقرة، الآية 256.
(3) سورة يونس، الآية 99.

فاختياره لعقيدة ما مرده إلى الإرادة بفعل العقل والتفكير، وهو أمر يقوم على الاختيار المحض»[1]، لقوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[2]، وقوله: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾[3].

والله تعالى لا يرضى الكفر لعباده، ولا يقبله منهم، وإن كان ظاهر حق الاختيار قد فوض إليهم، فإن باطنه التهديد لهم والوعيد، كما جاء في سياق الآية: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ۝٢٩﴾[4].

بهذا اليسر البسيط، عرض القرآن الكريم عقائده، وأعني لب هذه العقيدة، وهي قضية الإيمان من عدمه. ويتجلى في هذا المبدأ تكريم الإنسان فوق هذه الأرض، كما أراد له الله، واحترام إرادته وفكره ومشاعره، «وتركه محض إرادته فيما يخص أمر نفسه من أمر الهدى والضلال في الاعتقاد، وتحمله تبعية عمله وحساب نفسه، وهي أخص خصائص التحرر الإنساني، حتى في أدق الأمور وأخفاها، ألا وهي علاقة الإنسان بربه واختياره لعقيدته»[5]. هذا هو المبدأ الذي نادى به دستور الإسلام، وسيظل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

إن قضية الإيمان، هي التي استوجبت تلك المحاورات، التي ساقها القرآن الكريم بين الله تعالى وبين العباد، ومجادلة القرآن الكريم للناس

---

(1) أنظر: القرآن ومشكلات الإنسان، د. مهدي أميرش، ص 14، 15، الطبعة الأولى، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ج. ع. ل. ش. ا. ع.
(2) سورة الكهف، الآية 29.
(3) سورة الإسراء، الآية 15.
(4) سورة الكهف، الآية 29.
(5) أنظر: مدخل إلى القرآن، عرض تاريخي وتحليل مقارن، لمحمد عبد الله دراز، ص 64، دار القلم، الكويت، 1986.

كافة. «فقضية الإيمان والكفر، وضعت منذ البداية في إطار واضح، لا يحتمل الجدل والمراء، ولا يخضع للنزعات والأهواء.

وإذا كانت قضية الإيمان والكفر بهذا الوضوح، الذي سرده القرآن، ولها كل هذه الأهمية، فإن الهوى ليحدث من الأثر في نفس صاحبه وفكره وشعوره كله ما ينقله من الإيمان بالله الواحد الأحد إلى الإشراك به.

والإنسان إذا كان مؤمناً، ثم انقاد لهواه، فإنه لا ينسلخ من إيمانه وكفى، بل إنه يتجرد من صورته الإنسانية الكاملة، إلى صورة هي أقرب شبهاً بأدنى الحيوانات»[1]. وإذا وصل إلى هذه المرتبة التي لا يحسد عليها، فإنه هو نفسه الذي قاد نفسه إلى ذاك المحط.

التوحيد نوعان: توحيد لربوبيته، وتوحيد لألوهيته

إن ربوبية الله تعالى ثابتة بدون جدل، مستلزمة لألوهيته، وموجهة إليها. فالرب الذي يحيي ويميت، يعطي ويمنع، وينفع ويضر، هو المستحق للعبادة، فتفرد الله بالملك لكل شيء، وتصرفه المطلق في كل شيء، وتدبيره لكل شيء دال على ربوبيته. وقد سلم بذلك أكابر الوثنيين من عبدة الأصنام: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾[2].

وإذا كان كل شيء من المخلوقات مربوباً لله تعالى، بمعنى أنه من جملة من خلقهم ورزقهم ودبر شؤونهم، وتصرف في أحوالهم، فكيف

---

(1) مجلة الدعوة الإسلامية، عدد خاص سنة 1986، ص 48، 75، بمناسبة المؤتمر الثالث للدعوة الإسلامية، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس الجماهيرية العظمى. ـ بحث 1/ الصديق يعقوب.

(2) سورة يونس، الآيتان 31، 32.

يعقل تأليه غيره من مخلوقاته المفتقرة إليه، وإذا بطل أن يكون في المخلوقات إلّه، تعين أن يكون خالقها غيرها، وهو الإلّه الحق المعبود بصدق، وهو الله جل جلاله.

واتصاف الله تعالى، دون غيره، بصفات الكمال المطلق، لكونه قوياً قادراً عليّاً، كبيراً سميعاً بصيراً، يوجب له تأليه قلوب عباده له ومحبته وتعظيمه، وتأليه جوارحهم له بالطاعة والانقياد.

لقد أقسم تعالى على توحيد ربوبيته وألوهيته، وقرر توحيد ربوبيته، حيث قال: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ۝٤ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ۝٥﴾[1]. لهذا أقر للناس عقيدة واحدة ارتضاها لهم، والرسل - عليهم السلام - إتفقوا جميعاً في دعوة أقوامهم إلى توحيد الألوهية والربوبية، وإخلاص العبادة لله وحده، مستهدفين إلى غاية واحدة.

إن توحيد الربوبية والملك، هو الإقرار بالله تعالى رب العالمين، الخالق، الرازق، المحيي، المميت، النافع، الضار، المتفرد بإجابة الدعاء عند الاضطرار، الذي له الأمر من قبل ومن بعد، ليس له شريك في ملكه، ويدخل في ذلك الإيمان بالقضاء والقدر.

وقد كان المشركون يعلمون أن كل شيء خاضع لإرادة الله وقدرته وصنعه وحده. ومع هذا، لم يكونوا بذلك مسلمين، حتى وجه الله تعالى إليهم هذا السؤال، الذي يحمل في طياته تقريعاً وتوبيخاً لعلهم يستشعرون، فقال سبحانه: ﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝١٠٧﴾[2].

لقد كان المشركون يعبدون الله ويخصلون له أنواعاً من العبادات،

---

(1) سورة الصافات، الآيتان 4، 5.
(2) سورة يوسف، الآية 107.

كالصدقة والذبح والنذر والدعاء وقت الاضطرار، ويدّعون أنهم على ملة إبراهيم ـ عليه السلام ـ وجاء القرآن الكريم ليرد عليهم بأبلغ حجّة: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾[1].

وبالإضافة إلى ذلك، كان بعض المشركين يؤمن بالبعث والحساب، وبعضهم يؤمن بالقدر، كقول زهير بن أبي سُلمى، الشاعر الجاهلي، في معلقته المشهورة:

يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر ... ليوم حساب أو يعجل فينقم[2]

وقول عنترة بن شداد العبسي:

يا عبل أين من المنية مهرب ... إذا كان رب في السماء قضاها[3]

وأشعارهم مليئة بمثل هذا، ولم يعرف عنهم إنكار شيء من هذا التوحيد، وهو التوحيد الذي تضمنه قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾[4].

وهذا التوحيد هو ركيزة الدين، وهو دعوة أول الرسل وآخرهم، وهو الذي تضمنه معنى قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ

(1) سورة آل عمران، الآية 68.
(2) شرح ديوان زهير بن أبي سلمى، الإمام أبو العباس أحمد بن يحيى بن زيد الشيباني، ص 18، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة 1944.
وقبل البيت:
فمن مبلغ الأحلاف عني رسالة ... وذبيان: هل أقسمتم كل مقسم
فلا تكتمن الله ما في نفوسكم ... ليخفى ومهما يكتم الله يعلم
يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر ... ليوم حساب أو يعجل فينقم
(3) ديوان عنترة بن شداد، تحقيق فوزي العطوي، ص 101، الطبعة الثالثة، 1980، دار مصعب، بيروت، لبنان. وفيه يقول:
يا عبل أين من المنية مهرب ... إذا كان رب في السماء قضاها
وكتيبة لبستها بكتيبة شهباء ... باسك يخاف رداها
خرساء ظاهرة الأداء كأنها ... نار يشب وقودها بلظاها
(4) سورة الفاتحة، الآية 5.

﴿ٱلرَّحِيمُ ١٦٣﴾[1]. ومن أجل هذا التوحيد، خلقت الخليقة، وأرسلت الرسل، وأنزلت الكتب، وبه افترق الناس إلى مؤمنين وكفار.

توحيد الله بالألوهية

أقف، هنا، على أعتاب قضية هامة، وهي أن الإيمان بالله تعالى لازمة من لوازم الحياة نفسها، بل هي أصل بنيان الحياة بقوامه، ولم لا والقرآن الكريم يقول: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ٥٦﴾[2]، وقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ١٠٢﴾[3].

وعلى هذا، يكون الإيمان هو أساس هذه الحياة، وهو البناء القويم الذي يجب على الكل التمسك به، لذا جادل عنه القرآن الكريم وحاور.

ولهذا أمرنا تعالى أن ننظر في أنفسنا وفي الطبيعة وما حولنا، لكي نصل إلى تلك الحقيقة الثابتة أزلاً بثبوت ملكوت الله تعالى.

إن وحدة الألوهية هي القاعدة الكبرى التي يقوم عليها التصور الإيماني، فلم يكن هناك جدل حول الاعتقاد بوجود الله. وتختلف التصورات حول ذاته، وحول صفاته، ولكن لا تنفي وجوده سبحانه وتعالى. ولم يحدث أن نسيت الفطرة السليمة هذه الحقيقة، حقيقة وجود الله، إلا في هذه الأيام الأخيرة. لذلك، ركز القرآن الكريم الحديث عن وحدة الألوهية بوصفها التصحيح الضروري، والقاعدة الصلبة والأساسية لإقامة هذا التصور.

إن قضية الربوبية لم تكن محل إنكار، حتى بين المشركين أنفسهم، فقد كانوا يعترفون بأن الله سبحانه هو الخالق الرازق، المحيي المميت،

---

(1) سورة البقرة، الآية 163.
(2) سورة الذاريات، الآية 56.
(3) سورة الأنعام، الآية 102.

المدبر المتصرف، القادر على كل شيء. ولكن هذا الاعتراف، لم تكن تتبعه مقتضياته، فلقد كان من مقتضى هذا الاعتراف بالربوبية لله، على هذا المستوى، أن تكون الألوهية له وحده، وهي القضية الأساسية الكبرى في العقيدة. «فالمشركون كانوا يعتقدون بوجود الله، لأن الفطرة البشرية، لا تستطيع التخلي عن الاعتقاد بوجود إلّه لهذا الكون، إلا في حالات نادرة منحرفة، ولكن كانوا يشركون مع الله أرباباً يتوجهون إليهم بالعبادة، على سبيل الزلفى والقربى من الله، ويكونوا لهم شفعاء»[1]، وكانوا يزاولون خصائص الربوبية، فيشرعون لأنفسهم ما لم يأذن به الله تعالى.

والقرآن الكريم لا يدخل في جدل ذهني جاف، في صدد قضية الألوهية والربوبية، كالذي جد، فيما بعد، بتأثير المنطق اليوناني والفلسفة الإغريقية. إنما يلمس المنطق الفطري الواضح البسيط المباشر.

إن الله الذي خلق السموات والأرض، وهو الذي يدبر الأمر فيهن، وهو الذي في الأرض إلّه وفي السماء. ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ۝٢٢﴾[2].

إن هذا الكون الشاسع المترامي الأطراف، سماواته وأرضه وشمسه وقمره وتحركاته وتقلباته، كل ما في السموات والأرض من خلق، ومن أمم، ومن نبات وحيوان وطير، كلها على تلك الخليقة وعلى تلك السنن، سنة الله التي لا تبديل فيها ولا تغيير، ذلك الدين القيّم.

إن هذا كله يحرك كل خالجة في وجدان الإنسان للتأمل والتدبر،

(1) أنظر: الإنسان والكون في الإسلام، الغنيمي التفتازاني، ص 27، 28، دار الثقافة، القاهرة، 1985.
(2) سورة الحشر، الآية 22.

حتى يستيقظ القلب، ويتفتح لمشاهدة الآيات الباهرة، المبثوثة في ظواهر الكون وخفاياه.

هذا هو منهج القرآن الكريم في مخاطبة البشرية بآيات الله الكونية، التي يتطلع الإنسان إليها كل يوم في هذا الكون، والتي يعلم الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن بينها وبين الإنسان علاقة وطيدة، فالإنسان جزء من هذا الكون، ويعرفها كل البشر حتى الجاحدون والكافرون: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ۝٩﴾[1].

والمنهج القرآني، يستخدم المشاهد الكونية كثيراً، في معرض الحديث عن قضية الألوهية والعبودية لله وحده، وذلك أن هذا الكون بوجوده وبمشاهده ناطق للفطرة التي لا تملك إلا الإذعان له.

كذلك يخاطب الناس لما في هذا الكون من علاقة بينه وبين الناس، وهم يلمسون ذلك في واقعهم وحياتهم الواقعية اليومية.

وهكذا لم يكن الناس في عمى عن الكون، حتى هبت زوابع العلوم الحديثة وأيقظتهم من سباتهم. لقد كانوا يفهمون هذه اللغة بكينونتهم كلها. ومن ثم خاطبهم بها القرآن الكريم منذ أمد بعيد، وهي أيضاً جسر للعبور متجددة بتجدد المعرفة، فمن ازداد علماً ازداد تقرباً إلى الله: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ۝١١٤﴾[2].

فالإنسان يعرف ربه تماماً، ويؤمن بوجوده، ولكنهم تحولوا إلى الوثنية، فالإنسان، الذي استخلفه الله ليكون خليفته في الأرض، أمسى عبداً مسخراً في السموات والأرض. إن الوثنية هوان يأتي من داخل النفس، لا من خارج الحياة، فكما يفرض المحزون كآبته على ما حوله، وكما يتخيل المرعوب الأجسام القائمة أشباحاً جاثمة، كذلك

(1) سورة الزخرف، الآية 9.
(2) سورة طه، الآية 114.

يفرض المرء الممسوخ صغار نفسه وغباء عقله على البيئة التي يعيش فيها، فيؤلّمه من جمادها وحيوانها ما يروق له، وما تمليه عليه نفسه المريضة.

الوحدانية المطلقة

الإنسان ليس عبداً لأي كائن في الأرض، أو عنصر في السماء، لأن كل شيء في السماء والأرض هو عبد الله، يعنو لجلاله وعظمته، ويذل في ساحته الكبرى، ويخضع لحكمه، وتنفذ فيه إرادته التي هي فوق كل الإرادات. وليس هناك شركاء ولا شفعاء ولا وسطاء، ومن ثم فإن كل كائن يهرع إلى الله تعالى غير مستصحب معه خلقاً آخر، مهما كبر أو حقر، وحق كل أحد من الناس أن ينكر من أقاموا أنفسهم أو أقامهم غيرهم زلفى إلى الله تعالى، وأن يهبط بهم إلى مكانهم الطبيعي، الذي حدده الله لهم، ولا يتعدونه، سواء كانوا بشراً أو حجارة أو ما في مستوى ذلك أو دونه.

ويجب أن تبنى جميع الصلات الفردية والجماعية، على أساس تفرد الله في ملكوته بهذه الوحدانية التامة.

ومن هنا، وضح القرآن الكريم وحدانية الله تعالى في قوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[1].

«لو كان في السموات والأرض آلهة تصلح لهم العبادة، سوى الله الذي هو خالق الأشياء وله العبادة والألوهية التي لا تصلح إلا له، لفسد أهل السموات والأرض»[2].

---

(1) سورة الأنبياء، الآية 22.
(2) تفسير الطبري، جـ 17، ص 11، ط 4، دار المعرفة للطباعة والنشر، 1980.

وقوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾[1].

ما جاء في سياق الآيتين، جاء رداً لقول من اعترض على توحيده سبحانه، «وأنه لا يجوز أن يكون معه إلّه سواه في الأرض أو في السماء، لأنه لو جاز أن يكون مع الله سبحانه آلهة سواه، لفسدتا ولما استقامتا، ولم ينتظم أمرهم بعد، والحال مخالف لذلك»[2]. لهذا قال الإمام النيسابوري: «وعدم اللازم يدل عل عدم اللزوم»[3].

وقضية التوحيد، هي التي دفعت القرآن الكريم إلى مجادلة المشركين، لإثبات أحقية الله بالعبادة دون سواه. الأمر الذي اقتضى أن يرسل الله إلى الناس، على فترات من الزمن، ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾[4]، ﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾[5].

---

(1) سورة المؤمنون، الآية 91.

(2) أنظر: مجمع البيان في تفسير القرآن، للشيخ أبي علي بن الحسن الطبرسي، المجلد الرابع، جـ 17، ص 18، طبعة جديدة مصححة، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1980. وأنظر: الرازي المختار أحمد بن محمد بن المظفر، كتاب حجج القرآن، ط 2، ص 12، 13، دار الرائد العربي بيروت، لبنان، 1982.

(3) تفسير النيسابوري الموضوع بهامش تفسير ابن جرير الطبري، جـ 18، ص 30، ط 4، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

(4) سورة النساء، الآية 165.

(5) سورة النساء، الآيات 163 ـ 165.

وحدة الإيمان

إن الإيمان وحدة لا تتجزأ، الإيمان بالله والإيمان بوحدانيته سبحانه. ووحدانيته تقتضي وحدة الدين، الذي ارتضاه الله للناس، لتقوم حياتهم كلها كوحدة متكاملة على أساسه. وتقتضي وحدة الرسل، الذين جاؤوا بهذا الدين من عنده سبحانه، لا من عند أنفسهم، ولا في معزل عن إرادته ووحيه، ووحدة الموقف تجاههم جميعاً، ولا سبيل إلى تفكيك هذه الوحدة، إلا بالكفر المطلق.

والأمر كله، في حقيقته، واضح: إلّه واحد. إرتضى للناس ديناً واحداً، وضع لحياتهم منهجاً واحداً، وأرسل رسله إليهم جميعاً بهذا الدين الواحد.. وهذا المنهج الواحد، وموكب الإيمان في حسهم، متواصل يقوده نوح وإبراهيم، وموسى وعيسى ومحمد وإخوانهم من الرسل ـ عليهم السلام ـ، ونسبتهم إلى هذا الموكب المتواصل على طول المشوار الطويل، لا تفرقة، ولا عزلة، ولا انفصام، وإليهم وحدهم انتهى ميراث الدين الحق.

والقرآن الكريم، إذ يوضح لنا مفهوم العقيدة في الله ورسله، لأنه الأساس اللائق، وليكون المؤمن على بينة من عقيدته التي ارتضاها الله له.

إن العاقل يرى وحدة الخالق في هذا الوجود، أينما امتد بصره، ولأنه هو التصور الكفيل بضم المؤمنين جميعاً في زحف واحد، يقف أمام جحافل الكافرين.

وفي ظل هذا التوضيح، يبدو غريباً أن يوجد بين الجماعة البشرية من يؤمنون برسول ويكفرون بآخر، يبدو أنهم منقطعون عن موكب الإيمان، مفرقون للوحدة التي جمعها الله، منكرون للوحدانية التي يقوم عليها الإيمان بالله عز وجل.

مسلك القرآن الكريم في إثبات الوحدانية

الوحدانية من أهم الموضوعات والقضايا التي جاء القرآن الكريم، لإثباتها والدعوة إليها. وهي من العقائد الإسلامية الواجب اعتقادها على كل مكلف، حتى يصير مؤمناً. وقد جاءت بها جميع الأديان السماوية والكتب الإلّهية المنزلة على الرسل السابقين. ولم يكتف القرآن الكريم أن يفند المعتقدات الباطلة، بل هو يعطي الحجّة والبرهان على دعواه بدلائل عقلية ومنطقية، لا يجد العقل مناصاً دون التسليم بها والإذعان لها.

والقرآن الكريم، حين يتحدث عن سيرة الأنبياء، الذين أرسلهم الله لهداية الخلق، يقص على لسانهم ما وعظوا به قومهم من الدعوة إلى الوحدانية، وترك الشرك، وعرض الدلائل النيرة التي تشهد بوجوده ووحدانيته.

وفي ذلك يقول تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾[1].

هذه هي الحقيقة الأولى، التي يقوم عليها التصور الاعتقادي في الإسلام لحقيقة التوحيد، توحيد الألوهية. فإن شهادة الله سبحانه، بأنه لا إلّه إلا هو، مسوقة مساق ما بعدها من مستلزماتها، وهو أنه لا يقبل من العباد إلا العبادة الخالصة، وإلا فهي مردودة.

فالتوحيد أول دعوة الرسل، وأول منازل الطريق، وأول مقام يقوم فيه السالك إلى درب الله تعالى، لقوله عز وجل: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾[2].

وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ

---

(1) سورة آل عمران، الآية 18.

(2) سورة الأعراف، الآية 55.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ (1).

والتوحيد مفتاح دعوة الرسل. فهذا أمر القرآن الكريم، ودعوة أول رسول للبشرية، بعد حدوث جريمة الشرك: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ (2).

ثم تتّابع الرسل من بعده، فهذه دعوة هود ـ عليه السلام: ﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾﴾ (3).

ويحكي القرآن الكريم قول صالح ـ عليه السلام ـ لقومه: ﴿۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ (4).

وقال شعيب ـ عليه السلام ـ لقومه: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ (5).

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ (6).

وقال تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ (7).

وقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ (8).

---

(1) سورة البقرة، الآيتان 21، 22.
(2) سورة المؤمنون، الآية 23.
(3) سورة الأعراف، الآية 65.
(4) سورة هود، الآية 61.
(5) سورة الأعراف، الآية 85.
(6) سورة الأنبياء، الآية 25.
(7) سورة الزخرف، الآية 45.
(8) سورة الذاريات، الآية 56.

وهذا التوحيد، هو حقيقة دين الإسلام، الذي لا يقبل من أحد سواه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾[1].

وقال: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾[2]، ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾[3].

فالتوحيد الذي جعله الله الركيزة الأساسية للعقيدة بميادينها الواسعة، أول ما يدخل به في الإسلام، وآخر ما يخرج منه في الدنيا.

«وإذا استقرأنا آيات القرآن الكريم، فلن نجد قضية من القضايا التي عني بها القرآن الكريم، على كثرتها وتنوعها، عرضت بهذه الصورة من التأكيد بالتكرار، أو بتنوع صور العرض، أو بحشد البراهين والدلائل، مثل ما تم لعقيدة التوحيد. وإذا كان موقف القرآن من هذه القضية، وعلى هذه الصورة، يستحق الدراسة والبحث، إلا أنه ليس بالأمر المستغرب إذا وضعنا في الاعتبار أن عقيدة التوحيد هي لب الدين، وهي القاسم المشترك في رسالات الله إلى الناس كافة»[4].

وإذا كانت قضية التوحيد هي التي جدت بالله تعالى، على إرسال الرسل، على فترات من الزمن، لبعض الخلق، فيحسن طرح سؤال: إلى من كان الرسل يُبعثون؟

كانوا يبعثون إلى أكثر الأمم ضلالاً وانحرافاً عن طريق الله تعالى، الذي رسمه لعباده: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾[5].

---

(1) سورة آل عمران، الآية 19.

(2) سورة آل عمران، الآية 85.

(3) سورة آل عمران، الآية 83.

(4) مجلة الدعوة الإسلامية، العدد 2، ص 19، طرابلس، الجماهيرية. مقال 1/ الصديق يعقوب.

(5) سورة الأنعام، الآية 153.

وهذا سؤال يفرض نفسه أيضاً: لم جادل وحاور القرآن الكريم في قضية التوحيد؟ وهل كان أهل مكة أكثر الأقوام فساداً أو انحرافاً، حتى يبعث لهم رسول؟

لم يكن أهل مكة أكثر الأقوام فساداً، ولكن بعث النبي الأمي محمد ﷺ فيهم هو تشريف لهم، وتبيان للبشرية جمعاء أن أمة العرب، إن كانت في الجاهلية قد انحرفت عن المسار الجاد في الوصول إلى الله تعالى، فعبدوا الأصنام، إلا أنهم خير الأمم. إذ لم يثبت عنهم محاربة نبي أو قتله أو تحريف كتاب، بل كانوا سادرين في غي عقائدي يسير على ملة الآباء والأجداد، يتضح ذلك في ردهم الدائم، الوارد في القرآن الحكيم، حيث يقولون: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾[1]. وحين دخلوا الإسلام، كانوا خير أمة أخرجت للناس. قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾[2].

جاء القرآن الكريم لينتشل الناس من عبادة الأوثان، التي دبت بين الناس، بعد حدوث جريمة الشرك، والتي وقف لها القرآن الكريم بالمرصاد. وليست دعوة القرآن الكريم قاصرة على دعوة العرب في جزيرتهم دون بقية الأمم. كما جاء ليوضح المسار الصحيح للعقيدة الصحيحة الثابتة، التي ارتضاها الله للبشرية على مر العصور. ولم يعد يعد ذلك مبرر للانحراف في العقيدة بجهل أو خطأ، حيث نصوص القرآن قطعية الثبوت. لذا كان لزاماً على كل من بلغته دعوة القرآن، الإذعان والتصديق الفوري.

إن المتتبع لآيات القرآن الكريم، المعنية بالبرهنة على وحدانية الله

---

(1) سورة الزخرف، الآية 23.

(2) سورة آل عمران، الآية 110

تعالى، والتي من خلالها عرض تلك الحقائق الثابتة والأزلية، يرى أنها اهتمت بهذه القضية من بداية نزول القرآن الكريم بمكة على رسول الإنسانية محمد ﷺ وحتى نزول قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[1].

والقرآن الكريم يورد عقيدة التوحيد بمفهومها الصحيح من خلال آياته، يخاطب بها العقل والوجدان البشريين، مستخدماً الكون المحيط به في صور شتى من الاستدلالات. خاطب العربي على راحلته، والعالم المحقق، والطبيب الحاذق، والكيمائي والفلكي. وكل ذلك ليفهم الناس أن لهذا الكون خالقاً ورازقاً ومدبراً لا تكون العبادة والخضوع إلا له وحده، وأن جهل مثل هذه الحقائق وإغفالها، أو التغافل عنها، يعتبر نوعاً من الانحراف الذي يقود إلى الشرك.

ولماذا لا؟ والقرآن الكريم حجّة الله القاطعة، نزل شريعة أبدية للناس على السواء، على اختلاف أصنافهم، وتباين أفهامهم، وتفاوت مداركهم.

بهذا الهدي الكريم، وبذلك الحق المبين، وبتلك الدلائل والبينات، وعظ القرآن الكريم وجادل.

والقرآن الكريم جاء خطاباً للعقول، لم يستخدم الجدل إلا في حالات نادرة، هي تلك التي قصد فيها إلزام الخصم وإفحامه في بعض المواقف، كما سنرى في ردّه عن عبدة الأصنام.

والقرآن الكريم في محاوراته، لم يفرق بين العربي وغيره، ولم يقتصر في حواره على زمن أو مكان ما، بل كان في كل محاوراته عاماً صالحاً لكل زمان ومكان. فما حاور به القرآن الكريم أهل مكة قديماً، يصلح

---

(1) سورة المائدة، الآية 3.

أن يخاطب به أهل عصرنا، وهذا يؤكد عظمة القرآن الكريم وقوة إعجازه.

والآن إلى طرح سؤال عن تلك القضية، التي شغلت حيزاً كبيراً من القرآن الكريم، والتي كانت الأساس في تولد الجدل الموجود في القرآن والسؤال: ما ماهية التوحيد وما حقيقته؟

ليعرف كل واحد في أي طريق يسلك، وعن أي مبدأ يجادل ويحاور جميع الخلق في كل زمان ومكان. كما يطرح سؤال هام آخر، قبل الإجابة عن السؤال المطروح سلفاً، عليّ أن أسأل عن طريقة الجدل التي خطها القرآن الكريم لتكون أصولاً ودستوراً عاماً، والطريقة المثلى التي أمر الله بها تعالى رسله ـ عليهم السلام ـ ومنهم رسولنا محمد ﷺ.

إن ما سار عليه القرآن الكريم في الجدل والمحاجّة لإثبات الإيمان، يمتاز بالأسلوب البرهاني، الذي يفوق كل منطق صوري أو تجريبي.

ولقد تناول القرآن الكريم، قضية الإيمان بشمولية، ووقف قليلاً عند دعوة الرسل لأقوامهم، وما تحملوه من المتاعب، وما أصابهم من الأذى، بداية بأول رسول نوح ـ عليه السلام ـ ونهاية بخاتم الرسل محمد ﷺ. فهم جميعاً واجهوا أقوامهم وحاجوهم لإثبات دعوتهم، حتى وصلوا معهم إلى الطريق المسدود في أغلب الأحوال، ونظراً إلى ما امتاز به هؤلاء الرسل من الفطنة والصدق، أيدهم الله بكافة أنواع الحجج والبراهين، لتسند الدعوة إلى الإيمان والإسلام، الذي أتى به محمد ﷺ، ولتؤكد أن عقلية الجاحدين واحدة، سواء كانت في عهد نوح أو إبراهيم أو موسى أو محمد ﷺ.

ولعل الأسلوب القصصي عن واقع الأنبياء، منقولاً من حلبة الصراع ذاتها، وواقع الأنبياء المعاش مع أقوامهم، وضرب الأمثال وكافة الأساليب الخطابية المتنوعة، من أبرز الدلائل على قوة محاجة القرآن

الكريم، حيث إنه خرج منتصراً في جميع جولاته التي خاضها ضد خصومه كافة.

ولقد أشار القرآن الكريم إلى أن الناس مختلفون في الآراء، متباينون في الأغراض والميول، في قوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾[1].

لذا، كانت للقرآن الكريم طريقته الخاصة في إقامة الحجّة والبرهان، وله أسلوبه الخاص في طريقة الاستدلال، ومسلكه الخاص في أصول الجدل، وآداب المحاجّة، ومراعاة شعور الخصوم، أدب يتفق مع مكانة القرآن الكريم الرفيعة، ومراعاة تتناسب مع خاتم الرسل محمد ﷺ الذي جاء بهذا الدستور، ولما علم الله من خطر الجدل، إذا لم يقصد به الوصول إلى الحق، فقد بين الأصل العام، الذي يجب أن يكون عليه الجدل من أصول وآداب لمحاجّة الخصوم. والأساس الذي يجب أن يبني عليه الرسول أو الداعية، جدله أو مناظرته، من حسن الأسلوب، وعف القول، والإغضاء عن الهفوات، والصفح عن الزلات. في مثل قوله: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾[2].

يتبين مما تقدم، أن الله تعالى، قد رسم لرسوله ﷺ أصولاً للجدل، وآداباً للمحاجّة، يجب أن يتبعها في دعوته التي كلف بها، إذ أمره أن يقيم دعوته على الحكمة والموعظة الحسنة الآخذة بالقلوب لحسنها، يجادل الخصوم، لكن بالطريقة المثلى، التي تضم الخصم إلى ساحته وتقربه للمبادىء التي يدعو إليها، ثم حبب الله الصفح وبصره بمكانة الصبر،

---

(1) سورة هود، الآيتان 118، 119.
(2) سورة النحل، الآية 125.

حيث قال: ﴿... وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾[1].

و على هذا الأساس، رسم تعالى آداباً لمحاجّة الخصم، وأصولاً للجدل لترسيخ الدعوة ومبادئها وطرقها بالتي هي أحسن، والدعوة بالحكمة والنظر في أحوال المخاطبين، وتقصي ظروفهم، وذلك بالقدر الذي بينه لهم في كل مرة، فلا يثقل عليهم، ولا يحملهم أكثر مما يطيقونه، ويراعي فيهم استعداد نفوسهم للتقبل والرفض والطريقة المثلى التي يخاطبهم بها، مع تنوع الطريقة حسب متطلباتها، بالإضافة إلى الموعظة الحسنة التي تتسرب إلى القلوب برفق «إذ الرفق في الموعظة، كثيراً ما يهدي القلوب الشاردة. ويأتي بخير من الزجر والتأنيب والتوبيخ، والجدل بالحسنى بلا تحامل ولا ترذيل، حتى يطمئن ويشعر الخصم أن ليس هدفه الغلبة في الجدال، ولكن بغيته الإقناع والوصول إلى الحق»[2]، لأن نفسية الإنسان لها طابعها المتزمت، وهي لا تنزل عن الرأي الذي تسانده والحل إلى ذلك الرفق، حتى لا تشعر بالهزيمة. ثم إن الجدل بالحسنى، يطمئن المجادل ويشعره أن ذاته مصونة وقيمته فوق كل الاعتبارات، وأن الرسول أو الداعية لا يقصد إلا الكشف عن الحقيقة في ذاتها، والاهتداء إليها، وأن الدعوة في سبيل الله، لا في سبيل نصرة الرأي الآخر وهزيمة الخصم، والغرض من الجدال إنما هو البيان، والأمر بعد ذلك متروك بيد الله تعالى، فهو الذي يهدي إلى سبيل الحق، وهو أعلم بالمهتدين.

ولم تقف آداب الجدل في القرآن الكريم، عند الجدل بالتي هي أحسن فقط، إنما تجاوزت ذلك إلى أخلاقيات الجدل القرآني، وهو أن يكون الحق هو المستهدف، وليس الباطل. لهذا بيّن تعالى عقوبة الذين

---

(1) سورة النحل، الآية 126.

(2) ينظر: تفسير الكشاف، للزمخشري، جـ2، ص 435، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

يجادلون في سبيل الباطل، في قوله: ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾[1].

وذكر القرآن الكريم أولئك الذين يجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق، ولفت الناس إلى الغاية التي يجب أن تقصد من الجدل، وهو ظهور الحق الذي يعود نفعه على الناس قاطبة ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾[2].

وقد نبه تعالى إلى خطر الجدل، إذا لم يقصد منه الحق. وحذر المؤمنين، ونهاهم عن مجادلة أهل الكتاب، إلا بالتي هي أحسن: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[3].

والجدل بجميع أقسامه، ليس منهياً عنه، إنما المنهي عنه، هو الجدل الذي يقود صاحبه إلى اللجاج والمحك، لأن العصبية تغلب على مستعملها فتبعده عن الحق.

قال النيسابوري في تفسيره: «الجدل ليس منهياً عنه بجميع أقسامه، وإنما المذموم منه، هو الذي منشأه العصبية؛ ومحض المراء لتنفيذ الآراء الزائفة، وتحصيل الأغراض الفارغة. أما الذود عن الدين القيم والدعاء إلى الصراط المستقيم، وإلزام الخصم الألد، وإفحام المعاند اللجوج بمقدمات مشهورة وآراء محمودة، حيث قال ليستقر الحق في مركزه، ويضمحل الباطل، ويركد ريحه فمأمور به»[4].

ويجب أن يكون حسب القاعدة التي رسمها القرآن الكريم: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.

---

(1) سورة غافر، الآية 5.
(2) سورة الكهف، الآية 56.
(3) سورة العنكبوت، الآية 46.
(4) تفسير النيسابوري، الموضوع بهامش تفسير ابن جرير الطبري، جـ 2، ص 262، ط 4، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

هذه هي أصول الجدل وآداب المحاجّة في هذا الدستور السماوي. فجدير بكل من يتصدى للجدال، أن يرتسم تلك الخطى التي نادى بها، وحثّ عليها في الذود عن الحق، والدعوة إلى الصراط المستقيم، ويتخذها منهجاً، لا يحيد عنه.

فلا ينبغي للإنسان أن يشتط على أخيه الإنسان، ولا يواجهه بسقاط القول وبذاءة اللسان، بل يجب أن يحلم عما يسمع من الأذى والنبز، فلا يشغب إذا شاغبه الخصم، ولا يرد عليه إن أربى في كلامه، بل يستعمل الهدوء والوقار. ولهذا حذر القرآن الكريم أتباعه المؤمنين من الحوار الحاد، الذي يقود صاحبه إلى أن يتجرأ على الخصم بالسب والخوض في الباطل والتلفظ بسقاط القول، نهى القرآن الكريم عن كل ذلك، ولو كان مع أصنام المشركين، التي لا تنفع ولا تضر، سداً للذرائع، ووقاية من سوء أدب المشركين، الذين لا يتورعون، حيث قال: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[1].

وحط من شأن الذين يتكبرون في جدالهم، ويضجرون من خصومهم، متذرعين بمكانتهم في المجتمع، فالرأي بقيمته لا بقيمة صاحبه؛ إعرف الحق تعرف صاحبه، والحق قديم. ولا ينبغي للمرء أن يفرض رأيه، فإن الحق مشاع، والحقيقة مطلب الجميع.

هذا هو دستور الإسلام وطريقته وحواره، ما دام الأمر في دائرة الدعوة باللسان والجدل بالحجّة.

إن متتبع القرآن الكريم وقارىء سوره، يعرف كيف دعا القرآن الكريم المؤمنين إلى اتباع سلوك الحسنى في حجاجهم ومناقشاتهم، وبين حصاد ذلك، أنه يحول الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم.

---

(1) سورة الأنعام، الآية 108.

أساليب القرآن الكريم في خطابه لمختلف الفئات من الناس

إستخدم القرآن الكريم بيانات خطابية، مباشرة وغير مباشرة، مع الفئات التي يرجى لها الهداية، وهم أغلب الناس. والناس، كما هو معروف، مختلفون فكرياً واجتماعياً وعقلياً وعقائدياً. من أجل ذلك، كان الخطاب متنوعاً حسبما يفهمه ويدركه كل إنسان.

كان الخطاب وعظياً مباشراً، للذين ترجى هدايتهم، أو توجد لديهم نزعة أو قابلية للخير. وكان الخطاب عن طريق الأمر والنهي المباشرين، للذين يتوقع أن يستجيبوا لدعوة الإيمان.

وكان الخطاب عن طريق الترهيب والترغيب والإنذار، للذين في نفوسهم قابلية الخوف، وهم من النوع الذين لا يستجيبون إلا تحت تأثير ما، سواء كان وعداً بخير أو وعيداً بعذاب وعقاب.

وكان الخطاب عن طريق ضرب الأمثال للأقوام الأولين، الذين استجابوا للإيمان، ثم غيروا وبدلوا وانحرفوا أو كفروا وحادُّوا، وهم الذين وسعهم الله بعطائه الوفير، عندما أحسنوا واستقاموا لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ۝٥٣﴾[1].

وكان الخطاب عن طريق تحليل النفسيات، نفسية الإنسان الرابضة داخله، إذ أن من طبيعة الإنسان أن يخفي أكثر مما يظهر، فكان الكشف عن ذلك أمراً ملزماً. وكان الخطاب عن طريق تعرية الواقع النفسي والفكري لأشخاص أو مجتمع ما، حتى تنكشف الحقيقة، ويظهر الحق علناً أمام أعين من آمن وكفر، وهذا الكشف بدوره يساعد على

---

(1) سورة الأنفال، الآية 53.

إزالة الغشاوة عن العيون والعقول والبصائر، لتتفتح حتى تلتزم الصواب وتتبع نهجه.

وكان الخطاب، أحياناً، عن طريق المجادلة العقلية المنطقية، تستخدم فيها الحجّة، حتى تقنع المجادلين والمعاندين والضالين، الذين يتخذون من الجدل ذريعة ومنفذاً لتضليل الناس.

لقد تنوعت الأساليب المستخدمة في المجادلة والمحاجّة، فشملت الأساليب الخبرية والطلبية الواردة على حقيقتها، والمستخدمة مجازاً، ويراد بها معنى آخر، كضروب الكناية والاستعارة لتتناسب مع القضية المطروحة، والبرهان المعروض، وموقف الإنسان منه، فهو عصب الموضوع الأصلي من حجاج القرآن الكريم ومناقشاته، فما جادل وحاور، إلا من أجله.

وقد يعرض المجادل سؤاله، وتأتي الإجابة عنه، هادفة المقصد، بعيدة عن ظاهر السؤال. فقد يكون السائل ساخراً أو مستهزئاً، فلا يقابل بالإجابة الساخرة والعبث والاستهزاء، فالأمر أكبر من ذلك وأسمى، فتعرض الإجابة الحقائق والبراهين القوية في حزم وثبات يذهلان المجادل عن سخريته واستهزائه.

وهكذا، كان الخطاب في كل الأحوال متنوعاً، مسترسلاً مع كل الفئات، شاملاً لكل العقليات والنفوس، مراعياً في ذلك الميول والعواطف، حتى يقنع الجميع، ويحقق المطلب والهدف المنشودين.

وبأسلوب البيان الخطابي النفسي، هذا مع البيانات البرهانية السابقة، تمت محاصرة الإنسان المتجه إلى الشرك، محاصرة تامة، فكرياً ونفسياً. وبهذا الحصار، تنقطع جميع أعذار المشركين، لأن عقيدة التوحيد أكرم للإنسان، وأصلح له من عقيدة الشرك والضلال.

لقد دعا القرآن الكريم الناس إلى الإيمان بالله من نافذة العقل، نافذة

التفكير السليم، لأن الإيمان جزء من نظام هذا الكون المنتظم. والقرآن الكريم عندما دعا الناس إلى الإيمان، إنما دعاهم من نافذة العقل، هذا العقل الذي ربط الله به التفريق بين الخير والشر والنفع والضر وإدراك ما غاب وبعد، وهو لم يخاطب إلا من صح عقله، واعتدل تمييزه، فالعقل حجّة الله على خلقه، والدليل إلى معرفته والسبيل إلى نيل رحمته، والحجّة بين الله وعباده.

الله الذي جعل العقل للدين أصلاً، وللدنيا عماداً، فأوجب التكليف بكماله، وجعل الدنيا مدبرة بأحكامه، وألّف به بين خلقه، مع اختلاف هممهم ومآربهم وتباين أغراضهم ومقاصدهم.

لهذا جعل الله إهمال استعمال العقل سبب عذاب الآخرة: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾[2].

وأخبر سبحانه وتعالى، بمعاقبة من أهمل نفسه، وضيع عقله فقال: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾[3].

فمن لم يتفكر بقلبه، وينظر بعقله، ولم ينتفع بهذا الجوهر الذي وهبه الله له، لم يكن من أهل السعادة التي أرادها الله لعباده. والقرآن الكريم مملوء بآيات النظر العقلي، والتفكر والتفكير، فمن تأملها علم أن أهل هذا الدين هم أهل النظر والتفكر والعقل والتدبر. إن الدين جاء يقدر العقل البشري، ويعلي منزلته. ولذا، لم يطلب منا التسليم بقضايا الدين، لمجرد ورودها في القرآن، بل أقام الدعوة وبرهن وعرض لرأي المخالفين، ورد عليهم بالحجّة القاطعة، والأدلة الدامغة، وخاطب العقل، واستنهض الفكر، وعرض نظام الكون، وطالب العقول أن تنظر وترجع البصر لتصل إلى اليقين.

---

(1) سورة الأنفال، الآية 22.

(2) سورة الملك، الآية 10.

والقرآن الكريم حين دعا إلى التفكر ورحب به، إنما أراد أن يكون ذلك في نطاق العقل وحدود مداركه، فدعا إلى النظر في خلق السموات والأرض، وفي الإنسان نفسه، وهو مملوء بمئات الآيات التي تدعو إلى النظر في مجال الكون الفسيح وآفاقه الرحبة التي لا تحد بحدود، ولا تقف عند نهاية. ﴿قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾﴾[1].

وصولاً للغاية التي يريدها من إيقاظ العقل، واستعمال وظيفته في التأمل والنظر والتفكير، هو هداية الإنسان إلى قوانين الحياة وسنن الكون وحقائق الأشياء، لتكون هذه هي المنارات التي تكشف له عن خالق الكون. وهي الحقيقة الكبرى في هذا الوجود، ولا يهتدي إليها إلا أصحاب العقول السليمة. «والإقناع العقلي هو السبيل التي سلكها القرآن الكريم في استقطاب الناس نحو الدين الحق الذي جاء به.. والإقناع هو الهدف من كل العمليات التي يقوم بها القرآن الكريم في عقول الناس وقلوبهم، والإقناع الذي يؤكد الجديد في العقول وفي القلوب، ويهزم القديم في أنفس الناس، وأنه من هنا اعتمد القرآن الكريم في عملية الإقناع على أسلوب الجدل والحوار، وليس على القسر والإكراه اللذين تجيء بهما القوة أو الإلجاء الذي تأتي به المعجزات»[2]

وقد سلك القرآن الكريم إلى الإقناع العقلي، طرقه الإيجابية المختلفة التي تتخلل آياته، وتبرز في التكرار بعرض القرآن الحادثة أو القصة، وبيان سنة الله فيها في أكثر من جيل أو عصر أو مصر. «وقد تكررت القصة الواحدة أو قانون من قوانينها، كما في قصة موسى وفرعون، فإنها وردت في سور كثيرة. وكما في قصة آدم وإبليس، فإنها وردت

---

(1) سورة البقرة، الآية 219.
(2) سلسلة عالم المعرفة، مفاهيم قرآنية، تأليف محمد أحمد خلف، العدد 79، ص 155، مطابع الرسالة، الكويت.

في مواضع عديدة من القرآن الكريم، وذلك في سورة أو سورتين أو أكثر، كمثال جزئي يذكر لتوضيح ما يهدف إليه القرآن الكريم من العظة والاعتبار، بجانب سنة الله الماضية في بناء الأمم ونظام المجتمعات على هذه الأرض»[1].

«وتكرار ما يستحق التكرار من الأمور المهمة، حتى يجد سبيله إلى النفوس النافرة، والطباع العصية، فتسلس له القيادة، وتلقي إليه السلم»[2]. ومثال ذلك تقرير القرآن الكريم لعقيدة التوحيد، ونبذ عبادة الشرك بواسطة الحديث عنها مراراً وتكراراً: تارة يصرح وأخرى يلوح، وتارة يوجز وأخرى يطنب، وتارة يذكر العقيدة مرسلة وأخرى يذكرها مدللة، وتارة يشفعها بدليل واحد وأخرى يجعله أدلة، وتارة يضرب لها الأمثال وأخرى يسوق فيها القصص، وتارة يقرنها بالوعد وأخرى بالوعيد.

فقد علم الله تعالى، أن النفس البشرية في حاجة إلى هذا التكرار وهذا التنويع، حتى تستعد النفوس، وتنهض بما كلفت به من العمل الضروري، الذي لا مفر منه لإقامة هذا المنهج.

«وهذه الظاهرة القرآنية التي اتبعها القرآن، من أنجح وسائله لتأديب النفوس وتهذيبها وسياسة الجماعات، وتوجيهها، إذا أضفنا لذلك ما تقصد به من المحاورات النابضة، التي أقامتها معالم خالدة عن طريق الباحثين عن الحقيقة لضبطها وأخذ العبرة منها»[3].

وقد اتخذ القرآن الكريم في أساليب الإقناع وسائل تتلاءم مع

(1) أنظر: مجلة الأزهر، المجلد 40، ص 287، جـ 4، أغسطس 1968.
(2) أنظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، جـ 3، ص 9، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
(3) مناهل العرفان، للإمام الزرقاني، جـ 2، ص 262، طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه.

الفطرة، فطرة الله التي فطر الناس عليها، ومع العوامل المختلفة التي تكتنف الناس في مجادلاتهم وتتأثر بها مستوياتهم.

والقرآن الكريم التزم الحق واللين مع الخصم، ولكن بطريقة تشعره أنه لين القوي القادر، واستعمال الشدة معه أحياناً، حيث حرض المؤمنين على القتال، لتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، وحتى يظهر الحق، لقوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾[2].

وهنا لا يكون جدال دفاعاً عن قضية التوحيد، وإنما حرب، لإتاحة الفرصة للتوحيد أن يدعى إليه، وأن يعرف، فإن وصل الإسلام إلى هذا الحد، فلا إكراه في الدين.

فالدعوة، إذاً، عامة، والحوار حاد، والجدال جدال صليل المعارك، ولكن على الرغم من ذلك، فإن هذا الجانب من السمو في أصول الجدل القرآني، فيه عظات وعبر لقوم يعقلون.

وعلى هذا، فيكون الجدال مجرداً من استخدام القوة، وتكون الدعوة بالحوار وبيان ما في الإسلام من سماحة ورعاية للحقوق جميعاً.

بعد الوصول إلى هذا الإقناع، وإلى هذا الحد، نعود إلى السؤال الأول عن ماهية التوحيد، وتعريفه التعريف الأكاديمي، ولن أخوض في ذلك كثيراً، لأنه ليس مجال هذا البحث.

إن أول عقيدة عرفت فوق الأرض، هي الإسلام القائم على التوحيد. وهي تعود إلى رفض كل ما يتخبط فيه من يسمّون علماء

---

(1) سورة الأنبياء، الآية 18.
(2) سورة الإسراء، الآية 81.

الأديان المقارنة، والذين كانت محاولاتهم إثبات أن الأديان من صنع البشر، وأنها تطورت بتطور الفكر البشري على مر الزمن، حتى وصلت إلى ما هي عليه الآن. بل الحق الثابت أن الدين الإسلامي الصحيح، الخالي من التحريف، والوحي الإلّهي، والرسالات كلها هي من عند الله تعالى، كما يدل على ذلك آيات القرآن الكريم، فقد خلق الله تعالى ادم ـ عليه السلام ـ، وأهبطه إلى الأرض، وأمره بعقيدة التوحيد التي جاء بها الإسلام.

ونوح ـ عليه السلام ـ واجه في دعوته إلى الله الذين حاد بهم الشيطان عن الإسلام إلى الجاهلية الوثنية.

والرسل كلهم، بعد ذلك، أرسلوا برسالة الإسلام القائم على التوحيد المطلق.

إن عقيدة التوحيد في أصلها، أقدم العقائد جميعاً، وقد وجدت هكذا كاملة منذ وجدت، لأنها ليست نابعة من أفكار البشر ومعلوماتهم، فهي حق من عند الله منذ البداية.

فآدم ـ عليه السلام ـ عرف حقيقة التوحيد كاملة، وأنها غير مشوبة. فكانت هناك أجيال من البشر عرفت الإسلام ديناً صحيحاً فاتبعته، إلا أنه لما طال الأمد على الأجيال المتعاقبة، إنحرفت عن التوحيد، ربما إلى الوثنية أو إلى التعدد، ثم دانت لأرباب شتى.

وعقيدة التوحيد دعوة للتحرر الشامل الكامل الصحيح، ودعوة إلى إطلاق العقل البشري من عقاله من الوقوف على التقليد، ومن أوهام الوهم والخرافة التي لا تستند إلى دليل.

وكل ما في السموات والأرض، يذعن لله الواحد الأحد، يسبح بحمده، لأن كل شيء في هذا الوجود شاعر بهذه الحقيقة.

أما إذا وقف الإنسان وحده في خضم هذا الكون المترامي، معانداً

أو كافراً، فإنه يكون شاذاً وهو مما كان غير متوقع منه أبداً، فعند ذلك يصبح في موقف المنبوذ من كل ما في الوجود.

وإلى هنا، أعتقد أن الباب قد أغلق عن التعريف بماهية التوحيد، كما يدعو إليه القرآن الكريم. وهنا، أقف وقفة محايدة. فما جادل القرآن الكريم إلا لإرشاد الإنسان وتوجيهه الوجهة التي يجب أن يسير عليها، وأنْ يسلك دربها، حتى ينجو بنفسه من ويلات الآخرة. وقد تم ذلك بالأسلوب البياني والخطابي للقرآن الكريم، بالأدلة والبراهين التي لا يتطرق إليها أدنى شك، حتى إن الإنسان المتجه إلى الشرك حوصر محاصرة كاملة، فكرياً ونفسياً، فانقطعت أمامه جميع الأعذار، وسدت أمامه كل الطرق. ولهذا، استعمل القرآن الجدل ونوّع مفاهيم وأساليب ذلك الجدل، وفي عدة موضوعات تهدف إلى اتباع الإيمان، ودحض الشرك، وإلزام الخصم الحجّة الدامغة، بعد أن رسم القرآن الكريم أصولاً للجدل وآداباً لمحاجّة خصومه، كل ذلك بما يتفق مع الفطرة الإنسانية، فطرة الله التي فطر الناس عليها.

ولا يفوتني أن أجمل أصول الجدل القرآني في النقاط الآتية:

إن المتتبع لمسار الجدل القرآني، يرى أنه لا يكتفي بتحدي الخصم وإلزامه وإفحامه وإبطال دعواه بوسائل عدة، إنما يتجه في كثير من الأحيان إلى إرشاد الخصم إلى الطريق السوي، حتى يسعد في دنياه وآخرته.

ثم الأمر الثاني: الأدب في الجدال والخطاب، والتزام الحق الذي لا يحوم حوله الباطل في كل ما يعرض، والميل إلى استعمال اللين بطريقة تشعر بأنه لين القوي القادر، لا لين الضعيف العاجز.

أما الأمر الثالث والأخير: فهو أن القرآن الكريم جاء رده مقنعاً لكافة الناس، مهما اختلفوا، وتباينت أفهامهم، وتفاوتت مداركهم.

لقد استعمل القرآن في أصول جدله الأسلوب المنطقي السليم، ولم يتقيد بالأقيسة وأنواعها والقضايا وأشكالها. واستعمل الخطاب الذي اشتمل على فنون القول وأنواع البيان وألوان التعبير، وبهذا جاء رده مقنعاً من أقرب الطرق، وخالف في ذلك ما جرى عليه كثير من الناس في أساليبهم ومحاوراتهم وجدالهم.

ولعله من الخير، قبل أن اختتم أصول الجدل القرآني، أن أنبه إلى أن الجدل القرآني مرتبط ارتباطاً وطيداً بمحاجّة الخصوم وإلزامهم الحجّة.

القرآن الكريم، الذي حاور وجادل الناس جميعاً، فإنه ما حاور وما جادل، إلا لإلزامهم الحجّة، ولإلزامهم الدليل على أحقية الله تعالى بالعبادة.

وعليه وجه تعالى أنبياءه جميعاً إلى مجادلة ومحاورة ومحاجّة أقوامهم، بعد أن رسم لهم أصولاً لمجادلة أقوامهم وآداباً يسيرون عليها في محاجتهم. وأثبت القرآن الكريم أن من فوائد إرسال الرسل، إلى جانب هداية الناس، إلزامهم الحجّة والأخذ بأيديهم إلى شاطىء النجاة والخلاص.

* * * * *

الفصل الثاني

مجال الجدل والمحاجّة في القرآن الكريم

المبحث الأول

تعريف الحجّة وأنواعها في القرآن الكريم

«الحجّة الدلالة المبينة للمحاجّة، أي المقصد المستقيم، وهو الذي يقتضي صحة أحد النقيضين، قال تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾، وقال: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾. فجعل ما يحتج به الذين ظلموا مستثنى من الحجّة، وإن لم يكن حجّة مسلمة، وقد يسمى ما يحتجون به حجّة، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾. وتطلق الحجّة ويراد بها الاحتجاج، كما في قوله تعالى: ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾، أي لا احتجاج لظهور البيان.

والمحاجّة أن يطلب كل واحد أن يرد الآخر عن محجته، قال تعالى: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ﴾ - ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ﴾. وقال تعالى: ﴿لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ - وقال: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ - وقال: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ﴾[1].

«وتطلق الحجّة، ويراد بها الاحتجاج والمستند وكل ما تثبت به الدعوى من حيث الغلبة به على الخصم، ومن حيث إفادته البيان يسمى

(1) مفردات الراغب، ص 107، تحقيق سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت.

بينة، وقد تسمى المجادلة بالباطل أيضاً حجّة، قال تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾[1]، والخصومة أيضاً تسمى حجّة، كما قال تعالى: ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾[2]، أي لا خصومة»[3].

أنواع الحجج

ويلاحظ القارىء للقرآن الكريم، المتتبع لأحكامه، المتبصر في أدلته، أن حجج القرآن الكريم تتجه، أحياناً كثيرة، إلى إرشاد الناس والأخذ بأيديهم إلى الحق، وتوجيه أنظارهم إلى حقائق الأشياء، وما في الكون من عِبر. وهي أنواع منها:

ما يذكره الله تعالى من الآيات الكونية المقرونة بالنظر والتدبير، للاستدلال على أصول العقائد، كتوحيده سبحانه في ألوهيته، والإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وهذا النوع كثير في القرآن الكريم. كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾[5].

---

(1) سورة البقرة، الآية 150.

(2) سورة الشورى، الآية 15.

(3) معجم القرآن الكريم، عبد الرؤوف المصري، جـ 1، ص 180. الطبعة الثانية، مطبعة حجازي، القاهرة 1948 م.

(4) سورة البقرة، الآيتان 21 ـ 22.

(5) سورة البقرة، الآيتان 163، 164.

لقد دعا القرآن الكريم الناس، وكما أشرت في عدة آيات في الفصول السابقة، وطالبهم أن ينظروا ويشاهدوا، وأن يفتحوا أبصارهم وأفكارهم ومداركهم، ليشاهدوا جمال الكون الكبير، موجهاً أنظارهم، في الوقت نفسه، إلى وحدة نظام هذا الكون الذي تحكمه وتسيره قدرة خارقة، تسيره على أحسن سير ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۝٤٠﴾[1]. ودلالة وحدة هذا الكون، تدل على وحدة الخالق المدبر. ثم وجه مداركهم إلى وحدة النواميس الطبيعية، التي تحكم هذا الوجود في هذه الأرض، وإلى وحدة الحياة: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾.

وأوضح لهم حقيقة هذه الدنيا، وأعلمهم بزوالها، إلا أنها تعتبر مزرعة للآخرة، وأن وراء هذه الحياة حياة أخروية: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۝٣٥﴾[2].

وقد سلك القرآن الكريم، لإثبات ذلك، عدة مسالك منها:

1 ـ تذكير المخاطبين بالنعم التي أنعمها الله عليهم ـ عن طريق رد الفطرة إلى طبيعتها التي فطرها الله تعالى عليها، وبيان أن جميع النعم التي ينتفع بها الإنسان، ليست أمراً حدثاً أتى به الإنسان، إنما هو فضل تفضل الله تعالى به على العباد، ولا دخل للإنسان فيها، إلا بالعمل فقط. «فكم بذرة وضعها زارعها، وأتقن وضعها في الأرض، وتفنن في زرعها ورواها، ورغم ذلك لم تنبت رغم الجهد الشاق المبذول فيها، وكم بذرة ألقيت عرضاً بدون عناية، بل قد تكون بستاناً، رغم أنها أينعت وآتت أكلها ضعفين، فللإنسان الكسب فقط»[3]: ﴿وَأَن لَّيْسَ

---

(1) سورة يس، الآية 40.

(2) سورة الأنبياء، الآية 35.

(3) أنظر: مشكلة الجبر والاختيار، د. محمود قاسم، مقال بمجلة الجمعية الفلسفية العربية، السنة السابعة، العدد الأول، 1970، ص 126 وما بعدها.

﴿لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٩ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ۝٤٠﴾[1].

وهذا ما قال به الأشاعرة من أهل السنة، في نظريتهم المعروفة بنظرية الكسب، التي أتوا بها عندما تعرضوا لأفعال الإنسان الاختيارية، والفضل كل الفضل لله تعالى في الإنبات والزرع والإثمار.

وعلى الرغم من ذلك، فإن الله تعالى يثبت للإنسان عملاً، فيقول: ﴿لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ۝٣٥﴾[2].

ولكي يستشعر الإنسان المسؤولية الملقاة على عاتقه، فلا يتكل، بل يجتهد ويعمل ويصبر على العمل حتى يجني ثمر عمله، ليكون ذلك دليلاً على نتائج حياة الإنسان نفسها، إذ أن الأعمال الدنيوية، هي بمثابة الزرع الذي يعده الإنسان، ليحصده يوم القيامة، التي جعلها الله تعالى نهاية لحياة الإنسان على الأرض، وفيها يحصد ما قدمت يداه: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝٤٦﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

هذا في مجال قد يكون للإنسان شبه عمل فيه، ناهيك عن مجالات أخرى أكثر سعة وعمقاً، لا يكون للإنسان دخل فيها، مثل إنزال المطر من السماء، وإحياء الأرض بعد موتها، وإخراج الحي من الميت، وإخراج الميت من الحي.

كل هذه النعم لا تدخل للإنسان فيها، وإنما هي تفضل من الله تعالى على عباده. فإنه تعالى حينما يذكّر الإنسان بذلك، إنما يرده إلى فطرته الأولى التي فطره عليها: الإذعان لله وعبادته وحده.

2 ـ ضرب الأمثال فى الاحتجاج: فقد استخدم القرآن الكريم في

---

(1) سورة النجم، الآيتان 39، 40.
(2) سورة يس، الآية 35.

الدعوة والإقناع، طريقة التمثيل بالأمر المحسوس تقريباً للمعاني، وتدعيماً للقضايا التي يعرضها مساعدة للطبيعة البشرية التي يصعب عليها، في كثير من الحالات، أن تفهم الأمور، وخاصة إذا سارت وراء تيار ما، من ذلك قوله تعالى في ذم عبادة الأوثان والأصنام وتهجين ما عبد سواه. «فإنه تعالى سجل عليهم غاية التسجيل ونعى إليهم أفعالهم ووبخهم وسفّه أحلامهم بما اقترفوا في حق أنفسهم وحق الله»: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾[1].

فانظر ماذا حازته الآية من الإبانة عن نقص عقولهم، إلى غير ذلك من الآيات، الدالة على تسفيه عقولهم وإظهار جهلهم»[2].

وقوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾[3].

وهذا مثل آخر، ضربه الله تعالى للمشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله، يرجونها في الرزق والنصر في الشدائد، فهم في ذلك كبيت العنكبوت، فمثل من يعتمد على غير الله تعالى، كمن يتمسك ببيت العنكبوت الواهن الضعيف، الذي لا يغني عنه شيئاً.

ومن هذا الضرب ما نراه في الآيات التي أظهرت أن هذه المعبودات الباطلة، لا تملك شيئاً، بل هي نفسها مملوكة لغيرها، وأنها تعجز عن الإبانة والإفصاح، فضلاً على القدرة عن هداية معبوديها، وتقارن بينها

---

(1) سورة الحج، الآية 73.
(2) أنظر: الأمثال في القرآن، لابن القيم الجوزية، ص 247، 248، طبعة دار المعارف، 1981.
(3) سورة العنكبوت، الآية 41.

وبين من هو مطلق اليد، قادر على إنارة الطريق وإيصال الركب إلى شاطىء النجاة.

قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾[1].

ويناقش القرآن الكريم قضية الوحدانية وما شابهها لدى المشركين، الذين أشركوا مع الله غيره في العبادة، وتصوروا أن لآلهتهم بعض التصرف في الكون، مع أنهم ملك الله سبحانه، والعبد لا يشارك سيده في ملكه ولا في تصرفه. فيقول: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾[2].

ثم يناقش القرآن الكريم القضية نفسها، من زاوية أخرى، فيقارن عن طريق التمثيل كذلك، ما يكون عليه الأمر من اضطراب وقلق إذا توزعت الملكية بين شركاء وبين ما يكون عليه الحال من استتباب واستقرار، عندما تكون الملكية لواحد صمد، يتصرف حسب إرادته، من دون منازع.

وفي ذلك يقول: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾[3].

---

(1) سورة النحل، الآيتان 75، 76.
(2) سورة الروم، الآية 28.
(3) سورة الزمر، الآية 29.

ويتحدث القرآن الكريم عن الصراع بين الحق والباطل، وما يكون عليه الباطل من زيف، يدعو إلى الظن بأنه الغالب، لظهوره، وصفاء الحق، عند النظرة العجلى، في أول أدوار الصراع، فيقول في أسلوبه الذي لا يحتاج إلى توضيح: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾[1].

طريقة القرآن الكريم في إلزام الخصم

إلزام الخصم بالحجّة

يلاحظ أن القرآن الكريم يلزم الخصوم في الاحتجاج ويفحمهم من أقرب الطرق وأقواها إلزاماً. من ذلك، ما حكاه عن خليله إبراهيم - عليه السلام - في مجادلته مدّعي الألوهية، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾[2].

إن حِجاج القرآن الكريم، لا يتجه إلى مجرد الإفحام والإلزام اللذين تأتي بهما الحجّة، بل يتجه في الكثير الغالب، إلى إرشاد القارئين والمذكرين والأخذ بأيديهم إلى الحق، وتوجيه النظر إلى الحقائق، وما في الكون من دلائل على القدرة، كما في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ

(1) سورة الرعد، الآية 17.
(2) سورة البقرة، الآية 258.

فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ
وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً
مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۝٩ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا
بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ ۝١١﴾ (1).

إن المتتبع لهذه الآيات البينات، يرى فيها، ليس مجرد إفحام الوثنيين ومنكري التوحيد، بل يرى توجيهاً نحو الكون وما فيه من دلائل القدرة وعجائب الصنع، وما فيه من سماء زُينت ببروجها ونجومها، والأرض وما فيها من رواسي تمسكها أن تميد، وما فيها من نبات يُحصد في أوانه، وجنات تونع وتثمر في وقتها.

وكما في قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الْإِنسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ
الْبَيَانَ ۝٤ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ
الْمِيزَانَ ۝٧ . . .﴾. إلى قوله تعالى: ﴿. . رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ۝١٧ فَبِأَيِّ
آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٨﴾ (2).

وفي هذا نرى أن الاستدلال القرآني متجه إلى الإرشاد نحو ما في الكون، وما أنعم الله به على الإنسان من علم، وما علمه من الشمس والقمر، وما علمه من معاملات كريمة وتعاون إنساني مبني على الفضيلة، وعلمه كيف خلق الإنسان.. وهكذا من استدلال حكيم وإرشاد وتوجيه وتعلم.

ولئن اتجه القرآن الكريم إلى الإلزام والإفحام، فإنه لم يلبث أن يأخذ بيد المعاند إلى الحقيقة، يبينها واضحة جلية لا ريب فيها، كما في قوله تعالى، رداً على المشركين حين طلبوا أن يكون الرسول ملكاً: ﴿وَقَالُوا

(1) سورة ق، الآيات 6 ـ 11.
(2) سورة الرحمن، الآيات 1 ـ 18.

لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾[1].

ومن الحجاج المفحم قوله تعالى، في الرد على اليهود ووصفهم بالكذب: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾﴾[2].

ومن أنواع الجدل ما يعبر عنه بأخذ الخصم بأقرب طريق للإفحام والإلزام، وهي كثيرة، منها:

أ ـ **التحدي**: تحدى الله كفار قريش، بأن يأتوا بعشر سور من مثل سور القرآن الكريم مفتريات: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾﴾[3].

ب ـ تحدي خليل الرحمن الملك الجبار عندما قال له، إن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب.

جـ ـ ومنها أخذ الخصم بموجب كلامه، وإثبات أنه عليه وليس له، من ذلك ما ورد في قوله تعالى، في شأن المنافقين: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾[4].

«وحقيقة رد الخصم من فحوى كلامه، وهو أن يخاطب المتكلم مخاطباً بكلام، فيعمد المخاطب إلى كلمة مفردة من كلام المتكلم، فيبني

---

(1) سورة الأنعام، الآيتان 8، 9.
(2) سورة آل عمران، الآية 183.
(3) سورة هود، الآية 13.
(4) سورة المنافقون، الآية 8.

عليها من كلامه ما يوجب عكس معنى كلام المتكلم. لأن حقيقة القول الموجب رد الخصم من فحوى كلامه»[1].

حيث إن الله تعالى أعان رسوله والمؤمنين، بأن أخرجوا المنافقين من المدينة، وأصبحوا أعزاء، والمنافقون أذلاء، كما أشارت الآية الكريمة: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٨﴾[2].

د ـ ومنها مجاراة الخصم ليعتبر: أي مجادلة الخصم في ما يقول، ثم التعقيب عليه بما يقلب عليه نتائج قوله. من ذلك قوله تعالى، حاكياً عن الرسل مع أقوامهم: ﴿۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ۝١٠ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ۝١١﴾[3].

«من هذا النص السامي، نرى أن الرسل ـ عليهم السلام ـ، سلموا بالمقدمة التي بنى عليها الأقوام رفضهم، ولكنهم نقضوا النتيجة بقولهم: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ﴾[4]. فكأنهم قالوا لهم إن ما قلتموه من أننا بشر حق، ولكن ما تريدون أن تثبتوا عليه من إثبات أننا لسنا أنبياء باطل، لأن الله يمن على من يشاء من عباده، وقد من علينا، وقدمنا لكم السلطان والدليل، ولا سلطان لنا، إلا ما يمدنا به الله تعالى»[5].

---

(1) بديع القرآن، لابن أبي الأصبع المصري، تحقيق د. حنفي محمد شرف، ص 314، ط 2، دار نهضة مصر.
(2) سورة المنافقون، الآية 8.
(3) سورة إبراهيم، الآيتان 10، 11.
(4) سورة إبراهيم، الآية 11.
(5) أنظر: تاريخ الجدل، للإمام ابن زهرة، ص 63، دار الفكر.

هـ ـ ومنها التسليم: «وهو أن يفرض المحال، إما منفياً أو مشروطاً بحرف الامتناع يكون المذكور ممتنع الوقوع لامتناع وقوع شرطه، ثم يسلم وقوع ذلك تسليماً جدلياً، على عدم فائدة ذلك على تقدير وقوعه قوله: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾[1]. والمعنى ليس مع الله إله، ولو سلم أن معه إلّهاً، مع ذلك التسليم، لذهب كل إلّه من الاثنين بما خلق، وعلا بعضهم على بعض، فلا يتم في العالم ولا ينفذ حكم ولا تنتظم أحواله، والواقع خلاف ذلك، ففرض إلّهين فصاعداً محال، لما يلزم عليه المحال»[2].

و ـ وقياس الخلف: وفيه يتجه القرآن إلى إثبات المطلوب بإثبات نقيضه، وذلك في مثل الاستدلال على إثبات الوحدانية لله تعالى، من ذلك قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾[4]، وكإثبات أن القرآن من عند الله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾[5].

في كل ما تقدم من الآيات، قد أثبت الله تعالى المطلوب بإبطال نقيضه.

---

(1) سورة المؤمنون، الآية 91.
(2) الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، جـ 2، ص 56، ط 1، مطبعة الشهيد الحسين.
(3) سورة الأنبياء، الآية 22.
(4) سورة الإسراء، الآية 42.
(5) سورة النساء، الآية 82.

ز ـ الانتقال: وهو أن ينتقل المُستدل من حجّة إلى أخرى، مع لزوم الحجّة الأولى وإفحامها للخصم، إلا أنه لم يتبين وجه الرأي فيها، ولم يتفهم دلالتها، أو أنه فهم ذلك، ولكنه أراد أن يصرف نفسه عنها بمغالطة تخرجه مما هو متورط فيه، لأنه يعلم أنه ليس على حق، إلا أنه يريد أن يتخلص، فينتقل المستدل بها إلى حجّة أخرى، تلزمه إلزاماً، وتسد عليه باب المغالطة التي أتى بها. ومثال ذلك في قوله تعالى، في حكاية مناظرة الخليل ـ عليه السلام ـ لملك زمانه، النمرود: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾[1].

وكان النمرود، في مبدأ دعوة إبراهيم، مطمئناً إلى معارضة القوم، واستهزائهم بدعوته، وتهكمهم عليه، وانصياعهم لأوامر الملك المتجبر، وعكوفهم على طاعته إلى درجة عبادته.

والحجّة أنه لما لم يفهم النمرود الدلالة في الدليل، الذي ساقه له إبراهيم ـ عليه السلام ـ أو فهمه وغالط وكابر، فإن الخليل ـ عليه السلام ـ استمر في مناظرته في هذه الحجّة، مع لزومها وإفحامها، بل أراد أن يختصر له الطريق، في إلزامه على وجه قاطع، لا يستطيع معه اللف والدوران، فانتقل إلى حجّة أخرى، تتعلق بالأفلاك السماوية؛ وكان النمرود من أهل الفلك، كما ورد في بعض كتب التفسير، ليقنعه من طريق علمه، وعلى وجه لا يقبل الشك والمحاورة[2]، فقال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾. ولقد أتى هذا الانتقال بنتيجة

---

(1) سورة البقرة، الآية 258.

(2) أنظر: السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، جـ 2، ص 56، 57.

باهرة، إذ انقطع النمرود عن المخاصمة والمجادلة، وذهل، وبهت، ولم يستطع أن يراوغ فيها، ولو ظاهراً، كما راوغ في سابقتها؛ إذ ألجمته الحجّة.

ح ـ التمثيل: «وهو أن يقيس المستدل، الأمر الذي يدعيه على أمر معروف، ويبين الجهة الجامعة بينهما»(1)، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ۝٧﴾(2).

لقد قاس تعالى أمر إعادة الإنسان خلقاً سوياً في الحياة الأخروية، على ما كان عليه الإنشاء الأول عن طريق التمثيل، حتى لا يكون مستغرباً من بعض الذين يقولون ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ـ فأضحى لا مجال للشك في ذلك، وذلك بأسلوب القرآن الكريم المستفيض.

وكما جاء في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ۝٨٠﴾(3).

---

(1) تاريخ الجدل، للإمام أبي زهرة، ص 68، طبعة دار الفكر العربي.
(2) سورة الحج، الآيات 5 ـ 7.
(3) سورة يس، الآيات 78 ـ 80.

هذه آيات أخرى ساقها القرآن الكريم، كالمثل الذي قاس على أساسه خلق الإنسان، وإحيائه بعد مماته.

ومن يتتبع القرآن الكريم، يجد آيات لا حصر لها، شبيهة بمثل هذه الآيات، بلغت قمتها في التأثير والتأثر، مما جعل الخصم العنيد، ينساق أمام حجاج القرآن الكريم، وينصاع لها.

ط ـ المناقضة: «وهو تعليق أمر على مستحيل، إشارة إلى استحالة وقوعه»[1]، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾[2].

ووصولاً إلى الإقناع، إستخدم القرآن الكريم في حجاجه الأسلوب التلقيني، وسوق القضايا مسلمة، لا تحتاج إلى دليل، ولا تحتمل مناقشة. وهو أسلوب له أثره عندما تزاح الأغشية التي صنعها أصحاب المصالح، ويخلى بين الناس وبين الحق السافر الواضح، ومن أبى واستكبر، بعد ذلك، فهو من الخاسرين، بعد أن وضحت الحجّة، وأزيلت غياهب الباطل.

القصص القرآني وأثره في الدعوة إلى الإيمان

إهتم القرآن الكريم كثيراً بعرض قصص الأنبياء، وبيان دعوتهم لأممهم إلى عبادة الله الواحد الأحد. ولقد لاقى الأنبياء ما لاقوه من أقوامهم، وساروا معهم حتى نهاية المطاف، فدخل من دخل في دين الله، وأعرض من أعرض، فحق عليهم الوبال في الدنيا، والعقاب في الآخرة، فأخذهم بذنبهم في الدنيا، وخلودهم في النار يوم القيامة:

---

(1) من علوم القرآن، د. فؤاد علي رضا، ط 3، ص 226، دار إقرأ، بيروت، لبنان، 1404 هـ/ 1984 م.

(2) سورة الأعراف، الآية 40.

﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [1].

ولم يعرض القرآن الكريم تلك القصص لمجرد السرد والتسلية، بل لبيان ما يجب أن يكون عليه الحال من طاعة الله تعالى، إمتثالاً لقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [2].

وقصص القرآن الكريم، هي أخبار عن أحوال الأمم الماضية، والنبوات السابقة، والحوادث الواقعة. وقد اشتمل القرآن الكريم على كثير من وقائع الماضي، وتاريخ الأمم، وذكر البلاد والديار، وتتبع آثار كل قوم، وحكى عنهم صورة ناطقة لما كانوا عليه.

والقصص القرآني ثلاثة أنواع:

أ ـ النوع الأول: قصص الأنبياء، وقد تضمن دعواتهم إلى أقوامهم، والمعجزات التي أيدهم الله بها، وموقف المعاندين منهم، ومراحل الدعوة وتطورها، وعاقبة المؤمنين والمكذبين كقصص نوح، وإبراهيم، وموسى، وهارون، وعيسى، ومحمد وغيرهم من أنبياء الله ـ عليهم السلام ـ.

ب ـ النوع الثاني: قصص قرآني يتعلق بحوادث غابرة وأشخاص لم تثبت نبوتهم، كقصة الذين خرجوا من ديارهم، وهم ألوف، حذر الموت، وطالوت وجالوت، وابنَي آدم، وأهل الكهف، وذي القرنين، وقارون وأصحاب السبت، ومريم، وأصحاب الفيل، وأصحاب الأخدود وغيرهم.

جـ ـ النوع الثالث: قصص متعلقة بالحوادث التي وقعت في عهد الإسلام، زمن الرسول محمد ﷺ، كغزوة بدر الكبرى، وحنين، والأحزاب، وهجرته ﷺ، وقصة الإسراء والمعراج ونحو ذلك.

---

(1) سورة الزخرف، الآية 76.

(2) سورة الذاريات، الآية 56.

ولقد تكررت قصص الأنبياء وجدالهم لأقوامهم بصور مختلفة، وفي سور متعددة. والقرآن الكريم كثيراً ما يستدل بقصص الأنبياء السابقين مع أقوامهم، وهو يجادل قوم محمد ﷺ، أو الذين ينكرون دعوته من أهل الكتاب، الذين كفروا والمشركين.

وفي سبيل الإقناع، يعتمد القرآن الكريم على وسائل، منها:

1 ـ المشاهدة: وهي تتعلق بالآيات الكونية التي يلمسها الإنسان ويحسها، في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾[1].

إن بيان نعم الله على البشر في أضخم المشاهد الكونية البارزة، لهي من أقوى المؤثرات، ومن أقوى معجزات القرآن الكريم، الذي يربط كل مشاهد الكون الفسيح، وكل خلجات النفس إلى عقيدة التوحيد.

2 ـ القصص الواقعي: يعتمد القرآن الكريم على القصص الواقعي، فيما جرت به الأحداث في دنيانا هذه، وله آثار باقية في مواقعها، وقد تحدثت بها الكتب المنزلة. ولعل أهم ما يتعلق به القصص، معجزات الأنبياء والرسل، على غرابتها، وتنوعها، ونعددها، وخطورة شأنها، وما كان لها من أثر في توجيه الناس إلى الإيمان، وما ترتب على مناهضتها من تدمير لدنياهم، وإبادة لشعوبهم، وجعلهم عبرة لمن بعدهم، فوق ما أعده الله من جزاء لمن تحداهم أو تخاذل عنهم. ورغم اختراقها مجريات التاريخ السحيق، لم تطغَ عليها الأزمان والأحداث، بل لها حتى اليوم ذكريات تتداول على الألسنة.

---

(1) سورة إبراهيم، الآيات 32 ـ 34.

والقصص القرآني سيق لأغراض دينية، كإثبات الوحي والرسالة، وتوحيد الأديان بأن أصلها المشترك واحد، وكالإنذار والتبشير ومظاهر القدرة الإلٓهية، وعواقب الخير والشر، والعجلة والتريث، والصبر والجزع، والشكر والبطر، وكثير غيرها. من تلك الأغراض الدينية والمرامي الخلقية، قد تناولته القصص، وكانت أداة له وسبيلاً إليه.

وبعجالة، إذا حاولت أن أستعرض، هنا، أهم أغراض القصة القرآنية، لكان أبرزها وأوضحها:

أ ـ إثبات الوحي والرسالة، وبيان أن الدين كله من عند الله، من عهد نوح ـ عليه السلام ـ إلى عهد رسولنا محمد ﷺ. والمؤمنون كلهم أمة واحدة، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾[1].

هذا هو الغرض الأصيل من أغراض القصص القرآني، وغيره من الأغراض الأخرى يأتي عرضاً في ثناياه.

ب ـ بيان أن وسائل الأنبياء في الدعوة واحدة، وأن استقبال أقوامهم متشابه، بداية بأول رسول إلى آخرهم محمد ﷺ.

---

(1) سورة الأنبياء، الآية 92.

المبحث الثاني

الاحتجاج القرآني في مقام النبوة وقصص الأنبياء

أولاً ـ رسالة النبي محمد ﷺ:

لقد اقتضت الحكمة أن يرسل الله تعالى إلى البشرية رسولاً خاتماً هادياً للناس جميعاً. فأرسل محمداً ﷺ برسالة هي خاتمة الرسالات السماوية، والجامعة لجميع شرائع الله للناس. وقد تكفل سبحانه وتعالى بحفظ هذه الرسالة وتأييدها، وأنزل لها كتاباً دستوراً، وشهد لذلك بأن رسالة محمد ﷺ رسالة عامة شاملة للناس أجمعين، فقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾[1].

ولما كانت رسالته ﷺ عامة شاملة، فقد تكفل الله تعالى بحفظها من التحريف والتبديل، بحفظ كتاب الله، القرآن الكريم، وحفظ سنة رسوله الخاتم للرسل، لقوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾[2].

فلقد عمّ الدنيا، قبل بعثة محمد ﷺ، حيرة وبؤس وظلام، حتى أذن

(1) سورة سبأ، الآية 28.
(2) سورة الأحزاب، الآية 40.

الله تعالى بحسم هذه الآثار، ومسح هذه الشقاوة، فساق هدايته الكبرى إلى البشرية جمعاء.

والله سبحانه وتعالى، عندما بعث محمداً ﷺ للهداية البشرية، ضمن رسالته الأصول، التي تتيح للجميع منافذ المعرفة بما كان ويكون. والقرآن الكريم الذي أنزله عليه، هو كتاب رب العالمين هداية للناس. وتمتاز بعثته ورسالته بأنها الدائمة والخاتمة لتتابع البشرية خطواتها في ظل تلك الرسالة. وكانت خطوط هذه الرسالة واضحة المعالم، لا لبس، ولا غموض فيها، بحيث لا تحتاج البشرية إلى رسالة جديدة، كما هو الحال في الرسالات السابقة المتعاقبة، التي تتابعت خطواتها عبر الأزمان. وتتجلى عظمة الرسول ﷺ حينما يقرن القرآن الكريم اسم الله ـ عزّ وجلّ ـ برسوله ـ ﷺ ـ، في كل ما يتصل بالإيمان والدعوة إلى الله؛ فلا يكاد يذكر الرسول، إلا ويذكر معه رب العالمين، وبذلك يتحقق معنى الرسالة الأسمى، التي تعني أن الله تعالى بعث رسوله ليبلغ الناس تعليماته، وأن الرسول ﷺ مرتبط دائماً بالله تعالى في تبليغ الرسالة والدعوة إلى الإيمان. ورسالته تحكي الواقع المعيش في حقيقته وطبيعته، وما حل به من آلام في سبيل تبليغ هذه الرسالة، وإقناع الآخرين بها، وصراعه ضد المشرِكين، والمنافقين والكافرين من أهل الكتاب، ثم ما تعهد به القرآن الكريم من تربية وتوجيه ديني وأخلاقي وفكري، وتهيأت شخصية النبي ﷺ لتحمل أعباء الرسالة الخاتمة التي كلّف بحملها.

فسيرة الرسول ﷺ متعددة الجوانب، متكاملة الأبعاد، تحكي معركة، الإيمان، وتلخص تلك المعركة منذ كانت الدعوات السماوية والرسالات، تنادي بالإيمان بالله وحده، لا شريك له، ولا تزال تلخص المعركة إلى هذا اليوم.

«وشخصية الرسول ﷺ الذي أنزل عليه القرآن، هي الشخصية

الوحيدة التي ليست محل شك وريب، من الوجهة التاريخية، وعند مختلف الملل والنحل والأقوام، من بين شخصيات الأنبياء»[1]. فلقد تواترت الأخبار، في مختلف عصور التاريخ السابقة، بأنه سيبعث في الأميين رسول، أكد ذلك القرآن الكريم، وحكت ذلك التوراة والإنجيل من قبل.

وعلى الرغم من الصعوبات والعراقيل التي واجهت رسالة النبي ﷺ، إلا أنه خرج منتصراً، بتأييد من الله تعالى، من كل الصراعات التي واجهته، محققاً هدف الرسالة التي جاء بها، مبطلاً آراء المعاندين والمعارضين بالبرهان والدليل والحجّة.

نزل القرآن الكريم يتحدى المشركين وغيرهم، ويصف الرسول بأنه رسول ﷺ حامل لرسالة، ومبلغ صادق عن رب العالمين: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾[2].

وهذه الآية تقرب الرسول ﷺ من المخاطَبين أنفسهم، وتقول إنه من أنفسكم، وتجمع بينه وبينهم. قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾[3].

يخبر تعالى أن هذا الرسول ﷺ بشر عادي من أنفسهم ومن الأميين، جاء يعلمهم كتاب الله، الذي أنزله الله عليه، وبعث هذا الرسول ﷺ في الأميين منّة كبرى، تستحق الشكر.

---

(1) القرآن المجيد، محمد عزة دروزة، ص 6، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، لبنان.

(2) سورة التوبة، الآية 128.

(3) سورة الجمعة، الآية 2.

قضية اختصاص محمد ﷺ بالرسالة

وهي في حاجة إلى أدلة مقنعة شاملة، لأن اختصاص محمد ﷺ بها، دون العرب، جعل للحاقدين أثراً قوياً في محاولات عدة لتزييف الحقائق، والثبات على الباطل، إذ أن أعيان قريش ووجهاءها، لم يكونوا يطيقون، مبدئياً، أن يروا محمداً، اليتيم الفقير، يخصه الله برسالته دونهم؛ فالتصميم على الإنكار ناتج من الاختصاص، لذلك لجأوا إليه.

وكان وجهتهم، التي تلتمس كل دليل لتموهه، وكل برهان لتزيفه، حتى بلغ بهم الأمر أن قال قائل منهم، «حين دعاهم الرسول ﷺ إلى الحق وأراهم البينات: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣٢﴾[1]، ألا قالوا اللّهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه»[2]. كان هذا الواجب أن يقال، لو خلصت النيات وصدقت الضمائر.

وقد سلك القرآن الكريم طريق الإقناع البصير في دعوتهم إلى الإيمان، حين أمر رسوله أن يقول: ﴿قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٩﴾[3]، وأن يقول: ﴿قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝١٦﴾[4].

عجباً لهؤلاء القوم أن يقفوا ضد الحق الذي جاءهم به رسولهم، الذي يعرفونه تمام المعرفة! فقد عاش بين ظهرانيهم حياته قبل البعثة. ثم

---

(1) سورة الأنفال، الآية 32.
(2) البيان والتبيين، للجاحظ، المجلد الثاني، جـ 4، ص 134، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.
(3) سورة الأحقاف، الآية 9.
(4) سورة يونس، الآية 16.

ضرب المثل بالسابقين من الأنبياء، فأخذ يسجل أحداثهم، ويشرح مواقفهم، بما يدل على صعوبة الجهاد ومشقة النضال.

ومن هنا، كانت قصص الأنبياء أبلغ دليل على صحة الرسالة الخاتمة، وكانت الإفاضة في تبسيطها من أظهر الأدلة على تأييد الدعوة الإسلامية.

وبالرجوع إلى القرآن الكريم، وقراءة قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩﴾[1].

نجد هذا القول يتفق مع ما واجهته دعوة الرسول ﷺ في مكة والمدينة معاً، وكأن نوحاً ـ عليه السلام ـ ينطق على لسان محمد ﷺ فيما قال.

أما اعتماد دعوة الرسول محمد ﷺ على الدليل المقنع، فشأنها في ذلك شأن كل دعوة سماوية نزلت من عند الله تعالى، إذ تعتمد في براهينها القوية على الشاهد المألوف في ملكوت السموات والأرض، مما لا يجرؤ عاقل على إنكاره، إلا إذا سلك الطريق المعوج: الجحود الحاقد والتحدي المغرض. وقد كانت براهين دعوة نوح ـ عليه السلام ـ هي نفسها براهين دعوة رسولنا محمد ﷺ التي ساق القرآن الكريم منها قوله: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ۝١٢ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ۝١٤ أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۝١٥ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا

(1) سورة نوح، الآيات 5 ـ 9.

﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾
وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾[1].

وفي فقرات البحث، يلاحظ القارى ما تطرقت إليه حول مشاهد الكون، وما يعج به من غرائب وعجائب، وهو واقع محسوس.

أما قول نوح ـ عليه السلام ـ في ما حكاه القرآن: ﴿رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾﴾[2].

فهو نفسه مفهوم قول الرسول محمد ﷺ، حين شكا تجبر العصاة من قومه من المشركين، ومؤامراتهم المتربصة بالرسالة، التي أراد الله لها البقاء والخلود، كل متربص، وهيامهم المشغوف باللات والعزى ومناة وهبل، كما هام سابقوهم بسواع ويغوث ويعوق ونسر. وقد كانت العاقبة الغرق. غرق قوم نوح ـ عليه السلام ـ وهي سنة الله تعالى في معاقبة كل جبار عنيد.

هذا نموذج من تأييد قضية الرسالة، بين نماذج مختلفة، سجلها القرآن الحكيم في إقناع بيّن، لترسم لنا أصول طريق الحِجاج الملزم بالمنطق المؤيد بالتاريخ المشرق الواضح.

إن رسالة محمد ﷺ كإنسان وكنبي، يحمل مهام رسالة من عند الله تعالى، تزيد وضوحاً في الصراع الذي صوره القرآن الكريم، بين محمد ﷺ، والكافرين والمنافقين والمشركين. وأهم جانب تمسكوا به، أنهم

---

(1) سورة نوح، الآيات 10 ـ 20.
(2) سورة نوح، الآيات 21 ـ 24.

تناولوا شخصية النبي ﷺ، إما بالكذب أو بالتصدي لمجادلته، وتعجيزه، كتمهيد لإنكار رسالته.

الرسول ﷺ والمشركون

وأول جولة كانت مع المشركين، الذين دفعهم جهلهم وغباؤهم أن يسألوا الله عزّ وجل، لماذا لم ينزل القرآن الكريم على رجل عظيم منهم. والقرآن يأبى إلا أن يرد على سذاجتهم هذه، ويصور غباءهم، ويعرف برسوله الذي اختاره من بينهم، وهو معروف لديهم تمام المعرفة، فيقول: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ۝٢٩ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۝٣٠ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝٣١ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾(1).

لقد كان أهل مكة والطائف شديدي العداوة للرسالة التي جاءهم بها الرسول ﷺ، واشتهروا بالجدل العقيم، الذي يبعد كثيراً عن منطق الفطرة، بل كان يستند إلى تعصب ديني تقليدي، موروث عن الآباء والأجداد.

إن الصورة التي يجلّيها القرآن الكريم عنهم، هي عن تحدياتهم، والفكرة التي تراود نفوسهم عن النبوة، وإغراقهم في الجدل الذي لا يخرج بنتيجة، ومحاولة التعجيز. تناول القرآن الكريم باستفاضة تلك الطبيعة وأبعادها، ورد عليهم رداً مقنعاً حول كل ما تقوّلوه.

لقد تناول القرآن الكريم مطالبهم، وهي اقتراحات متناقضة، لا تمت إلى الواقع بصلة، بل تكشف عن تعنتهم وجهلهم، وردّ عليها بأبلغ

---

(1) سورة الزخرف، الآيات 29 ـ 32.

حجة: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ
وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ
وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ
تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا
إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ
لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ
خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾﴾[1].

كان هذا تصور القرآن الكريم للعناد الذي واجه به المشركون.

«لماذا والقوم كانوا يعرفون رسولهم تمام المعرفة، بالخبرة الطويلة التي عاشها بينهم، ما يدلهم على صدقه وأمانته، وهم كانوا يلقبونه بالصادق الأمين، ويودعون لديه أماناتهم، حتى وهم على أشد الخلاف. وقد هاجر وترك ابن عمه علياً ـ كرم الله وجهه ـ وأمره أن يرد إلى قريش ودائعهم، التي تركوها عنده، وهم معه على الخلاف الذي يدبرون معه قتله. كما كان صدقه عندهم لا يقل درجة عن أمانته، وما كان الخلاف بينهم وبينه، إلا أنه دعاهم دعوة جماعية إلى عبادة الله وحده، ونبذ عبادة الشرك والسؤال هنا: إذا كان محمد صادقاً، فلماذا كذبه قومه؟

إن تكذيب قومه له لم يكن مبنياً على شكهم في صدقه، وإنما كذبوه لأنه جاءهم بدعوة جديدة غريبة عليهم، تخالف المعتقدات التي ورثوها عن آبائهم وأجدادهم. كذبوه لأنهم رأوا في دعوته خطراً على نفوذهم ومكانتهم وتجارتهم. وبعضهم عارضه لأسباب قبلية وعصبية. وتكذيب الرسل موقف عام لأقوامهم، فما من نبيّ بُعث، إلاّ قوبل بالتكذيب

---

(1) سورة الإسراء، الآيات 90 ـ 96.

من قومه، بادىء الأمر، لأنه يحمل دعوة تبدو، للوهلة الأولى، غريبة ومستنكرة ومفاجئة لقوم غرقوا في الانحراف والفساد»[1].

ويستمر الجدل، ويبلغ اللجاج ذروته من جانب المشركين، الذين أخذوا يقترحون على النبي ﷺ أشياء لم تكن مما يدخل في عمله كبشر رسول، جاء يحمل رسالة سماوية، لا يقوم بعمل الحواة والسحرة. وجادلهم القرآن بأصول جدله في هذه المطالب التافهة، لا ليبين سخفها، ولكن ليؤكد الحقيقة المهمة، وهي أن الرسول ﷺ بشر رسول، وليس ملكاً ولا حاوياً، ولا ساحراً.

ولقد أشار القرآن الكريم، قبل ذلك، إلى الحجّة القائمة عليهم، حيث قال: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾[2]. ورد عليهم كيف أنهم أنكروا أن يكون من البشر رسول، وزعمهم أنه لا بد أن يكون ملكاً: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾[3].

وساق القرآن على لسانهم: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾﴾[4].

---

(1) أنظر: تاريخ القرآن، د. محمد حسن علي الصغير، ط 1، ص 32، 33، الدار العالمية للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان (1403 هـ/ 1983 م).

(2) سورة الإسراء، الآية 88.

(3) سورة الأنعام، الآيتان 8، 9.

(4) سورة الفرقان، الآيات 7 ـ 9.

لقد أوضح القرآن الكريم، ومنذ أول وهلة، أن هذا الرسول جاء يحمل رسالة، وهو من البشر، وليس بساحر، أو أنه يمتاز ببعض الخوارق، أو ما إليها من العجائب، فليس له جنات من نخيل وأعناب، يفجر حولها الأنهار، وذلك نهاية المطاف بهم إلى التعجيز، إذ إنهم، في صحرائهم، في حاجة إلى الماء وتلك الجنات، وكل معجزاتهم تنحصر في تلك المطالب.

ومن غير شك، أن مثل هذه المطالب دلت على قصر النظر في ربط المصالح المادية، التي تطمح نفوسهم للوصول إليها.

مما تقدم، يلاحظ أن المشركين ينجرون وراء مطالب خيالية، لا يقصدون منها، إلا تعجيز الرسول. ولقد رد القرآن الكريم على تلك المطالب الخيالية بأبلغ حجّة، وساق لهم أيضاً أن هذا القرآن، هو الحجّة الفاصلة بينهم وبين الرسول ﷺ، وما عليهم بعد إلزامهم الحجّة، إلا أن يؤمنوا بهذا القرآن وبهذا الرسول الذي جاءهم به. وإن كان لديهم أي تقوّل على هذا القرآن، فليأتوا بمثله، وإلا فإنهم محجوجون، وعليهم أن يسلموا أو يذعنوا لما يدعوهم إليه الرسول ﷺ على لسان القرآن الكريم. ولم يستخدم الرسول ﷺ مع المشركين سوى القرآن، يتلوه، والقوم على أحر من الجمر. وبه تنكشف أكاذيبهم وضلالهم، لأنه كان الرد القاطع الذي أثبت عجزهم.

لقد كان لهم في القرآن الكريم نفسه، برهان أصدق من هذه البراهين المادية، التي يطلبون. فإن هذا القرآن شاهد بذاته على أنه من عند الله، وهم لم يكونوا يجحدون الله سبحانه، بل هم على وجه التأكيد، كانوا يحسون ذلك ويعرفونه.

وهكذا تبدو مطالبهم وجدالهم لأنها لم تكن طلباً للبرهان، إنما كانت وسيلة من وسائل الإعنات، وأسلوباً من أساليب التعنت

والمحاكاة والمعاندة. وإنهم كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾[1].

إن هذا التصدي لأقوال المشركين بالرد والمعارضة والتحدي والإبطال، ألجأهم إلى الهرب من عظم القرآن الكريم، وقوي سلطانه، وذلك بالدعوة إلى الإعراض عن سماعه، فكشف القرآن الكريم عن ذلك الفزع، في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ۝٢٦﴾[2].

ومع هذا، فما استطاعوا إبطال دعوته، ولا منعوها من التغلغل إلى القلوب، فاستقرت كما أراد له الله تعالى.

ووصل المطاف بالمعاندين من المشركين، بعد أن أعياهم الأمر، أن اضطروا إلى التآمر على النبي ﷺ، ودعوته التي أذهلتهم، وتركتهم في دوامة، فلجأوا إلى اليهود الذين كانوا مجاورين للعرب، يومئذ، في المدينة المنورة، «حيث طلبوا منهم اقتراح بعض التساؤلات ليوجهوها إلى الرسول قصد تعجيزه، لعلمهم بكتابهم، التوراة، وبهذا سيتحقق لهم مطلبهم الذي قصدوه».

والمعروف أن اليهود أهل خبال، ولهم خبرة وباع في مثل هذه الأراجيف والتقولات التي اقترحوها على المشركين، إذ اقترحوا عليهم أن يوجهوا إلى النبي ﷺ ثلاثة أسئلة، طالبين الردود الكافية الشافية عنها، وإن عجز عن ذلك، فهو ليس بنبي، كما يزعم، وإنه متقول.

فقد سأل المشركون الرسول ﷺ عن أصحاب الكهف، وكنه قصتهم، وعن ذي القرنين، الرجل الطواف، وقصته، وعن كيفية الروح، وما هي؟

---

(1) سورة الأنعام، الآية 7.
(2) سورة فصلت، الآية 26.

أجاب القرآن الكريم عن تلك الأسئلة في سورة الكهف، حيث أخبر عن أصحاب الكهف، وأوضح قصتهم تفصيلاً وإجمالاً، ثم أوضح قصة الطواف، الذي بلغ مشارق الأرض ومغاربها، وهو ذو القرنين»[1].

وجاء الرد عن الروح في قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾[2].

وبهذا سدت الطرق أمام كل تقولات المشركين وتخرصاتهم.

يتضح مما تقدم، أن المشركين معاندون مكابرون، وأن جدلهم أوصلهم إلى المراء، وأن لا صلة لهم بالحق أو بأصول الجدل التي جاء بها القرآن الكريم. لذلك، عاملهم القرآن الكريم معاملة المعاند، الذي يجادل ليعجز، لا ليطلب الحق لذات الحق. إذ كان جدلهم منصباً على مطالب خيالية لا حدود لها، ويتخذون من عدم إجابة الرسول ﷺ، حجّة يبرهنون بها مستنداً يستندون إليه.

والله تعالى يأمر نبيه أن يرد عليهم بما يسوقه القرآن الكريم، لإبطال دعواهم، وهو الحجّة القائمة عليهم، التي لا يجدون مخرجاً منها، ولا الرد عليها. وكلما شعروا بقوة الحجّة وشدة وطأتها على باطلهم، إستمروا معاندين مكابرين، يندفعون في أقوال واهية، يدفعهم إليها غرضهم الدنيء، وحقدهم الدفين، الذي امتلأت به نفوسهم. يتضح ذلك في قول أبي جهل، كبير سفهائهم، حيث يقول: «تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسَي رهان، قالوا منا نبي

(1) أنظر: تاريخ الجدل، للإمام أبي زهرة، ص 46، طبعة دار الفكر العربي.
(2) سورة الإسراء، الآية 85.

يأتيه الوحي من السماء، فمتى تدركون مثل هذا؟ قلنا والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه»[1].

ورغم كل ذلك، كان الرسول ﷺ في جدله معهم، يتصف بصفات جعلته المثل الأعلى للخصوم الشرفاء. فقد اعتصم بالحلم والصبر على الأذى، وخفض الجناح والرفق وحسن المعاملة.

وكان كلما اشتد أذاهم عليه وإساءتهم، قابل ذلك بالحلم والصبر، وقال مقالة الصابر المطمئن: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون».

ولقد كان أهل مكة أكثر عنفاً في جدال النبي ﷺ، رغم أن جدلهم لا يستند إلى منطق أو فكر. كما نوعوا جدلهم، طمعاً منهم في الغلبة والانتصار. ويأبى الله تعالى إلا أن يمد رسوله بالحجّة البالغة، كلما فتحوا له باباً من الجدل، وكلما اقترحوا عليه اقتراحاً أو اعترضوا عليه اعتراضاً: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ۝٣٣﴾[2]. وإنهم ليجادلون بالباطل، والله يرد على باطلهم بالحق الذي يدمغه، والحق هو الغاية التي يريد القرآن الكريم تقريرها، وليس مجرد الانتصار في الجدل، ولا الغلبة في المحاجّة، إنما هو الحق القوي بنفسه، الواضح الذي لا يلتبس به الباطل.

واستعمل القرآن الكريم مع المشركين الشدة والعنف اللذين يتوافقان مع تعصبهم والأذية التي كانوا يلحقونها بالإسلام ونبي الإسلام. لهذا، كانت أغلب الآيات التي وردت في مجادلتهم قوية قارعة شديدة، لا تحاول أن تقنع بالحجّة والمنطق فحسب، بل كانت تردف ذلك بالعقاب الذي ينتظر هؤلاء المتعصبين. ولهذا، كان الفرق واضحاً بين مجادلتهم

(1) تاريخ الجدل، للإمام أبي زهرة، ص 47.
(2) سورة الفرقان، الآية 33.

ومجادلة أهل الكتاب، التي أوصى الله تعالى فيها أن تكون بالتي هي أحسن لقوله: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾[1].

الرسول ﷺ والكافرون من أهل الكتاب

لم يواجه الرسول الكريم ﷺ فريقاً معيناً من الكافرين، وإنما كان يواجه أفرقاء مختلفين، منهم مشركون وأهل كتاب ومنافقون ومنكرون ومتمردون. والقرآن الكريم نزل لمقارعتهم ليسكتهم وليوقفهم عند حدهم، ويرد مزاعمهم الواهية، التي لا تستند إلى منطق، وهذا من ميزات القرآن وخصائصه، حيث أوضح أن دعوته لا تؤتي ثمارها، إلا بعد الإقناع الذي هو السبيل للإلزام والحجّة والمجادلة. وحتى يرسم للمؤمنين، في كل عصر وفي كل مصر، قواعد وطرق يتبعونها لدفع شبهات الباطل، التي يروّجها أصحاب الأفكار المنحرفة.

وكان أول من واجه الدعوة في مهدها، أهل الكتاب، اليهود والنصارى: ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ۝١ رَسُولٞ مِّنَ ٱللَّهِ يَتۡلُواْ صُحُفٗا مُّطَهَّرَةٗ ۝٢ فِيهَا كُتُبٞ قَيِّمَةٞ ۝٣ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ۝٤ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ ۝٦﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي

---

(1) سورة العنكبوت، الآية 46.
(2) سورة البينة، الآيات 1 ـ 6.

قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿٢﴾ ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ كَـٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾[3].

وقوله عز وجل: ﴿ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾[4].

فأهل الكتاب يعرفون حقيقة الرسول ﷺ، ولكنهم مالوا وانحرفوا وحادوا عن الصواب، واتجهوا إلى عبادة غير الله، عبدوا الأصنام التي لا تنفع ولا تضر: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَـٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ ﴾[5].

لقد واجه القرآن الكريم كافة الأقوام الكافرين، مشركين، وأهل كتاب، واجههم وصورهم أكمل تصوير، وقارعهم بالحجج الدامغة، وأدحض دعواهم الواهية، التي تنبعث من فكرهم الواهي الخاوي من أي تفكير سليم. وأخطر ما اتخذه ضدهم، هو عزلهم عن مجتمع المؤمنين، فآيات كثيرة ساقها القرآن الكريم، تضعهم في مكانهم

---

(1) سورة الحشر، الآية 2.
(2) سورة البقرة، الآية 109.
(3) سورة آل عمران، الآيتان 100، 101.
(4) سورة آل عمران، الآية 98.
(5) سورة النساء، الآية 51.

المناسب، وأن كفرهم لا يزيدهم إلا خسراناً وندامة، وأن العقاب في انتظارهم، ولئن لم يكن التفريق تفريقاً اجتماعياً، فإنه هو تفريق عقائدي: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾[1].

لقد نعى الله تعالى على الكافرين أعمالهم الخبيثة، وسجلها عليهم، وذكر ما كتمته صدورهم وأضمرته نفوسهم من الغدر للرسول ﷺ، والإصرار على الكفر، والتمادي في النفاق، والإعراض عما جاء به النور المبين والصراط المستقيم، وكشف ما أضمروه من الحسد والجحود، وسجله عليهم غاية التسجيل، ووعدهم بمصير محتوم.

حوار النبي ﷺ مع اليهود والنصارى

لم يكن هناك ما يذكر من جدال وقع بين النبي ﷺ، واليهود، وهو بمكة المكرمة، حتى هاجر إلى المدينة المنورة، فالتقى بهم، وكانوا يومها يقطنون المدينة مجاورين للمسلمين، وطبيعي أن يدعوهم النبي ﷺ إلى الرسالة الجديدة التي يدعو إليها، نظراً إلى عموم رسالته. وكان الواجب أن يجيبوا دعوته، لأنهم كانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا بنبي قد جاء وقته، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ۝٨٩﴾[2].

ولكنهم أعرضوا ولاحوا النبي ﷺ لأنهم قوم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله، ولأنهم رأوا في أنصار النبي ﷺ أقواماً من خصومهم في الجاهلية، فأسروا العداوة، ونابذوه الشر... ولأن اليهود لا يعترفون بنبي من غير بني إسرائيل، وما تمجيدهم إبراهيم وموسى وسائر النبيين، إلا أمر غريب في هؤلاء البشر، ولعل ذلك هو الذي

---

(1) سورة الكافرون، الآية 6.
(2) سورة البقرة، الآية 89.

دفعهم إلى أن يقولوا نحن أبناء الله وأحباؤه، وكان هو المحرك لغرورهم الذي دفعهم إلى الإنكار والمكابرة والمهاترة. ولذلك اندفعوا إلى مجادلة النبي ﷺ وسائر المسلمين، وناقشوهم مناقشات دينية، أخذت أولاً دوراً دينياً هادئاً، ثم أصبحت، من جانبهم، سباً واستهزاءً وخيانة، حتى اضطر النبي ﷺ إلى إجلاء بعضهم، ومحاربة الآخرين، وفي دور المحاجّة، كانت المجادلة واسعة النطاق غير محدودة، لأن النبي ﷺ كان يخاطب أقواماً يقرون بكتاب، ويؤمنون برسول، فكان يلزمهم بما جاء في كتبهم، وينعى عليهم مخالفتهم لما جاءت به رسلهم. وهم كانوا، لعلمهم بالكتاب، يوجهون أسئلة فيها شيء من الدقة والمعرفة، وإن كانوا ضالين. وقد أمر الله نبيه ﷺ أن يجادلهم برفق وحسن وموعظة فقال: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾[1]، وقال: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾[2].

وكان النبي ﷺ ينكر في حواره معهم:

1 ـ تحريفهم التوراة واختلافهم فيها، وطعن كل فريق في ما عند الآخرين، ويكفي ذلك دليلاً على الشك في حقيقة ما بأيديهم، قال تعالى: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ ٧٩﴾[3].

2 ـ وأنكر منهم النبي ﷺ مخالفتهم للأحكام التي أتى بها الأنبياء، وهجرهم لشرائعها، ومحاولتهم الأخذ بغيرها، إن وجدوا فيها ما يخالف مآربهم ورغباتهم الدنيوية، ولا يتفق مع أكلهم الرشوة التي كانوا يقبلونها ليغيروا بها حكم الله...

(1) سورة العنكبوت، الآية 46.
(2) سورة النحل، الآية 125.
(3) سورة البقرة، الآية 79.

قال تعالى: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ۚ﴾[1].

3 ـ وعاب عليهم النبي ﷺ أنهم كانوا لا يتلقون تعاليم دينهم من كتبه، بل من الأحبار. وأولئك يعبثون بأفكارهم، ولا يعلمونهم حقيقة كتبهم. وقد قال الله فيهم وفي النصارى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾[2].

4 ـ ونعى ـ عليه الصلاة والسلام ـ عليهم أنهم متعصبون، أشداء في تعصبهم، إلى درجة أنهم كانوا يتواصون بعدم الإيمان لأحد من غير شريعهتم، ولو دخل الإيمان قلوبهم، وغزت الحقيقة نفسوهم، وقد قال تعالى حاكياً قول بعضهم: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾[3].

5 ـ وأخذ عليهم النبي ﷺ أكلهم أموال الناس بالباطل، وأكلهم الربا، وقد نهوا عنه، واستحلال بعض أموال العرب، زاعمين أنهم أميون، ليس لهم سبيل على أهل العلم والفكر والثقافة، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾[4].

6 ـ أنكر منهم النبي ﷺ حرصهم الشديد على الدنيا، وتمسكهم

---

(4) سورة المائدة، الآيتان 43، 44.
(2) سورة التوبة، الآية 31.
(3) سورة آل عمران، الآيتان 73، 74.
(4) سورة آل عمران، الآية 75.

بملاذها وشهواتها، وليس ذلك بشأن الأقوام المتدينين، الذين يقدسون الدين، ويعبدون الله راجين ما عنده.

وقد كانت المناقشة تدفعهم إلى كثير من المهاترات، فكان النبي ـ عليه الصلاة والسلام، يأخذها عليهم، من مثل أن جبريل عدوهم، كما يأخذ عليهم غيرها، من مثل ادعائهم أن الله فقير، وهم أغنياء.

هذا بعض مما كان ينكره منهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ ويدلي به حجّة عليهم، ودليلاً على بطلان ما هم عليه، وما هم متمسكون به.

وقد كانوا في مجادلاتهم يدّعون أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ، كان على ديانتهم، وقد رد الله تعالى عليهم تلك الدعوى، في قوله: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾[1].

وقد احتجوا على النبي ﷺ بوجود النسخ في الشريعة الإسلامية. وأنكروا نسخ المعجزات والآيات، فرد الله عليهم ذلك، في قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾﴾[2].

وكانوا يطلبون آية أخرى تدل على رسالة النبي ﷺ ، غير القرآن الكريم، ويدّعون أن تلك الآية عهد من الله إليهم، ألا يؤمنوا بغيرها. وقد قال تعالى حاكياً عنهم: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾﴾[3].

وطلبوا من النبي ﷺ أن ينزل الله عليهم كتاباً من السماء يقرؤونه.

---

(1) سورة آل عمران، الآية 67.
(2) سورة البقرة، الآية 106.
(3) سورة آل عمران، الآية 183.

وفي ذلك يقول تعالى عنهم: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾[1].

وترى من هذا أن جدلهم مع النبي ﷺ كان كجدل أسلافهم مع موسى ـ عليه السلام ـ، جدل المتعنتين الذين لا يطلبون رشاداً، ولا يبغون سداداً، ولا يريدون حقاً ينصرونه، بل باطلاً يلوون ألسنتهم به. كل ذلك، والنبي ﷺ يأخذهم برفق وعطف وأناة حيناً، وبحزم حيناً آخر، وقد أمره الله تعالى، أن يطلب منهم أن يتمنوا الموت، إن كانوا حقاً صادقين في تكذيبهم دعواه، فما تمنوه، لأنهم يعرفون بينهم وبين أنفسهم صدقه ونبوته ﷺ.

ورغم كل هذا، فقد كانوا يجادلون في أمور كثيرة.

ومع هذا، كان النبي ﷺ رفيقاً عطوفاً عليهم، يقسم لهم بأحب أيامهم إليهم، ليستدنيهم إليه، وفي الوقت نفسه، يلزمهم بما عندهم، فيلزمهم بما يقرون. وهكذا يكون المجادل الأديب، فكيف إذا كان المجادل رسولاً من رب العالمين! هذا جانب من جدل النبي ﷺ مع اليهود، وقد كان كثيراً؛ لأن الاحتكاك كان كثيراً، بسبب الجوار.

أما جدله مع النصارى، فقد كان قليلاً، لبعدهم وعدم اختلاطهم بالمسلمين، إلا قليلاً.

ويقول تعالى في حوار اليهود والنصارى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ

---

(1) سورة النساء، الآية 153.

﴿أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝١٢٠﴾[1].

وجاء قبلها، وفي السورة نفسها، رد يصور موقف أهل الكتاب وتعنتهم، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٠١﴾[2].

وهؤلاء النصارى، يزعمون أنهم يؤمنون بالإنجيل، والمعروف أن الإنجيل بشّرهم بنبي، اسمه أحمد، ومع ذلك تنكروا لمحمد ﷺ حينما جاءهم بالبينات، فزعموا أنه جاءهم بسحر عليم. والقرآن يجادلهم في هذه الآيات عن ذلك، فيقول: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٦ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ۝٩﴾[3].

وبخصوص النصارى، كان حوار النبي ﷺ معهم، يهاجمهم في عقيدة التثليث، ويبينّ كفرهم بها، كما جاء في سياق قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٧٣﴾[4].

وينكر عليهم، في الوقت نفسه، إدعاءهم، أن عيسى وأمه إلهان من دون الله. وينكر عليهم قولهم أن الله هو المسيح، ويأخذ عليهم عبادتهم

---

(1) سورة البقرة، الآيات 118 ـ 120.
(2) سورة البقرة، الآية 101.
(3) سورة الصف، الآيات 6 ـ 9.
(4) سورة المائدة، الآية 73.

الصليب، وأكلهم الخنزير، وادعاءهم أن لله ولداً. ولم يكونوا يتقدمون باعتراضات كثيرة عن المبادىء التي جاء بها الإسلام، لشعورهم بأنها تثبت عند المناقشة والاستدلال. وممن جادلهم الرسول ـ عليه السلام ـ، وفد نجران بالمدينة المنورة. وسيأتي التفصيل في المبحث الخاص بجدال النصارى.

ولقد حكى القرآن الكريم صوراً كثيرة للجاحدين، الذين واجهوا رسالة محمد ﷺ بالمعارضة والاستهزاء والنكران، وتارة بمحاولة التعجيز، وتارة بالتكذيب الصريح، كلها فضحها القرآن الكريم ورد على أصحابها، وألزمهم الحجّة لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾[1].

وبالغوا في التحدي والمطالبة بما يعرفونه أنه ليس من طبيعة النبي ﷺ بعد أن أكد لهم مراراً أنه بشر رسول، لا يُطلب منه إلا ما يُطلب من بشر مبلغ رسالات ربه لقوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾[2]. ومع ذلك فهناك من يطالبونه بالمستحيل، كما جاء في سياق الآيات: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾[3].

---

(1) سورة الأنعام، الآية 26.
(2) سورة آل عمران، الآية 144.
(3) سورة آل عمران، الآيات 183 ـ 186.

كان ذلك بعضاً للنماذج والتحديات، التي لم تقتصر على جدال الكفار والمنافقين والمشركين، وكشف زيفهم وسوء أدبهم ومنطقهم. ولكنه اقترن بمطالبة النبي ﷺ بجدالهم ومقاومتهم بعد مقارعتهم بالحجّة المنطقية. ويأبى الله إلا أن ينصر رسوله، الذي يدعو إلى دينه، الذي ارتضاه للإنسانية عامة.

إن الرسالة الخاتمة، التي جاء بها الرسول محمد ﷺ من عند الله تعالى، هي نهاية المطاف. وعلى البشرية، خلال هذه الرسالة الجديدة، أن لا تنتظر وحياً جديداً، ينزل من السماء، والقرآن الكريم بين يديها، بل عليها أن تتمسك بهذا الدستور، وتقنع من تجاربها مع الذين سبقوا بما سلف.

وللمرة الأولى، يخاطب الوحي الإلهي الإنسان أنّى كان، لأن نداء هذا الوحي الذي جاء به القرآن الكريم، يذهب إلى كل الآفاق وإلى أبعد الآفاق، بعد أن كان في كل الرسالات الإلهية السابقة، يخاطب به الرسول قومه، ولا يتجاوزهم إلى غيرهم.

وفي الرسالة الخاتمة الشاملة، كانت عوامل الوحدة وعناصر الربط متكاملة بين كل الرسالات الإلهية، التي تمثل في مجموعها روافد تصب في نهر واحد، هو الدين الحق، الذي ارتضاه الله للبشرية جمعاء.

لقد كان في هذه الرسالة بيان واضح ومؤكد لأصول الدين، اعتقاداً وعملاً. وكان في هذه الرسالة كذلك كشف لحساب الأمم ومواقفها من هذا الدين، كما جاء في رسالات الرسل إليهم.

المبحث الثالث

حوار ومحاجّة الأنبياء لأقوامهم

حاجة الناس إلى الرسل

شاءت رحمة الله بخلقه، أن يبعث فيهم رسلاً مبشرين ومنذرين، لئلا يكون للناسِ على الله حجّة بعد الرسل. ومن عدله ـ سبحانه وتعالى ـ أن قرر مبدأ عادلاً: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ⑮﴾[1]. وكل رسول بعث في قومه خصّه برسالة تتناسب وظروف العصر الذي بعث فيه، مؤيداً بنصر الله وتوفيقه: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾[2]. ولقد لاقى رسل الله ما لاقوه من الاضطهاد من أقوامهم: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾[3].

ومن رحمته ـ سبحانه وتعالى ـ، أنه أرسل الرسل من جنس أقوامهم، ليتفاهموا معهم: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾. وقد أيدهم بالمعجزات والآيات التي تدل على صدق رسالاتهم، وبطلان عقائد أقوامهم التي أغرقتهم في الضلال،

(1) سورة الإسراء، الآية 15.
(2) سورة غافر، الآية 51.
(3) سورة الأنعام، الآية 34.

وهم لا يطلبون أجراً، وهدفهم الإصلاح ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

وأهم شيء دعوا إليه، هو توحيد الخالق ـ جل علاه ـ، وهو أساس العقيدة. ثم ختمت الرسالات برسالة سيدنا محمد ﷺ، فكانت رسالته عامة للناس كافة، بشيراً ونذيراً، مؤمنة بالرسالات السابقة، التي حملها المرسلون من قبله، أي أن الرسل السابقين، ساهموا في تشييد صرح مكارم الأخلاق، وأتى النبي ﷺ وتمم آخر لبنة في هذا الصرح.

لكل عصر مضى شرع يناسبه   وشرعه السمح لم ينسب به عصر

لا ينبغي لعاقل أن يعترض على رسل الله، فهم الصفوة من البشر الذين اصطفاهم الله : ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾[1]. ومن المبادىء العادلة في رسالات السماء، المساواة بين البشر في الحقوق والواجبات، وإنما تكون المفاضلة بالتقوى : ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾[2]. والناس فريقان من دعوة الرسول: مؤمنون، وهم الذين هداهم الله، ومعارضون أو معاندون، وهم الذين تمردوا على رسلهم وحدث الجدال بينهم، حيث دار بين محورين.

جدال الأنبياء والرسل مع أقوامهم

ومن أبرز صور الجدل في القرآن الكريم، الصورة التي وقع الجدال فيها بين رسل الله تعالى وأقوامهم، وهي الصورة التي اهتم بها القرآن الكريم كثيراً، وساقها للاستفادة منها، وليبين لنبيه محمد ﷺ ما غمض، وليوضح للناس جميعاً ما دار من جدل بين الرسول ﷺ وقومه.

وتكاد تكون الموضوعات واحدة، من حيث إن عقيدة الرسل

---

(1) سورة الأنعام، الآية 124.
(2) سورة الحجرات، الآية 13.

واحدة، وهدف كل رسول تبليغ دعوة الله إلى خلقه، ولا يتم ذلك، ولا يرسل رسول ما، إلا بقدر ما تدعو الحاجة الملحة له.

وكل رسول عليه أن يقوم بهذه المهمة الخطيرة، ولا يقبل عليها أجراً، لأنه يحمل أمانة إليهم.

واتخذ الجدل في الغالب محورين، وينتهي إلى نتيجة بعينها:

* أما المحور الأول الذي يدور حوله الجدل، فهو موضوع العقيدة، وهي المهمة التي جاء بها كل رسول من عند الله تعالى إلى قوم معينين، وأكثر الاعتراض يكون عدم الاعتراف بنبوة رسول ما، وأنه ليس رسولاً من عند الله، وأنه من البشر.

* وكان المحور الثاني تناول المبادىء والأخلاق، التي تمارس الحياة على أساس منها.

وبالرجوع إلى المحور الأول، فلم تكن هناك خصوصيات تذكر، إنما هناك عقيدة دينية، أقرها الله لعباده، وهي عقيدة ثابتة لكل الناس، وفي كل زمان ومكان. الدين واحد والشرائع متعددة: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[1].

ومن خلال تتبع صورة أو أكثر للجدال بين الأنبياء والمرسلين مع أقوامهم، نلقي الضوء حول هذا الجدال، حيث كان للأنبياء والرسل مواقف مع أقوامهم لإقناعهم بالعقيدة السليمة بالله رب العالمين، التي صدقها العقل وأيدها النقل، وكان لهذا الجدل مميزاته، لما يتحلى به الأنبياء من التوجيه الصحيح المؤيد بالوحي الإلهي، وما اشتمل عليه من أدب جم وخلق كريم وصبر عظيم، على الرغم من قسوة أولئك الأقوام، والتشبث بتقاليد الآباء والأجداد، من غير نظر وتبصر.

---

(1) سورة المائدة، الآية 48.

جدال نوح ـ عليه السلام ـ لقومه

قص الله تعالى، في كثير من سور القرآن الكريم، جدال نوح ـ عليه السلام ـ مع قومه، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾[1].

لقد أرسل الله تعالى نوحاً ـ عليه السلام ـ إلى قومه، على سنة الله في إرسال رسول إلى قومه بلسانهم، تأليفاً للقلوب التي لم تفسد فطرتها، وتيسيراً للبشر إلى التفاهم والتعارف، وإن كان الذين فسدت فطرتهم، يعجبون من هذه السنة، ولا يستجيبون، ويستكبرون أن يؤمنوا لبشر مثلهم، ويطلبون أن تبلغهم الملائكة، وما هي إلا قولة، وما كانوا ليستجيبوا للهدى من أي طريق جاءهم.

لقد أرسل الله تعالى نوحاً ـ عليه السلام ـ مخاطباً بتلك الكلمة التي جاء بها كل رسول إلى قومه: ﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾[2].

لقد قال نوح ـ عليه السلام ـ هذه القولة الواحدة، وأنذرهم عاقبة

---

(1) سورة هود، الآيات 25 ـ 31.
(2) سورة الأعراف، الآية 59.

التكذيب بها، في إشفاق الأخ الناصح لإخوانه، وفي صدق الرائد الناصح لأهله.

وكان الواجب أن يستجيبوا لما دعاهم إليه، ولكن القوم ردوا عليه بأسلوب ينم على الكبرياء والغطرسة، ويفيض بالاستهزاء، ويرمي البُراء بأخس الأوصاف وأرذل الألقاب، ويسم نوحاً ـ عليه السلام ـ ومن اتبعه بالكذب والزور. وكان رد نوح ـ عليه السلام ـ على هذه البذاءة وتلك الكبرياء: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ . . .
إلى قوله: إِنِّيٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾.

ناقش نوح ـ عليه السلام ـ حجج الكافرين بمنطق الأنبياء الوجيه، وهو منطق الفكر الذي يجرد النفس من الكبرياء الشخصية وهوى المصالح الخاصة، قال لهم: «إن الله قد أتاه الرسالة والنبوة والرحمة، ولم يروا هم ما آتاه الله، وهو بالتالي لا يجبرهم على الإيمان برسالته وهم كارهون، وأفهمهم أنه لا يطلب منهم مقابلاً لدعوته، ولا يطلب منهم ما يثقل عليهم، إن أجره إلا على الله، وأفهمهم أنه لا يستطيع أن يطرد الذين آمنوا بالله تعالى. إن له حدوداً ينتهي عندها. ثم إنه لو طردهم، لخاصموه عند الله تعالى. وإن من لجأ إلى حظيرة الإيمان، كيف يطرد وكيف ينقص قدره، وقد يكون له عند الله الزلفى وحسن المآب»[1].

وفي حوار آخر بين نوح ـ عليه السلام ـ وقومه، وهو شبيه بالحوار الذي ساقته آيات سورة هود، وهو يجادلهم بالحكمة والموعظة الحسنة، ولكنهم لا يفقهون ولا يتعظون، بل يتمادون في فحش القول وسوء القصد ـ السبيل ـ ساخرين من النبي ـ عليه السلام ـ الذي أصبح غريباً بين قومه.

---

(1) أنظر: تفسير البيضاوي، ط 1، ص 492، مطبوعات أسعد محمد سعيد الحبال وأولاده بجدة، على هامش المصحف الشريف.

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي
لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ
الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ۞ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ
وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ
أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾
فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾
ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ
الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾﴾[1].

تناول القرآن الكريم، وهو يحكي قصة أول رسول بعثه الله للبشرية، بعد حدوث جريمة الشرك النكراء، حيث عبدت الأصنام، بعثه الله ناهياً عن ذلك ومحذراً من وبال عقابه، ولم تجد دعوته آذاناً صاغية، فكذبه قومه واستمروا في ما هم عليه من الشرك، حتى ابنه لم يستجب لدعوته، إذ كان مع القوم الكافرين.

وساق القرآن الكريم حواراً آخر لنوح ـ عليه السلام ـ مع قومه، حيث يقول: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي
أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ
يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ
مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا
وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۚ
إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾[2].

(1) سورة الشعراء، الآيات 105 ـ 122.
(2) سورة الأعراف، الآيات 59 ـ 64.

هذا ما حكاه القرآن الكريم عن موقف نوح ـ عليه السلام ـ مع قومه، وعن أسلوبه الوديع المتسامح، الذي يصور طبيعة مهمته ونوعية رسالته، التي تقوم على الخير والعدل الإلّهي، وتعرض دوره كناصح مشفق، يخاف عليهم العذاب والضلال.

وتستمر المعركة، ويطول الجدال بين نوح ـ عليه السلام ـ وقومه، حتى لم يبق في جعبة المعاندين شيئاً سوى سفاهة القوم، فخرجوا عن حدود الأدب وأخذوا يسبون نبي الله.

غير أن نوحاً ـ عليه السلام ـ قرر أن يستمر في مجادلتهم، رغم ما لقيه من هؤلاء المعادين من سفاهة وسوء أدب.

وسئم المعاندون، يومها، الجدال الذي يجادله نوح ـ عليه السلام ـ، وأكدت آيات من سورة هود قصة هذا الجدال بين نوح وقومه، بأسلوب الحوار والمحاجّة نفسه. والآيات تبسيط لعرض نوح ـ عليه السلام ـ لكل حججه العقلية والإنسانية والعاطفية، وفق بساطة لغة الحوار، ومحاولة التقرب إلى مشاعر القوم بتكرير قوله ـ عليه السلام: (يا قوم)، كما يحكي القرآن الكريم ذلك: ﴿يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾[1]، ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾[2]، ﴿وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ﴾[3].

إلى أن ضاقوا بهذا الحوار ذرعاً، ولهذا قالوا كما يحكي القرآن الكريم على لسانهم: ﴿قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾[4]. واستمر يدعوهم ليلاً ونهاراً، سراً وجهراً، ويضرب

---

(1) سورة هود، الآية 28.
(2) سورة هود، الآية 29.
(3) سورة هود، الآية 30.
(4) سورة هود، الآية 32.

لهم الأمثال، ويشرح لهم الآيات وهو مستمر يبين لهم قدرة الله، أملاً منه بأنهم سيعودون إلى رشدهم، إلاّ أنهم تمادوا في غيهم وسلكوا طريق الضلال، ولم تنفع معهم كل الوسائل المتبعة.

واستمر على هذا المناول يدعوهم: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ۝١٤﴾[1].

ورغم طول هذه المدة، فما آمن به إلا القليل منهم. هذه دعوة نوح - عليه السلام - التي كذبه فيها قومه، وهو أخوهم، وكان الأليق بالأخوّة أن تقود إلى المسالمة والاطمئنان والإذعان والتصديق. ولكن قومه لم ينتبهوا لهذه الصلة، ولم تكن قلوبهم متفتحة لدعوة أخيهم نوح - عليه السلام -، إذ قال لهم: ألا تتقون وتخافون عاقبة ما أنتم فيه، فلم تستشعر قلوبكم خوف الله. فلما واجههم نوح - عليه السلام - بحججه المنطقية ومنطقه القويم، وعجزوا عن المضي في الجدل بالحجّة والبرهان، لجأوا إلى التهديد بالقوة المادية والغلظة، اللتين يعتمد عليهما الطغاة في كل زمان ومكان، عندما تعوزهم الحجّة ويعجزهم البرهان. ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ۝١١٦﴾[2]. وأسفر الطغيان عن وجهه الكالح، وكشف الضلال عن وسيلته الغليظة، وعرف نوح - عليه السلام - أن القلوب القاسية لن تلين. عند ذلك، استنصر بقيوم السموات والأرض: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ۝١١٧ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝١١٨ فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ۝١١٩﴾[3].

فاجتمع على القوم خطاياهم وكفرهم وفجورهم ودعوة نبيهم عليهم. وعند ذلك، أمره الله أن يصنع الفلك، وأعلمه أنه قد جاء أمره، وحل

---

(1) سورة العنكبوت، الآية 14.

(2) سورة الشعراء، الآية 116.

(3) سورة الشعراء، الآيات 117 - 119.

بهم بأسه الذي لا يرد عن القوم المجرمين، وأنه لا يعاوده فيهم ولا يراجعه، فإنه قد تدركه رقة على قومه عند معاينة العذاب النازل بهم، فإنه ليس الخبر كالمعاينة، ولهذا قال له: ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ٣٧﴾[1].

هذا إجمال سريع، يصور النهاية الأخيرة للمعركة بين الإيمان والكفر، في فجر تاريخ البشرية، ويقرر مصير كل معركة من هذا القبيل في تاريخ البشرية الطويل.

إن قصة نوح ـ عليه السلام ـ من أغرب القصص التاريخية، وهي تؤكد الصراع الإنساني من أجل الإيمان. حيث انتصر الحق على الباطل: ﴿وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا ٨١﴾[2].

جدال هود ـ عليه السلام ـ لقومه

جاء هود ليجدد دعوة أخيه نوح ـ عليهما السلام ـ، ويدعو قومه إلى عبادة الله وحده برسالة، شأنها شأن كل رسالة سماوية، قائمة على عنصري الهدم والبناء، هدم عقيدة الشرك بكل مظاهره، وبناء عقيدة التوحيد: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ ٥٠﴾[3].

ورغم ما يقدمه هود ـ عليه السلام ـ من ضمانات الإيمان بالله، ونتائج هذا الإيمان، إلا أن ردّ قومه كان كرد أسلافهم، لم يكن متلائماً مع أسلوب الرسالة: ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ

---

(1) سورة هود، الآية 37.
(2) سورة الإسراء، الآية 81.
(3) سورة هود، الآية 50.

﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۝ إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ۗ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝﴾[1].

ويمضي هود ـ عليه السلام ـ مع هؤلاء المعاندين إلى آخر الشوط، حتى لا تكون لهم حجّة، بل لتكون الحجّة عليهم.

«وواضح من الجدل، أن المحور، هنا، هو الدعوة لله، ولكنهم يأخذون على هود ما يدفعهم إلى رفض هذه الدعوة، ويأخذون عليه أنه لم يأتهم ببينة، وأنهم لن يتركوا آلهتهم التي يدعوهم لتركها، وأنهم لن يؤمنوا به. وواضح أنهم قالوا هذا القول على سبيل التحدي، وأنه واجه هذا التحدي في النهاية، بإعلان أنه قد أبلغهم رسالة ربه، وأن الله قد يستخلف غيرهم، ثم ينتهي الحكم عليهم، بعد الحوار، باللعنة في الدنيا ويوم القيامة»[2].

ولقد كان قوم هود (عاد) جفاة كافرين متمرسين بعبادة الأصنام. أرسل الله إليهم أخاهم هوداً، يدعوهم لعبادة الله وحده، ناهياً لهم عن عبادة الأوثان، التي اقترفوها واختلقوا لها الأسماء، ورغبهم في طاعة الله واستغفاره، ووعدهم عن ذلك خيري الدنيا والآخرة، وتوعدهم على مخالفتهم ذلك عقوبة الدنيا والآخرة، وكان رد قومه: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾[3].

إن الأمر الذي تدعونا إليه، هو سفه بالنسبة إلى ما نحن عليه من عبادة هذه الأصنام. ومع هذا، نظن أنك كاذب في دعواك، أن الله قد بعثك رسولاً إلينا.

هكذا كانت إجابة القوم، متناسين أن أخاهم هوداً في غاية النصح

---

(1) سورة هود، الآيتان 53، 54.

(2) سلسلة عالم المعرفة، مفاهيم قرآنية، د. محمد أحمد خلف الله، العدد 79، ص 165، مطابع الرسالة، الكويت.

(3) سورة الأعراف، الآية 65.

لهم، والشفقة عليهم، والحرص على هدايتهم، كما أخبرهم أنه لا يريد منهم أجراً على هذا النصح والبلاغ من الله، إنما يبغي ثوابه من الله العلي القدير. لقد خاطب هود قومه إزاحة للتهمة وتمحيصاً للنصيحة، ولما تبين له أنهم لا تنفع معهم كل النصائح، تخلى عنهم.

لقد هلك قوم عاد، لأنهم اتبعوا أمر كل جبار عنيد، هلكوا واللعنة تلاحقهم في الدنيا والآخرة، أتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة. والقرآن الكريم يتتبع طريقهم، وهو لا يتركهم قبل أن يسجل عليهم حالهم وسبب ما أصابهم، حيث قال: ﴿أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ﴾[1]، كما يدعو عليهم بالطرد والبعد والهلاك: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ۝٦٠﴾[2].

بهذا الإعلان الصريح الهام، وبهذا التحديد والإيضاح والتوكيد، يذكرنا القرآن الكريم بالقوم الذين كذبوا، فحق وعيد الله عليهم.

إن أصحاب الدعوة إلى الله، في كل مكان وفي كل زمان، في حاجة إلى أن ينتبهوا لهذا المشهد الواضح، رجل واحد مع فئة قليلة من المؤمنين، يواجه أعتى أهل الأرض وأغناهم وأكثرهم حضارة في زمانهم، هؤلاء الذين واجههم هود ـ عليه السلام ـ هذه المواجهة في شجاعة المؤمن، واستعلائه وثقته واطمئنانه، وفاصلهم هذه المفاصلة الحاسمة، ووصل معهم إلى نهاية المشوار، وهم قومه؛ وتحداهم أن يكيدوه بلا إمهال، وأن يفعلوا به ما في استطاعتهم، فهو غير آبه بهم لأنهم ليسوا على شيء، حقاً لقد وقف نبي الله هود ـ عليه السلام ـ هذه الوقفة الشجاعة، بعدما بذل لقومه من النصح ما فيه الكفاية، ولما تبين له عنادهم وإصرارهم على ما هم عليه، ترك أمرهم والتجأ إلى حظيرة الله وأنسه، لأنه يعلم ما سيلحق بالقوم المكذبين.

---

(1) سورة هود، الآية 60.
(2) سورة هود، الآية 60.

لقد وقف هود ـ عليه السلام ـ هذه الوقفة، لأنه يجد حقيقة ربه في نفسه. إن أصحاب الدعوة إلى الله، لا بد أن يجدوا حقيقة ربهم في نفوسهم على هذا النحو، حتى يملكوا أن يصمدوا بإيمانهم الراسخ في استعلاء، أمام القوى الجاهلة العاتية الطاغية، أمام القوة المادية، وقوة الصناعة، وقوة المال، وقوة العلم، وقوة الأنظمة والأجهزة والتجارب والخبرات. وهذه هي سمات وأصول جدل القرآن الكريم ومحاجته، لأن من يلتمس حجّة غيره فقد ضل.

جدال وحوار صالح ـ عليه السلام ـ لقومه:

جاء صالح ـ عليه السلام ـ إلى قومه برسالة من الله، يرشدهم إلى عبادة الله، ونبذ عبادة الأصنام، وهذا شأن كل رسالة سماوية. فعندما تنحرف المجتمعات عن الطريق القويم، وتتغير الموازين، يبعث الله رسولاً، ليبدد ما طرأ على البشرية من الانحراف في مجال العقيدة التي اختارها الله لعباده.

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾[1].

(1) سورة الأعراف، الآيات 73 ـ 79.

هذا هو القرآن الكريم، يستعرض طرفاً من قصة صالح - عليه السلام - مع قومه، وقد جرت محاورات بين نبي الله صالح - عليه السلام - وقومه، أملاها عليه حرصه الشديد على هدايتهم، ورغبة في إنقاذهم مما هم متورطون فيه. وهي من غير شك محاورات بسيطة، كانت تعتمد على المنطق السليم، وتقصد الغاية الكريمة، ولكن لم تأت بالثمرة المرجوة، إلا مع القليل الذين أراد الله لهم الخير والرحمة، أما الغالبية، فقد عميت أبصارهم عن الحق، ولم يستبينوا طريق الرشاد. وهم بدورهم أخذوا يتخبطون بين مزالق المنطق السقيم والحجّة الداحضة، يقودهم فساد العقيدة ولؤم الطبع إلى الدرك الأسفل، فينحدرون في تفكيرهم إلى الوهم والهذيان.

لقد سجل القرآن الكريم باستفاضة هذه المحاجّة، في كثير من سوره، وبيّن ماذا قال القوم لرسولهم صالح - عليه السلام - حين دعاهم إلى الهدى: ﴿قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾[1].

ويأتي جوابهم، في القرآن، على لسان نبي الله صالح - عليه السلام: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾﴾[2].

وهذا تلطف منه بقومه في العبارة ولين الجانب، وحسن تأت في الدعوة إلى الخير، عندما ألح عليهم في العبارة. إنه أسلوب النبوة الهادىء الوديع.

ورغم تنوع كل أساليب الترغيب والترهيب، التي استخدمها نبي الله

---

(1) سورة هود، الآية 62.

(2) سورة هود، الآية 63.

صالح ـ عليه السلام ـ لإقناع قومه، إلا أنهم أبوا، وقالوا له: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾﴾[1]، واتهموه بالجنون والسحر، ولا يدري ما يقول في دعوته، لا لشيء إلا لأنه أمرهم بعبادة الله وترك ما سواه من الأنداد. إن مثل هذه الإجابة، لا تمت إلى الواقع بشيء، وإنما تكشف عن سوء فهم القوم لنبيهم ولما جاءهم به. وأسلوبهم هذا، هو المتوقع منهم ومن أمثالهم، وهو أسلوب الضعفاء، وكثيراً ما يلجأون إليه، عندما تعوزهم الحجّة وينقصهم الدليل. إلا أن نبي الله صالحاً ـ عليه السلام ـ لم يستسلم للأمر الواقع، ويذعن لهم، بل واصل معهم خط الرحلة حتى النهاية المحتومة عليهم، لقد صدق الله وعده مع نبيه صالح ـ عليه السلام ـ ومن آمن معه، فأنجاهم من الهلاك. أما الظالمون، فقد أخذهم الله شر أخذة، إذ أخذتهم الصيحة، ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾﴾[2].

هذه صورة من الجدل العقيم والحوار غير المتكافىء، والتعصب للرأي، بقصد المعارضة لذاتها.

وهكذا تحمل قصة صالح ـ عليه السلام ـ في ثناياها العبرة والعظة البالغتين، فهي تمثل قصة قرية آمنة مطمئنة، يأتيها رزقها رغداً، فكفرت بأنعم الله، فأذاقها الله الويل والهلاك وجعلها عبرة لمن يعتبر.

جدال إبراهيم ـ عليه السلام ـ لقومه

إن المتتبع لسيرة إبراهيم ـ عليه السلام ـ ليجدها قدمت نموذجاً من نماذج الإيمان، الذي صارع النفس والعاطفة الذاتية والإنسانية، صارع الأخيرتين في سبيل العقيدة، ونشر الإيمان. وتكاد سيرته تنفرد بين

---

(1) سورة الشعراء، الآية 185.
(2) سورة هود، الآية 67.

سيرة إخوانه الأنبياء، بالامتحان النفسي والذاتي، الذي خرج فيه الإيمان منتصراً في قصة الفداء التي تصورها حياة إبراهيم أروع تصوير، وفي قصة مواجهة الأب، الذي لم يتردد أن يعنفه لاتخاذ الأصنام آلهة. إن إيمان إبراهيم ـ عليه السلام ـ جعله في مقدمة الذين وضعهم القرآن الكريم في منزلة سامية، من حيث قربهم إلى الله، ومن حيث عملهم الصادق، وامتثالهم المثالي.

إن إبراهيم الذي قدم جسده للنار، وابنه للفداء، وتصدى لهيمنة الملك المتجبر، ولغطرسة قومه، إنه حقاً ليعتبر إمام الأنبياء، وللبشرية المسلمة أن تفخر بأن تنسب نفسها إلى ملة إبراهيم: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝﴾[1].

لقد سجل القرآن أروع البطولات لهذا النبي، ولعل اتخاذ الله إبراهيم ـ عليه السلام ـ خليلاً، لخير دليل على هذا.

منهج إبراهيم ـ عليه السلام ـ في الدعوة

لقد نهج إبرهيم ـ عليه السلام ـ نهجاً خاصاً في الدعوة إلى عبادة الله، ونبذ مظاهر الشرك، وتسفيه عبادة الأوثان، وإقامة الحجّة على من ادعى واهماً الاتصاف بصفات الله تعالى. فهو يقدم مثالاً عالياً للداعية المسلم في منهج الدعوة وخلق الداعية، من سعة الخلق، ورحابة الأفق، والصبر على محاجّة الخصم، والمضي معه إلى آخر الشوط في الحوار.

والقرآن الكريم يبرز لنا، في أكثر من موضوع هذه السمات المتميزة في حياة هذا الرسول الداعية.

ويكفي أن نعرف أن دين إبراهيم ـ عليه السلام ـ أساس لدين الإسلام الذي جاء القرآن الكريم ليضع أسسه، وأن ملّة إبراهيم ـ عليه

(1) سورة النحل، الآية 120.

السلام ـ هي الأساس، حتى ادعى اليهود والنصارى أنهم أتباع ملة إبراهيم ـ عليه السلام ـ، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾[1]، ﴿يَٰٓأَهْلَ الْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ التَّوْرَىٰةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِىُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا ۗ وَاللَّهُ وَلِىُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾[2].

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ اجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى الْءَاخِرَةِ لَمِنَ الصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾[3].

وأن يكون هذا الوصف من أبرز المميزات للرسالة الخاتمة لرسالات الله إلى الناس كافة: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ الْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾[4].

1 ـ منهج إبراهيم ـ عليه السلام ـ في إبطال عبادة الكواكب والقمر والشمس

«لقد كان إبراهيم ـ عليه السلام ـ يحاور عبدة الأوثان ومستلهمي النجوم، لينقلهم إلى العقيدة الصحيحة. إن موقف إبراهيم، وهو يستعرض العقائد الشائعة في زمانه وفي نوعية الإلّه الذي يعبد

(1) سورة النساء، الآية 125.
(2) سورة آل عمران، الآيات 65 ـ 68.
(3) سورة النحل، الآيات 120 ـ 123.
(4) سورة الأنعام، الآيات 161 ـ 163.

وحقيقته، فهناك عقيدة تؤله الكواكب، وأخرى تؤله القمر وثالثة تؤله الشمس»[1].

فماذا كان موقفه تجاهها؟ وما هو الأسلوب الذي اتبعه في إقناع الناس مع نفسه، وهو يتلمس الطريق في حيرة التيه، يحاول أن يثير العقائد مع نفسه، وكأنها مجرد نظرات تلوح، وهو يتأمل، وقضايا تفرض، وهو يفكر، ويبدأ بعد هذا بنقضها ومناقشتها في إطار ذاته كعقيدة شخصية، ويمضي في هذا الاستعراض وهذا التأمل وهذا النقض، حتى يصل إلى الحقيقة الكلية، والتي تبدو وكأنها قضية تفرضها البداهة، ويعينها الواقع.

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ٧٦ فَلَمَّا رَءَا الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ٧٧ فَلَمَّا رَءَا الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ٧٨ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ٧٩ وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾[2].

«وقد سلك مسلكاً في الحجاج جعله طريقاً لبيان استحالة ربوبية تلك الكواكب، التي ليست أوضح بطلاناً من استحالة ربوبية الأصنام، لأن تقديم بطلان هيئة الأصنام على النحو الذي تنكره الآيات، يساعد الأذهان على الترقي بالإدراك الخفي إلى الأخفى.

هذا ويفهم من حجته ـ عليه السلام ـ أن استدلاله، المبني على إظهار

---

(1) أنظر: أنبياء الله، تأليف أحمد بهجت، ص 85، 86، ط 3، دار الشروق، القاهرة 1973 م.

(2) سورة الأنعام، الآيات 76 ـ 80.

التردد، لم يكن في الواقع لنفسه، وليس ذلك تردداً حقيقاً منه، بل كان يهدف المحاجّة، وبغية الكشف عن تهافت مذهب الخصم، فاصطنع مثل هذا المنهج الشكلي الاستدلالي، كما يرشد إلى ذلك سير الآيات التي تصور هذا الموقف»[1].

2 ـ منهجه في إبطال عبادة الأصنام

لقد حاول إبراهيم ـ عليه السلام ـ أن يجعل قومه، الذين يعبدون الأصنام، وجهاً لوجه مع الحقيقة، التي توضح لهم فساد عقيدتهم وسخافتها. كل ذلك في أسلوب مفاجىء يرجعهم إلى فطرتهم دون سابق إنذار، ويدفعهم دفعاً إلى الاعتراف بالحقيقة التي يقصدها.

وساق القرآن الكريم المحاورة التي دارت بينه وبين قومه حول الأصنام التي يعبدونها، وحديثه إليهم في طبيعة هذه العبادة، ومدى ما فيها من ضلال وبطلان، وما أعقب تلك المحاورة من قيامه بتكسير الأصنام كلها، إلا الصنم الكبير الذي استبقاه، ليجعله منطلق حجته:

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا
عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ
ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ
ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا
كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟
سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾
قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن

---

(1) دراسات قرآنية، بحوث في الدراسات القرآنية والاجتماعية، عبد الله الوصيف، ص 29، طباعة ونشر مركز البحوث، تونس 1979 م.

كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾﴾[1].

والأمر بسيط، ولا يحتاج إلى كثرة جهد لملاحظة كيف جعلهم وجهاً لوجه، أمام الحقيقة التي تنطق بانحرافهم، بل بظلمهم، وتعلن لهم خزي موقفهم مع هذه الآلهة، التي لا تقدر على النطق. إنه الأسلوب الذي يرجع الإنسان إلى فطرته، ويجعله ينطق بالحجّة على نفسه دون شعور أو التفات.

ويستمر إبراهيم - عليه السلام - في جدال قومه في عبادتهم الأصنام، وتحكي الآيات من سورة الشعراء ذلك: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾[2].

وجاء في سورة الصافات قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾[3].

---

(1) سورة الأنبياء، الآيات 52 - 68.
(2) سورة الشعراء، الآيات 69 - 74.
(3) سورة الصافات، الآيات 85 - 98.

لقد أنكر إبراهيم ـ عليه السلام ـ على قومه مراراً عبادة الأوثان، وحقرها عندهم وصغرها، وتنقصها فقال: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ۝٥٢﴾، أي معتكفون عندها وخاضعون لها ﴿قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ۝٥٣﴾ وما كان حجتهم إلا صنيع الآباء والأجداد. قال: ﴿لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٥٤﴾، كما قال: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ۝٧٠ قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ۝٧١ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ۝٧٢ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ۝٧٣ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ۝٧٤﴾. والقوم يعلمون علم اليقين أن أصنامهم لا تسمع داعياً ولا تضر شيئاً، وإنما الحامل لهم على عبادتها الاقتداء بأسلافهم، ومن هم على شاكلتهم في الضلال من الآباء والجهال، لهذا قال: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝٧٥ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ۝٧٦ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٧﴾[1].

وهذا برهان قاطع على أن الآلهة التي يعبدونها لا تنفع ولا تضر، بل إنها عاجزة حتى عن حماية نفسها، فضلاً عن أنها ليست قادرة على فعل شيء. ومن خلال تتبع مجرى المناقشة والحوار الذي دار بين إبراهيم ـ عليه السلام ـ وقومه، نقف قليلاً، لنرى كيف يسير مع قومه خطوة خطوة، ولنرى أصول الجدل القرآني في مواجهة الخصوم[2]، وإبراهيم ـ عليه السلام ـ إذ قال لقومه: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝١٦ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝١٧ وَإِن

---

(1) سورة الشعراء، الآيات 75 ـ 77.

(2) أنظر: د. عبد الغني محمد سعد بركة، أسلوب الدعوة في القرآن، ط 1، ص 357، مكتبة وهبة، القاهرة 1983 م.

﴿تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾﴾[1].

لقد دعاهم دعوة بسيطة، لا تعقيد فيها، ولا غموض، مرتبة في عرضها ترتيباً دقيقاً، يحسن أن يهتدي به أصحاب الدعوات. لقد بدأ ببيان حقيقة الدعوة التي يدعوهم إليها: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ﴾، ثم ثنى بتحبيب هذه الحقيقة إليهم، وما تضمنه من الخير لهم، لو كانوا يعلمون أين يكون الخير: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾﴾ وفي هذا التعقيب ما يحفزهم إلى نفي الجهل عنهم واختيار الخير لأنفسهم، وهو في الوقت نفسه حقيقة لا مجرد تهيج خطابي. وفي الخطوة التالية، يبين لهم فساد ما هم عليه من العقيدة، من عدة وجوه، أولها أنهم يعبدون من دون الله أوثاناً؛ والوثن التمثال من الخشب، وهي عبادة سخيفة، وبخاصة إن كانوا يعدلون بها عبادة الله. وثانياً أنهم بهذه العبادة لا يستندون إلى برهان أو دليل، وإنما يخلقون إفكاً، ينشئون باطلاً ويخلقونه خلقاً، بلا سابقة أو مقدمة، وينشئونه إنشاء من عند أنفسهم، بلا أصل ولا قاعدة. وثالثاً أن هذه الأوثان لا تنفعهم ولا تضرهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾.

وفي الخطوة الرابعة، يوجههم إلى الله ليطلبوا منه الرزق، الأمر الذي يهمهم ويمس حاجتهم: ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾؛ والرزق مشغلة النفوس، وبخاصة تلك التي لم يستغرقها الإيمان، ولكن ابتغاء الرزق من الله وحده حقيقة، لا مجرد استثارة للميول الكامنة في النفوس.

وفي النهاية، يهتف بهم إلى واهب الأرزاق المتفضل بالنعم، ليعبدوه ويشكروه: ﴿وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ﴾. وأخيراً، يكشف لهم أنه لا مفر من الله، فمن الخير أن يثوبوا إليه مؤمنين عابدين شاكرين: ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾، فإن كذبوا بعد ذلك كله، فما أهون ذلك، فلن يضر الله

(1) سورة العنكبوت، الآيات 16 ـ 18.

شيئاً، ولن يخسر رسوله شيئاً، فقد كذب الكثيرون من قبل، وما على الرسول إلا واجب التبليغ: ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ۝١٨﴾. وهكذا يأخذهم، خطوة خطوة، ويدخل إلى قلوبهم من مداخلها، ويوقع على أوتارها في دقة عميقة، وهذه الخطوات تعد نموذجاً لطريقة الدعوة جديراً بأن يتحلى بها أصحاب كل دعوة، لينسجوا على منواله.

إن المواجهة القوية العنيفة، التي امتازت بالجدل العقلي والعاطفي، بين إبراهيم ـ عليه السلام ـ وقومه، رغبة في إقناعهم، وتسفيهاً للعقائد الباطلة، التي تمسكوا بها، ودفاعاً عن الإيمان الذي تحمل مسؤولية التبشير به، وكل مراحل دعوة إبراهيم كسائر الأنبياء الآخرين ـ عليه السلام ـ كانت جدلاً مع المخالفين، وقد صور القرآن الكريم هذا الجدل في سبيل الإيمان في غير ما آية، ولو أن كل آية تأخذ جانباً من المشكلة التي يجادلون فيها.

3 ـ موقفه من أبيه عابد الأصنام وصانعها

ومن خلال تتبع مواقف إبراهيم ـ عليه السلام ـ مع قومه، يلاحظ أنه كان حليماً رقيق القلب رؤوفاً، باراً بوالده مع قسوته عليه، وقد بذل معه قصارى جهده، ليرده إلى حظيرة الإيمان، ولكن ذلك كله لم يفد، لغلبة الشقاوة عليه: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ۝٤٢ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ۝٤٣ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ۝٤٤ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ۝٤٥ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ۝٤٦ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ۝٤٧﴾[1].

---

(1) سورة مريم، الآيات 42 ـ 47.

«لما أراد إبراهيم أن ينصح أباه ويعظه، وينقذه مما كان متورطاً فيه من الخطأ العظيم الذي عصا به أمر العقل، رتّب معه الكلام في أحسن نظام، مع استعمال المجاملة واللطف والأدب الحميد والخلق الحسن، مستنصحاً في ذلك بنصيحة ربه، وذلك أنه طلب منه.

أولاً: العلة في خطيئته وما ادعى به، وعن تماديه موقظاً له من غفلته.

ثم ثنى ذلك بدعوته إلى الحق مترفقاً به، فلم يسم إياه بالجهل المطلق، ولا نفسه بالعلم الفائق، ولكنه قال إن معي طائفة من العلم وشيئاً منه، وذلك علم الدلالة على سلوك الطريق، فلا تستنكف، وهب أنى وإياك في مسير، وعندي معرفة بهداية الطريقة دونك، فاتبعني أنجك أن تضلّ.

ثم ثلث يثبطه عما كان عليه وينهاه فقال: إن الشيطان الذي استعصى على ربّه، هو عدوك وعدو أبيك آدم، وهو الذي ورطك في هذه الورطة وألقاك في هذه الضالة، وإنما ألغى إبراهيم ذكر معاداة الشيطان آدم ودينه بنصيحة أبيه لإمعانه في الإخلاص لم يذكر من جناية الشيطان إلا التي تختص بالله، وهي عصيانه واستكباره، ولم يكشف ذكر معاداة آدم وذريته.

ثم ربع بتخويف أباه سوء العاقبة، ولم يصرح بأن العقاب لاحق به ولكنه قال: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ﴾ فذكر العذاب ملاطفة لأبيه. وصدر كل نصيحة من هذه النصائح بقوله: يا أبت، توسلاً إليه واستعطافاً، وهذا بخلاف ما أجابه أبوه به فإنه قال: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ﴾، فأقبل عليه بفظاظة الكفر وغلظ العناد، فناداه باسمه، ولم يقابل قوله يا أبت بقول يا بني، وقدّم الخبر على المبتدأ في قوله أراغب أنت، لأنه كان أهم ما عنده، وفيه ضرب من التعجب

والإنكار لرغبة إبراهيم عن الآلهة»[1].

لقد قص القرآن على أمة الإسلام المثل العليا للجدل، وأوضح أصول الجدل التي يلزم أن تتبعها أمة الإسلام، ولتأخذ من أبي الأنبياء إبراهيم - عليه السلام - منهجها في مجادلة الخصوم المعتدلين المؤدبين في جداله لقومه مع أبيه: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ۝٤١﴾[2]. فحري بمن أراد أن يتعلم آداب المحاجّة وطرقها الفنية، أن يقرأ القرآن الكريم ويتدبره، ويديم النظر فيه.

4 - موقفه مع النمرود ملك زمانه

«ولقد أعطى القرآن الكريم صورة رائعة عن مناظرة الخليل إبراهيم - عليه السلام - مع الملك الجبار، الذي ادعى لنفسه الربوبية، فأبطل الخليل دليله، وبيّن له جهله وخفة عقله، وألجمه الحجّة» ساق القرآن الكريم تلك المناظرة في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِيمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٢٥٨﴾[3].

لقد أعطت الآية الكريمة صورة رائعة عن جدل عقلي بين إبراهيم والنمرود (الملك المتجبر) الذي ادعى الربوبية، فأبطل القرآن الكريم دعواه بالسؤال الموجه إليه: «إن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب»، لقد بينت الآية كذبه، فيما ادعاه، وبطلان ما سلكه

---

(1) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لابن الأثير، تحقيق أحمد الحوفي وآخرين، ج 2، ص 263، 264، ط 1، مطبعة نهضة مصر 1960 م.

(2) سورة مريم، الآية 41.

(3) سورة البقرة، الآية 258.

وتبجح به عند مواجهة قومه، ولم يعد له كلام يجيب به الخليل، بل انقطع وسكت»[1].

ولهذا قال تعالى: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٢٥٨﴾.

هكذا تحدى إبراهيم ـ عليه السلام ـ هيمنة السلطة في وقته، وهي السلطة الباغية، فكان نموذج المؤمن المناضل، الذي واجه معركة خطيرة مع نفسه ومع والده ومع الملك المتجبر ملك زمانه، ولم يأبه بالسفهاء حين حطم أصنامهم ومعبوداتهم، وحين أوقدوا النيران وقدموه إليها لم يهن ولم يجزع، فسلام على إبراهيم حقاً وصدقاً.

جدال شعيب ـ عليه السلام ـ لقومه ومحاجاته

كانت دعوة شعيب ـ عليه السلام ـ دعوة هادئة، كما جاء في سياق قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨٥ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٨٦﴾[2].

لقد دار الجدال بين شعيب ـ عليه السلام ـ وقومه حول النقاط التالية:

أ ـ عبادتهم الأيكة، وهي شجرة ـ عبادتهم الأَصنام.

---

(1) أنظر: قصص القرآن، محمد جاد المولى وآخرون، ص 48، ط 1، المكتبة التجارية الكبرى بمصر.
(2) سورة الأعراف، الآيتان من 85، 86.

ب ـ نقص وتطفيف الميزان.

ج ـ الفساد في الأرض.

دعاهم إلى توحيد الله، وترك ما يعبدونه من شجرة، وعبادة الأصنام. وسلك في دعوته أسلوب إخوانه الأنبياء السابقين، ونهاهم عن ظلم الناس، وإعطاء الناس حقوقهم كاملة، وعدم الإفساد في الأرض بعد إصلاحها: ﴿وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾﴾[1].

ثم ذكرهم بنعم الله التي أسبغها عليهم، وبيّن لهم عاقبة من خالف الأنبياء السابقين، لعل قلوبهم تلين. وسلك معهم من أساليب الوعظ والإرشاد ما سلك، آملاً في هدايتهم إلى الصواب. ويحكي القرآن الكريم أنهم كانوا قلّة في العدد، فأصبحوا كثرة: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ﴾ رغبة في أن يشكروا الله تعالى على ذلك، ثم حذرهم سوء العاقبة التي أصابت من قبلهم، وما حديث المؤتفكة عنهم ببعيد»[2]: ﴿وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

وكان مما يبعث على الأسى والحسرة في النفوس، أن يقف قوم شعيب ـ عليه السلام ـ من تلك الدعوة الكريمة، الهادفة إلى الخير والإصلاح، موقف السخرية والاستهزاء والتهكم والازدراء.

فلقد استخفوا بصلاته وعبادته، ووصفوه بالحلم والرشاد، تهكماً عليه وتهجماً على شخصه، وكأنهم يتهمونه بالسفه والحمق، إذ تجرأ على آلهتهم، ودعاهم إلى ترك العبادة التي ورثوها عن آبائهم: ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ

(1) سورة هود، الآيات 85 ـ 86.

(2) أنظر: تفسير المراغي، أحمد مصطفى المراغي، جـ 8، ص 212، ط 4، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، مصر.

أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾[1].

فأجابهم شعيب متلطفاً معهم، ومبيناً لهم عجزه أمام تعنتهم وتجبرهم، ومسلماً وجهه لله وحده، فهو إنما يبغي الإصلاح ولا يريد سواه، ولا يهدف إلا إلى ما يرضي الله، وهو سيلهمه التوفيق ويتوكل عليه ولا ينيب إلا إليه: ﴿قَالَ يَـٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَـٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾[2].

وبعد هذا الأسلوب الهادىء الذي ينطوي على ترغيبهم في عمل الخير، شرع شعيب ـ عليه السلام ـ في أسلوب الترهيب، يبصرهم عواقب المخالفة، والزيغ عن الحق والهدى، إلى الباطل والضلال، وقد ضرب لهم الأمثلة بما أصاب الأمم التي سبقتهم، حين ركبوا رؤوسهم، وعصوا رسلهم، واتبعوا أمر كل شيطان مريد: ﴿وَيَـٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَـٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ﴿٨٩﴾﴾[3].

ثم بيّن لهم أن رحمة الله واسعة، وأن باب التوبة مفتوح لكل قاصد، مهما كانت الخطيئة، فإن الله رحيم بعباده، فهو الغفور الودود، ويبسط يده بالمودة إلى الناس إذا تابوا إليه، مهما ارتكبوا من الآثام والموبقات العظام: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ﴿٩٠﴾﴾[4].

---

(1) سورة هود، الآية 87.
(2) سورة هود، الآية 88.
(3) سورة هود، الآية 89.
(4) سورة هود، الآية 90.

ومن العجب أن يصرَّ القوم على الباطل، بعد وضوح الحق، بما أدلى به نبيّ الله شعيب ـ عليه السلام ـ من الحجج والبينات، ويأبوا إلا الجحود والإنكار.

وإذ وجدوا أنفسهم قد ضاق عليهم الخناق، إدّعوا أنهم لا يفقهون كثيراً مما يقول، واتهموه بالضعف في منطقه، والقصور في بيانه. وخاصة عندما ألح عليهم في الدعوة والموعظة.

ولقد هدد القوم نبيهم شعيباً ـ عليه السلام ـ وتوعدوه بإخراجه من قريتهم، هو والذين آمنوا معه، إلا أن يعودوا في ملتهم. ووصل بهم الأمر إلى أن كانوا سيرجمونه بالحجارة، ليقضوا على دعوته، لولا خوفهم من رهطه وخاصته. وقد رد عليهم نبيّ الله شعيب ـ عليه السلام ـ موبخاً لهم على هذا السفه والحمق، وموجهاً إياهم إلى الحق: ﴿قَالُوا يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾﴾[1].

وعلى الرغم من كل النصائح والمواعظ والإنذارات، طلبوا منه، عناداً وجهلاً وسخرية وتحدياً، أن يسقط عليهم كسفاً من السماء، إن كان من الصادقين.

ولما تكشف لنبي الله شعيب ـ عليه السلام ـ سفه القوم، وتأكد له أنهم سائرون في غيّهم وعنادهم وطيشهم، ولم تنفعهم نصائحه، إستنصر بربه فحقت كلمة الله بالعذاب على من كفر من قومه، فأخذتهم

---

(1) سورة هود، الآيات 91 ـ 93.

الرجفة: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَاۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَانُواْ هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ ۝٩٢﴾[1].

وهكذا أسدل الستار على النهاية المريرة للقوم الذين أخذتهم الرجفة بظلمهم، كما أخذت قوم صالح، ولقد صدق فيهم وعيد الله: ﴿أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ ۝٩٥﴾.

قصة شعيب ـ عليه السلام ـ درس يعلِّم الصبر والإيمان، ويوضح كيف ينجي الله الذين آمنوا واتقوا بمفازتهم، لا يمسهم السوء، ولا هم يحزنون: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ۝٩٤﴾[2].

ومنها يرى المتدبر عاقبة الظلم، وكيف يدمر الله سعادتهم، ويذيقهم وبال أمرهم، وتلكم سنة الله أبداً مع البغاة الظالمين: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَانُواْ هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ ۝٩٢﴾[3].

ثم إن في الحوار الذي يدور بين شعيب وقومه، مماثلة لما حكته آيات عديدة لبعض ما كان يقع بين النبي محمد ﷺ والكفار من العرب، حيث ينطوي إظهار وحدة الطابع الذي يجمع بين الكفار، في مختلف الآراء، عبر مراحل الزمن.

وإضافة إلى ذلك، ما احتوته آيات القصة، من إنذار ووعيد وتأنيب وتطمين، قد انطوى على إنذار ووعيد للكافرين، وتطمين النبي محمد ﷺ.

---

(1) سورة الأعراف، الآية 92.
(2) سورة هود، الآية 94.
(3) سورة الأعراف، الآية 92.

حوار موسى ـ عليه السلام ـ لفرعون وقومه

ولقد كان لموسى ـ عليه السلام ـ مع فرعون العجب العجاب. لقد وقف موسى، وجهاً لوجه، مع فرعون المتجبر. وقبل أن يبدأ معه المواجهة، أرشده سبحانه إلى الأسلوب الذي ينبغي أن يسير عليه، ويتبعه في إقامة الحجّة، وإبلاغ الدعوة، فالموقف لا يتناسب أبداً مع أسلوب الشدة، لأنه لا يوصل إلى الغاية المطلوبة، وهو الإيمان بالله، بل ربما يزداد الموقف تعقيداً نتيجة التحدي وما يتبعها من ردات الفعل السيئة، لا سيما مع فرعون، الذي جنحت به مطامحه ونوازعه إلى أن ادعى الربوبية.

فلم يبقَ إلا أسلوب الرفق في المواجهة، واللين في القول، فهو الوسيلة الطبيعية للإيمان، والسبيل العملي الأقرب لربح الموقف. ويفهم ذلك من الآية الكريمة التي وردت لتوجيه موسى وهارون في رسالتهما الإلَهية التي انطلقا بها إلى فرعون: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ . . ﴾[1]، ولعله في بعثه رسولين إليه تكون أبلغ حجّة.

«وهذا من حلمه تعالى وكرمه ورأفته ورحمته بخلقه، مع علمه بكفر فرعون وعتوه وتجبره، وهو إذ ذاك أردأ خلقه. وقد بعث إليه صفوته من خلقه في ذلك الزمان، ومع هذا يأمرهما أن يدعواه بالتي هي أحسن، برفق ولين بألطف معاملة، رجاء أن يتذكر أو يخشى»[2].

فلا يمكن أن يترك فرعون في طغيانه، بل لا بد من إيقافه عند حده وإرجاعه إلى الصواب والجادة، ولكن أي أسلوب من الأساليب الذي

---

(1) سورة طه، الآيات 43 ـ 44.

(2) قصص الأنبياء، لابن كثير، تحقيق مصطفى عبد الواحد، جـ 2، ص 37، ط 1، مطبعة دار التأليف، مصر 1968 م.

يتبع في الهداية؟ هل هو أسلوب القوة والعنف؟ إنه لا يجدي ولا يتناسب مع روح الرسالة الإلَهية التي لا تلجأ إلى القوة والعنف، إلا بعد استنفاد الوسائل السلمية.

فربما يكون هذا الطغيان ناشئاً عن غفلة ونسيان، واستسلام للقوة المادية التي يتمتع بها، وضعف القوة الأخرى التي تسيطر على كل ما في الكون من قوى. ولذا، فلا بد للرسول الداعية، أن يثير لديه الذكر ليتذكر ويجعله، وجهاً لوجه، أمام القوة الإلَهية المطلقة. إذاً، فلا بد من القول اللين، لأنه يتيح للفكرة أن تحافظ على هدوئها، بعيداً عن جو الصخب والحماس والتحدي. وعلى الداعية أن يملك زمام نفسه، وأن يبتعد عن جو الإثارة والصخب، ويعطي المخاطبين مجال التأمل والتفكر دون أن يتعرضوا لهزة المفاجأة العنيفة التي تثير أعصابهم، وتتركهم يعيشون في إطار الذات الشخصية، بعيداً عن الفكرة والتفكير.

ومن هنا جاء التوجيه الإلَهي منسجماً مع الحكمة ومصراً على الموعظة الحسنة، كما في قوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾[1].

ومن خلال تتبع الحوار البناء، الذي دار بين موسى ـ عليه السلام ـ وفرعون الطاغية، تتضح شجاعة موسى، شجاعة المؤمن الواثق من نفسه وعقيدته، حيث يتحدى فرعون وقومه. وما لي أطيل الحديث، والقرآن الكريم يسوق ذلك الحوار بكل بساطة: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ

(1) سورة طه، الآية 44.

رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ
سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾
فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ
عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن
كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ
رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ
تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ
مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾[1].

ومن خلال معايشة الآيات التي حاورت فرعون وقومه، يتضح رد فرعون، حيث قال: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾. هذه هي الحجّة، وهذا هو الدليل: التهديد بأن يسلك موسى ـ عليه السلام ـ في عداد المسجونين، فليس السجن عليه ببعيد، وهو الإجراء الرادع عند الطغاة المتجبرين، وهذا هو العجز بعينه، وهو علامة الضعف الباطل أمام الحق الساطع، وتلك الطرق التي يسلكها الطغاة، فهو سبيلهم في القديم والحديث. ويرد نبي الله ـ عليه السلام ـ بأسلوب الأنبياء الوديع: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾؟ ولكن فرعون لا يفهم هذا الأسلوب، ويصر ويعاند قبل نهاية الجولة مع نبي الله موسى ـ عليه السلام ـ، ويبدو له وجهة نظر جديدة، يا ترى ما هي؟ يريد أن يتخلص من موسى ويستريح: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾[2].

وهو لا يعلم أن قتل موسى، لا ينهي النزاع والصراع بين الحق

---

(1) سورة الشعراء، الآيات 10 ـ 31.
(2) سورة غافر، الآية 26.

والباطل. ولعل من السخرية والهزل أن نقف أمام حجّة فرعون، وكيف أنه يريد قتل رسول الله الذي جاءه برسالة، نعم إنها كلمة كل طاغية بعينها، إنه الباطل الكالح الذي لا يقف في وجه الحق. ويلتجىء موسى ـ عليه السلام ـ إلى حظيرة الله وحصنه المنيع، الذي يلجأ إليها كل نبي: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾[1].

كما أن هناك حواراً عنيفاً وجدلاً حاداً، جرى بين موسى وفرعون. وآيات سورة غافر توضح ذلك الحوار: ﴿۞وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾[2].

ورغم ما ساقه نبيّ الله موسى ـ عليه السلام ـ من دلائل وحجج، لإقناع فرعون وقومه، إلا أن القوم عموا عن الحق، ولكنه واصل معهم المطاف، حتى كانت النهاية المحتومة، الغرق والطوفان: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِي هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾[3].

ساقت الآيات خطوات القصة قصة، موسى وفرعون، ونهاية القوم

---

(1) سورة غافر، الآية 27.
(2) سورة غافر، الآيات 41 ـ 44.
(3) سورة هود، الآيات 96 ـ 99.

المجرمين، حيث إن فرعون يقود القوم، كما يقود الراعي قطيع الغنم، فأوردهم النار، فبئس الورد المورود.

وهكذا يطوي القرآن الكريم صفحتهم السوداء، ويجعلهم ذكرى وعبرة لمن اعتبر.

إن ما ساقه القرآن الكريم من جدال وحوار وحجاج، دار بين موسى ـ عليه السلام ـ وقومه من بني إسرائيل وبين فرعون، في العديد من سوره، يعتبر من الدروس المستفادة المملوءة بالعظات والعبر، التي تضيء طريق الخير، وتهدي للتي هي أقوم.

درس يعلم الناس أصول الجدل وآداب المحاجّة، بالإضافة إلى الوقوف بكل شجاعة وكبرياء أمام الباطل وأعوانه.

تجلى ذلك واضحاً في مواقف كثيرة وقفها موسى ـ عليه السلام ـ مع القوم وزعمائهم، وخاصة موقفه من فرعون الطاغية، حينما عرض عليه كلمة الحق، ودعاه إلى الإيمان بالله، فلقد وقف صامداً أمام فرعون في كبريائه وغلوائه وبطشه وجبروته.

يتضح ذلك حينما قال لموسى ـ عليه السلام ـ: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسۡحُورٗا ١٠١﴾[1]. فأجابه موسى ـ عليه السلام ـ دون مبالاة واكتراث: ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا ١٠٢﴾[2].

ثم إنه من هذا الجدل، وضحت الحجّة، وكشف الله تعالى للظالمين طريق الهداية، حين لمسوا المعجزة الخارقة، التي أجراها الله على يد موسى ـ عليه السلام ـ أن الحق في جانبه، فأذعنوا وخضعوا

(1) سورة الإسراء، الآية 101.
(2) سورة الإسراء، الآية 102.

واستسلموا. يتجلى ذلك في موقف السحرة، بعد أن أبطل الله سحرهم، حيث ألقى موسى عصاه: ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١١٨﴾[1].

وهكذا ينصر الله أولياءه، ويحق الحق ويعلي لواءه، والله غالب على أمره.

هذه هي الحلقة الأخيرة في جدال الأنبياء والرسل لأقوامهم، ساقت إنذاراً لزعماء الكفار ومن اتبعهم. فإن هؤلاء الزعماء سيوردونهم النار، فبئس هي من مورد، وسيكون نصيبهم جميعاً لعنة في الدنيا والآخرة، وبئس ذلك النصيب.

﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ۝١٠٣﴾[2]، وإن في ذلك لعبرة.

خاتمة الرسل ـ عليهم السلام ـ

وهكذا نلمس من دعوات هؤلاء الرسل ـ عليهم السلام ـ وغيرهم ممن تعرض القرآن الكريم لذكرهم في أكثر من موضع، موقف الرسول الذي يسمو على الاضطهاد، ويرتفع على الظلم، فلا يثور، ولا يغضب عندما تفاجئه الشتائم، أو تلاحقه التهم، بل يتحدى ذلك بهدوء الرسالة، بخطوات متزنة ثابتة، لا تنحرف ولا تزيغ، وإنما تنطلق لتوجه ولتنصح، إخلاصاً لصفة الرسالة وانسجاماً مع روح التبليغ.

ولقد رسم القرآن الكريم صورة واضحة المعالم لمنهج الرسل جميعاً ـ عليهم السلام ـ، ومنهج كل الدعاة إلى الحق، في كل زمان ومكان.

---

(1) سورة الأعراف، الآية 118.
(2) سورة الإسراء، الآية 103.

فأتى بصورة هذا المنهج على لسان كل نبيّ، في عبارات لها وضوح العقيدة، وفصاحة الحق، فيها عبير النبوة وصفاء الروح، ولا تحتاج إلى خيال، وإنما تنبع من الواقع. إن رحلة الرسل ـ عليهم السلام ـ قد تتابعت حلقاتها المضيئة في حياة كل المجتمعات البشرية، ولم أسقِ من موكب الرسالات سوى بعض هذه الحلقات، لأن الرسالات الإلَهية ودعوة الرسل ـ عليهم السلام ـ واحدة، دعوة إلى عبادة الله وحده، ونبذ لعبادة غيره.

«إن الحقيقة الأساسية موضوع رسالات الرسل، هو توحيد الله، ونبذ كل صور الشرك، هذا هو المحور في القضية المطروحة من قبل الوحي الإلَهي على الفكر البشري. عبر تاريخه الطويل، ومن خلال تتبع صور الجدل والحوار الذي دار بين الأنبياء والمرسلين وأقوامهم، لن يجد المتتبع لتلك الصور العنف والشدة والغلظة، وإنما يجد بدلاً من ذلك اللين والتسامح والرفق أسلوب الحكمة والموعظة الحسنة والجدل بالتي هي أحسن في أكثر من موقف، وفي أكثر من آية، وليس غريباً، لأن الإنسان هو الإنسان، في كل زمان ومكان، في نوازعه وميوله، وفي مشاعره وأحاسيسه، فلن يختلف الخط العام للأسلوب الحكيم، الذي ينفذ إلى تلك المشاعر والأحاسيس، بل تختلف كيفياته وأشكاله، تبعاً للتطور الفكري والعقل الاجتماعي حسب التطور الزمني»[1].

لقد مضت الرسالات واحدة إثر واحدة، تأخذ بيد البشرية، وتمضي بها صعداً في الطريق على هدى ونور، والبشرية تشرد من هنا ومن هناك، وتحيد عن المنهج المرسوم، وتغفل عن حداء الرائد، وتنحرف في فترة ريثما يبعث لها رائد جديد، وفي كل مرة تنكشف لها الحقيقة في صورة مترقية تتناسب وتجاربها المتجددة، حتى إذا كانت الرسالة

---

(1) أنظر: بداري أبو العلاء علي حسن، الرائد إلى سليم العقائد، ط 1، ص 68، مطابع دار الكتاب العربي بمصر 1956 م.

الأخيرة، كان عهد الرشد العقلي، فجاءت الرسالة الأخيرة تخطب العقل البشري، لتتابع خطواتها في ظل تلك الخطوة النهائية. وكانت خطوط الحقيقة الكبرى من الوضوح، بحيث لا تحتاج بعد إلى رسالة جديدة.

وبعد، فإما أن تسير البشرية داخل هذاالنطاق الشامل، الذي يسعها دائماً ويسع عملها الدؤوب، ويصلها بالحقيقة التي لا تصل إليها من أي طريق غيره. وإما أن تشرد وتضل وتبتعد عن معالم الطريق.

الفصل الثالث

جدال ومحاجّة القرآن الكريم
عن عقيدة البعث والجزاء

المبحث الأول

جدال ومحاجّة القرآن الكريم عن أحقية البعث

الإيمان بالبعث والجزاء

إثبات حقيقة البعث

الإيمان بالبعث مظهر من مظاهر الإيمان، وغاية من غايات الرسائل الإلّهية. ولذلك نجد القرآن الكريم قد تحدث باستفاضة في بيان حقيقة البعث، ونبه العقول إليه، وما من موضع في القرآن الكريم إلا ذكر فيه البعث[1].

وقيام الدليل عليه بقياس قدرة الله تعالى، وأن من غير البعث تكون الحياة الدنيا عبثاً لا جدوى منها، كما قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾[2].

وكما في قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾[3].

---

(1) أنظر: الإيمان باليوم الآخر، د. التونجي عبد السلام، ص 77، ط 1، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية، طرابلس 1335 و.ر.

(2) سورة المؤمنون، الآية 115.

(3) سورة القيامة، الآيتان 36 ـ 40.

«وكفر الإنسان بهذا الركن من أركان الإيمان، يستلزم كفره بحكمة ربه وعدله في خلقه، وكفره بنعمته بخلقه في أحسن تقويم، وتفضيله على أهل عالمه الأرضي. ومن لوازم الكفر والجهل كله، إحتقاره لنفسه، باعتقاده أنه خلق عبثاً، لا لحكمة بالغة، وأن وجوده في الأرض موقوف محدد بهذا العمر القصير، المنغص بالهموم والمصائب والظلم.

وإذا كان هذا الجزاء غير مطرد في الدنيا لجميع الأفراد، تعين أن يكون جزاء الآخرة هو المظهر الأكبر للعدل العام»[1].

والمتتبع لآيات القرآن الكريم، يجد أن المجادلة في أمر البعث، وإنكاره مقترنان بالكفر، ومقترنان بإنكار الرسل ـ عليهم السلام ـ.

والقرآن الكريم يرد على المنكرين إنكارهم بمنطق العقل والحق. فالله الذي خلق السموات والأرض وما فيهما، هو الذي يملك الرزق، وهو الذي أنشأ الحياة والأحياء. وبقياس الغائب على الشاهد، يثبت، بلا ريب، أن القادر على الإنشاء قادر على الإعادة. وإن من آفة الإدراك وفساد التفكير، أن يحسبوا أن ثمة عائقاً يعوق المنشىء عن الإعادة، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وقد تتابعت الآيات متحدثة عن البعث في هذا اليوم الموصوف، مستدلة على إمكانه ووقوعه بما تقرّ به العقول السليمة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا

(1) تفسير القرآن الكريم الشهير بتفسير المنار، محمد رشيد رضا، جـ 11، ص 175، ط 3، نشر دار المعرفة، لبنان.

﴿يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥﴾[1].

كان هذا تقديم القرآن الكريم للبعث والحياة الأخروية، فاستدل بإمكان البعث بما يرى من شواهد الواقع الحسي في الأرض، التي تحيا بعد موت بإنزال المطر، وفي بقية الكائنات الحية، تخرج ويشاهدها الإنسان، أول وهلة، تبدو هامدة ميتة[2].

والقرآن الكريم قد حضّ على وجوب الإيمان باليوم الآخر، نظراً إلى أهمية هذا اليوم، وما فيه من حساب على أعمال الإنسان في هذه الحياة. فاليوم الآخر يبدأ فيه البعث، حين يعود الناس بأجسادهم وأرواحهم، كما جاء في سياق الآية السابقة. وفي هذا اليوم، يقع الحساب لتنكشف حقائق الناس، ويتميز الذين يعملون الصالحات من غيرهم، ليرى كل إنسان نتيجة عمله، هل رسب أم نجح. إذ ليس من المعقول أن يتساوى الناس، اقرأ قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٢١ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٢٢﴾[3].

وقوله: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ۝٢٨﴾[4].

فالإيمان باليوم الآخر، إذاً، من مقتضاه الإيمان بالحساب، والإيمان

---

(1) سورة الحج، الآية 5.
(2) أنظر: القرآن العظيم هدايته وإعجازه، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة 1966، ص 278، 279.
(3) سورة الجاثية، الآيتان 21، 22.
(4) سورة ص، الآية 28.

بالجنة والنار: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾[1].

وأمر إحياء الإنسان وبعثه، ليس أمراً مستحيلاً، فالله خلق الإنسان خلقاً بعد خلق، وطوره طوراً بعد طور، بدأ خلقه من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة، ثم جنيناً يتحرك في قرار مكين، ثم أخرجه طفلاً يتنسم نسيم الحياة، ثم سواه شاباً سوياً، ورباه حتى جعله شخصاً قوياً، يعمر منه من يعمر. فمن كانت هذه قدرته في نشأة الإنسان وأطوارها المشاهدة، لا يعجزه الإحياء بعد الموت ليجازي كلاً على ما فعل في هذه الدنيا.

وقد تكرر هذا اللون من الاستدلال على البعث، في سور القرآن الكريم، بصورة مختلفة في الإجمال والتفصيل، ليقيم تعالى الحجّة على أهل الإلحاد والمعاندين، وليوثق عُرى الإيمان في قلوب المؤمنين.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾[2].

وتوشك الآيات القرآنية في خلق الإنسان، أن تكون، في الغالب الأعم، موجهة إلى الاستدلال بهذه النشأة الأولى على إمكان النشأة الأخرى.

الدار الآخرة

«اقتضت حكمة العلي القدير، أن يجعل وراء هذه الحياة، حياة

---

(1) سورة غافر، الآية 27.

(2) سورة يس، الآيات 77 ـ 79.

أخرى، يرى فيها المرء جزاء عمله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾[1]».

وجاء القرآن الكريم لإقناع الناس بأن وراء هذه الدار دار أخرى غير هذه الدار.

وعناية القرآن الكريم بهذه القضية، لأنها أصل من أصول الصلاح في العالم، فلو أن الناس جميعاً استقرت فيهم عقيدة البعث، وآمنوا بها إيماناً لا يخامره شك، لاستقامت أمورهم في دنياهم، وكثر فيها الخير والإحسان، وقلّ بينهم الشر والفساد»[2].

فإقناع الناس بهذا اليوم القادم، من أصول السلوك السوي في الإسلام، فكما أن راكب القطار مؤمن بأنه سينزل في مكان قادم، فكذلك المسلم يعلم أن الأيام الجارية، ستقف به حتماً لترده إلى مولاه، حيث يلقى جزاء عمله، جزاء العمر، ويجني ثمرة ما فعلت يداه، ولا يظلم ربك أحداً.

ولكن الكثير من البشر، في كل عصر، تغلب عليهم الشقاوة، وتغرهم هذه الدنيا بزخارفها ومتاعها الزائل، وكثير منهم يعتريهم الشك في البعث ودار الجزاء، فلا يصدقون أنهم سيبعثون بعد الموت، وأنهم سيتعرضون للحساب.

البعث حقيقة لا شك فيها

ولقد أخبر الله تعالى بأن البعث للدار الآخرة، في يوم الجزاء، حقيقة مقررة في قضاء الله وقدره، ستوضع موضع التنفيذ، إذا جاء أجلها المحدد في علم الله. فالبعث أمر واقع لا محالة، وستحيا الخلائق بعد

---

(1) سورة الزلزلة، الآيتان 7 ـ 8.

(2) أنظر: مجلة الأزهر، مجلد 22، ص 589.

موتها، الذي قدره الله عليها، وليس ذلك ببعيد أو مستغرب في قدرة الله الذي خلق السموات والأرض، وخلقهنّ أكبر من خلق الإنسان، أوليس الذي ابتدع خلق الإنسان على غير مثال سبق، بقادرٍ على إعادته، بلى إنه لقادر: ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ۝٧﴾[1].

عقائد الناس ونظرتهم إلى البعث والجزاء

لقد أجمع أهل الشرائع وأهل الملل، بحسب أصولها الصحيحة، على أن البعث حق لا شك فيه، وذلك لأنه أمر جائز الوقوع عقلاً. وقد جاءت الأخبار الإلّهية الصريحة القاطعة في جميع الأديان، وأنزلها الله على جميع رسله ـ عليهم الصلاة والسلام ـ بأن البعث من الأمور المقتضية بقضاء الله وقدره، التي هي لا شك واقعة متى حان وقتها، والواجب يقتضي التسليم لأخبار الله تعالى، والإيمان بما تضمنته دون تردد أو تأويل، لأن الذي وضع الخطة هو أدرى بها، فما بالك، إن كان الذي وضع الخطة هو الله تعالى، لأن كل ما يجري في هذا الكون بإرادته وعلمه!

وحقيقة البعث لم تخفَ حتى عن المفكرين والفلاسفة من غير أهل الملل والشرائع، بعد أن اهتدوا إليها بالبحث والنظر والتمحيص، إذ اهتدوا إلى معرفة وجود الخالق العظيم، الذي بأمره يدبر هذا الكون الواسع الأرجاء. لقد اهتدى هؤلاء إلى حقيقة أن هناك حياة أخرى، غير هذه الحياة، يتم فيها عدل الله، لما لمسوه من الواقع المعيش، حيث شاهدوا كثيراً من الناس أخذت حقوقهم ظلماً وعدواناً من فئة قوية متجبرة، لم تلقَ من يردعها، ومات هؤلاء ولم يقتص منهم هؤلاء المظلومون.

---

(1) سورة الحج، الآية 7.

لكن رافق تصور هؤلاء لحقيقة الحياة الأخرى أوهام كثيرة، ذلك أنهم جروا في هذا التصور وراء محض الخيال، دون أن يتلقوا شيئاً من علم الغيب عن طريق الوحي الإلّهي.

ولقد أنكر هؤلاء البعث بمفهومه الصحيح، الوارد في القرآن الكريم، وفي كافة الشرائع الصحيحة.

ثم انقسم هؤلاء المفكرون إلى ثلاث فرق:

الفرقة الأولى: وهم الذين يجمعون بين إنكار الخالق وإنكار البعث. وهؤلاء تسموا بالدهريين، وليس لهؤلاء أدنى شبهة، فضلاً عن حجّة. حكى عنهم القرآن الكريم، قال: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾[1].

وهؤلاء أنكروا أمر البعث، بعد أن أنكروا وجود الخالق، الذي تضافرت كافة الأدلة عليه، فكل ذرة في هذا الكون، بما في ذلك من أدلة في أنفسهم، تشهد بوجود الخالق وقدرته.

الفرقة الثانية: وهم المعترفون بوجود الخالق، ولكنهم أشركوا به، وأنكروا البعث وحقيقته، وأغلبهم من الوثنيين ومن العرب المشركين في عصر البعثة. وليس لهؤلاء من حجّة، فقد استبعدوا واستغربوا البعث مطلقاً. ساق القرآن قولهم: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾﴾[2].

---

(1) سورة الجاثية، الآيات 24 ـ 26.
(2) سورة ق، الآيتان 2، 3.

الفرقة الثالثة: وهؤلاء يؤمنون بالخالق، ولا يشركون به أحداً. ولكنهم ينكرون أن يبعث الإنسان حياً بجسده، ويجازى على عمله في هذه الدنيا، لا لشيء، إلا لأنهم حكموا تصوراتهم الخاصة في أمور الغيب، دون أن ينظروا إلى الحقائق التي نادت بها الشرائع الصحيحة.

واستبعادهم أمر البعث الجسدي، ليس لهم فيه أي دليل، وإنما هو اعتماد على توهمات العقل، دون الحكم على ذلك، سلباً أو إيجاباً بشكل قاطع.

محاجّة منكري البعث

البعث يدخل في شمول العقيدة الإسلامية، التي تفرض على معتنقيها أن يؤمنوا بكل ما تحويه من حقائق ثابتة بنفسها، وهي ذات وجود واقعي لا شك فيها، لأنها أتت من باب الإخبار الذي لا يقبل النسخ أو الجدل. ولهذا وجب الإيمان بالبعث وما يترتب عليه. إذ الحقائق الذاتية لا تكون دائماً حسية، بل قد تكون غيبية وفي أعلى مراتب الإيمان، باعتبار هذا الإيمان يقوم على التسليم بوجود الله، بدلالات أفعاله في الأنفس والآفاق. ولهذا ادخر الله تعالى ثواباً عظيماً وأجراً ومغفرة للذين يؤمنون بالغيب: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝١٢﴾[1].

إن الإيمان بالغيب هو العتبة التي يتجاوزها الإنسان، حتى يتجاوز مرتبة الحيوان الذي لا يدرك إلا ما يراه حسياً. إن مراتب الإنسان أعلى من كل هذا، لماذا؟ لأن الوجود أكبر وأشمل من ذلك الحيز الضيق، الذي تدور في نطاقه حواس الإنسان.

---

(1) سورة الملك، الآية 12.

لقد كان الإيمان بالغيب هو مفرق الطريق في ارتقاء الإنسان الذي أكرمه الله على سائر خلقه، وأراده أن يكون خليفته في هذه الأرض.

فالإيمان بالغيب والبعث مترابطان تمام الارتباط، وهما من الحقائق الثابتة التي لها قيمتها في توجيه الإنسان.

لهذا أوجب الإسلام الإيمان بهما، دون أي مجادلة أو تبديل أو تعديل، لأنهما مسلّمات لا تقبل النقاش والجدل.

إن البعث والدار الآخرة حقيقة غيبية ثابتة، يترتب على معرفتها تقويم سلوك الناس جميعاً. إذ يعرف كل إنسان أنه سيبعث يوم القيامة، وسيحاسب على كل صغيرة وكبيرة. لهذا فقد اهتم القرآن الكريم باليوم الآخر، وتحدث عنه كثيراً.

ومن هذا المنطلق، جاء القرآن بالأدلة والبراهين، ليقيم الحجّة على منكري البعث.

المبحث الثاني

في مقام محاجّة منكري البعث

تعدد مواقف المنكرين

إن مرد منكري البعث يرجع في مفهومهم إلى الحالات الآتية:

المجموعة الأولى:

إستبعدت البعث لكونه أمراً لا تدعو إليه حاجة الناس، لما فيه من غرابة، وليس وراءه مصلحة ترجى.

المجموعة الثانية:

وهم الدهريون، لمقولتهم الفلسفية وخلاصتها، أن الكون وجد هكذا، أي بدون موجد.

المجموعة الثالثة:

وهم الذين أنكروا البعث لجاجاً ومكابرة وعناداً.

ولقد تتبع القرآن الكريم هؤلاء المنكرين للبعث، وردّ على كل فريق منهم بما يناسب إنكارهم لقضية البعث والجزاء.

اللون الأول من ألوان الإنكار لقضية البعث والجزاء

هذه هي المجموعة الأولى التي استبعدت الأمر لما فيه من غرابة، كما حكى عنهم القرآن الكريم: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ۝٣﴾[1].

إعتمدت هذه الفرقة، في إنكارها للبعث، على أنه من المستبعد حدوثه، لما فيه من غرابة، لأنه لم يعهد في هذه الحياة أن قام أحد من رمسه، وأنه تبعاً للأحاسيس المادية، لا تكاد عقولهم تصدق وتسلم بسهولة، على أن الجسم، بعد أن يتحلل ويحل به الفناء الكامل، تعود فيه الحياة ويصير حياً يسعى ويدرك.

وقد جاء في القرآن الكريم، على لسان هؤلاء قوله: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ۝٤٩﴾[2].

وقوله: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ۝١٠﴾[3].

كان رد القرآن الكريم على هؤلاء، الذين يستبعدون أمر البعث، أن الله لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وليس عليه شيء بمستبعد، إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون، فهو القوي القادر، خلق الإنسان وأنشأه من العدم، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ﴾[4]. وقوله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ۝٨٠ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن

---

(1) سورة ق، الآية 3.
(2) سورة الإسراء، الآية 49.
(3) سورة السجدة، الآية 10.
(4) سورة الروم، الآية 27.

يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾[1].

تناولت هذه الآيات الكريمة إثبات البعث والرد على من أنكره، في أبلغ صورة وأوفى حجّة، وقطعت على المنكرين سبيل الدفاع عن آرائهم الباطلة وحجّتهم الداحضة؛ فإن القادر على بدء الخلق، لا يعجزه أن يعيده؛ لأن الإعادة ليست بأصعب عند ذوي العقول من الابتداء. وقد زاد الله هذه الحجّة قوة ووضوحاً، فذكرهم بقدرته على إخراج النار مما ينبت من الماء، والماء والنار ضدان، فمن قدر على ذلك، فليس بمنكر عليه أن يعيد ما أفناه. ثم قوى هذه الحجّة وزادها شرحاً وبلغ بها غاية الإيضاح والتوكيد، بما نبه إليه من أن إعادة الناس بعد الموت ليست أصعب من خلق السموات والأرض ابتداءً، وفي ذلك يقول في آية أخرى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾[2]. ثم أثبت لنفسه القدرة المطلقة والإرادة النافذة: ﴿... إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾. ودل على أن كل المخلوقات ملكه، وأن مصير الناس إليه، بقوله: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾. فما ترك زيادة لمستزيد، ولا حجّة لمعاند مكابر.

هذا وقد أورد القرآن الكريم آيات تجاه المنكرين للبعث لغرابته، فضرب لهم الأمثلة الحسية في أنفسهم وفي الحياة الدنيا، إستناداً إلى أن الله لا يعجزه شيء، وأن بعث الإنسان يوم القيامة، هو بمثابة يقظته في الدنيا بعد منامه، وهذا التشبيه تقريب لأذهان الناس، فقال: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ

---

(1) سورة يس، الآيات 78 ـ 83.

(2) سورة غافر، الآية 57.

ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾[1].

كما ضرب أمثلة، حدثت فعلاً في أزمنة ماضية، وقد جرت فيها إعادة الحياة بعد الموت، منها:

1 ـ حادثة أهل الكهف: وكيف ضرب الله على آذانهم ثلاثة قرون وتزيد، ثم أعثر عليهم ليعلم الناس بشهادة الحس كيف يحيي الله الموتى، وفي ذلك يقول: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ﴾[2].

2 ـ «ومنها قصة العزير، الرجل الصالح من بني إسرائيل، الذي استبعد كيف يحيي الله الموتى فأراه الله كيف يبعثه هو نفسه، وشاهد مشاهدة حسية كيف أحياه الله بعد أن أماته»[3].

قال تعالى: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِا۟ئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾[4].

ثم إن القرآن الكريم، في الرد على هؤلاء، ومعالجة هذا الاستبعاد، يقول لهم ليست غفلتكم عن كثير من آيات الله التي تشاهدونها

---

(1) سورة الزمر، الآية 42.
(2) سورة الكهف، الآية 21.
(3) أنظر: شخصية المسلم كما يصورها القرآن، مصطفى عبد الواحد، ص 29، طبعة دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه.
(4) سورة البقرة، الآية 259.

بأعينكم، إلا لأنها صارت لديكم أموراً مألوفة لكثرة حدوثها وتكرار رؤيتها.

فهذه الأرض تكون ميتة، فينزل عليها المطر، فتدب فيها الحياة، وتنبت نباتاً حسناً، لقوله: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ۝١١﴾[2].

وهناك آيات كثيرة في الرد على منكري البعث، أساسها أن الله تعالى لا يعجزه شيء، فهو القوي القادر الذي خلق السموات والأرض، وأنشأ الإنسان من العدم، فكيف يصعب عليه أن يعيده!

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢٧﴾[3]. إلى غير ذلك من الآيات، وقد سبق ذكرها تذكرة بقدرة الله وتذكر بنشأة الخلق، ورداً على هذه الفرقة وغيرها لاستبعادهم أمر البعث والنشور وحقيقته.

اللون الثاني من جحود البعث وإنكاره، مبعثه نظرية فلسفية عميقة الجذور

اللون الثاني من ألوان التفكير المنكر للبعث، مبعثه نظرية فلسفية عميقة الجذور في التاريخ، خلاصتها أن الكون وجد مشتملاً على جميع العوامل التي تؤدي إلى تفاعله ذاتياً وتلقائياً، فليس هناك مؤثر فيه من

---

(1) سورة الحج، الآية 5.
(2) سورة ق، الآيات 9 ـ 11.
(3) سورة الروم، الآية 27.

خارجه، بل كل ما فيه هو منه بطبيعته، مهيأً للتزاوج والتوالد والتفاني ذاتياً. تبعاً لهذا يرى هؤلاء أن الموت يتم بفعل الزمن، وأنه نتيجة حتمية للتفاعل الذاتي، ومع ذلك، فهم يعترفون بأن الله هو الذي خلق هذا العالم، أو خلقه وتركه لمصيره وتفاعله الذاتي.

وإنما لا يتدخل في إنهائه، لأن أجل كل شيء في الحياة تابع لانتهاء طاقته، وتبعاً لصلاحيتها للبقاء، واستمرارها الحيوي، بحيث إذا انتهى هذا التفاعل انتهت معه، وتحقق الفناء تبعاً لذلك.

فأصحاب هذا الرأي، وهم الدهريون، أشار الله إليهم بقوله: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾[1]. وقال مشيراً إلى إنكارهم للبعث: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾﴾[2].

وقد رد عليهم القرآن الكريم بأبلغ حجة، في قوله: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾[3]. ثم قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾﴾[4].

---

(1) سورة الجاثية، الآية 24.
(2) سورة المؤمنون، الآية 37.
(3) سورة الإسراء، الآيات 50 ـ 52.
(4) سورة المؤمنون، الآيات 79 ـ 85.

فهؤلاء الدهريون ينكرون وجود مؤثر خارجي، ويرون أن الفناء يتم نتيجة للتفاعل بحكم الزمن. لهذا، لا يجدون مبرراً لوجود البعث، ما دام الفناء لا يتحقق بمؤثر خارجي. وتبعاً لهذا، ينكرون البعث والحكمة منه، واستطراداً ينتفي عندهم أن البعث حقيقة ثابتة لا بد منها. على أن القرآن الكريم يرد على هذا المفهوم بالحجّة القاطعة، مخاطباً الفطرة الإنسانية، فيعبر عنها بالحجّة والبرهان، تبعاً للبديهيات المعقولة، وعلى كافة المستويات، فلا يخص بالرد مستوى معيناً من العقول، فيقول: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾[1].

هذا وقد رد الله تعالى على هؤلاء المنكرين للبعث ببرهان عقلي وحجّة واقعية، إذ أشار سبحانه إلى أنه لم يخلق هذا الكون عبثاً ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـ، إنما خلق الكون بالحق، وكل إنسان مسؤول عما كسبت يداه. فقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٧﴾﴾[2]. وقوله: ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾[3].

وقال تعالى في شأن هؤلاء المنكرين للبعث: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾[4].

---

(1) سورة الواقعة، الآيات 45 ـ 50.
(2) سورة الأنبياء، الآيتان 16، 17.
(3) سورة الجاثية، الآية 22.
(4) سورة الجاثية، الآية 23.

فلقد اتخذ ـ هؤلاء المنكرون للبعث آلهتهم أهواءهم، وضلوا عن سبيل الله، فأنى لهم الهداية!

فهؤلاء المنكرون للبعث يتناف تفكيرهم وسلوكهم العقائدي مع المنطق السليم، وهم يجهلون الحقيقة، إذ ليس من المعقول أن يخلق الله الناس، ويتركهم إلى أنفسهم في تصرفاتهم، تبعاً لاختيارهم، دون الرجوع إلى مالك الملك لمحاسبتهم، وإلا كان خلقهم عبثاً.

اللون الثالث من ألوان الإنكار لقضية البعث والجزاء

هو إنكار المعاندين لجاجاً ومكابرة، بعد وضوح الحجّة، كون البعث أمراً لا تدعو إليه الحاجة، وليس وراءه مصلحة ترجى، ولا تقضي به حكمة. فيقول المنكر لا أصدق هذا ولا أقبله، مهما قيل فيه، أو يقسم على تعنته، أو ما إلى ذلك من ألوان الإنكار عن لجاج وعناد.

وموقف القرآن الكريم أن يجابههم بالدعوة ويكررها عليهم مرة بعد مرة، ويقسم عليها في مقابل قسمهم، ويصور لهم يوم القيامة وأهواله، كما لو كانوا يشاهدونه، تخويفاً لهم وإرهاباً.

وجاء رده على لسان المنكرين: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ۝٧﴾[1].

وتتمثل معاندة المنكرين في قسمهم بأن الله لا يبعث من يموت، وجاء رد القرآن الكريم على ذلك بقوله: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ بَلَىٰ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٣٨﴾[2].

---

(1) سورة التغابن، الآية 7.
(2) سورة النحل، الآية 38.

وقال واصفاً المنكرين بقوله: ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٢٢﴾[1].

على أن المنكرين إذا بقوا مصرين على تعنتهم في إنكارهم للبعث، فقد صور الله تعالى وصفهم وحالهم وندمهم وحيرتهم، وهم ناكسو رؤوسهم، يرجون الله، بعد أن شاهدوا العذاب واقعاً بهم يوم القيامة، أن يرجعهم ليعملوا صالحاً، ولكن حق عليهم القول وأنى لهم ذلك: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ۝١٢﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ۝٦٨﴾[3].. إلى غير ذلك من الآيات التي تصور أهوال النار، وحيرة الكفار، واعترافهم بعد رؤية العذاب عياناً.

«إن البعث حقيقة إلّهية، تدل على قدرة الله سبحانه وتعالى، فالقادر على خلق السموات والأرض وخلق هذا العالم بأسره من العدم، وخلق الإنسان من تراب، ثم من نطفة، قادر على بعثه، إذ ليس البعث أصعب من البداية. فإذا أنكر المفكرون ذلك، فإن إنكارهم يعد مكابرة ومعاندة، ولو رجعوا إلى أنفسهم قليلاً وتفكروا في خلق السموات والأرض وخلق أنفسهم، لوصلوا إلى يقين على أن الله قادر على بعث الناس وإعادتهم، كما خلقهم أول مرة»[4].

«إن جميع الاتجاهات الفكرية والشكوك والأوهام، التي راودت

---

(1) سورة النحل، الآية 22.

(2) سورة السجدة، الآية 12.

(3) سورة مريم، الآية 68.

(4) أنظر: الكشاف، للزمخشري، جزء 3، ص 433، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.

عقليات منكري البعث، تعتبر اتجاهات تافهة، لأنها تفقد أدنى حجّة. وقد تتبع ذلك القرآن الكريم، وسلك في مناقشاته لمنكري البعث والجزاء طريقة الاستقصاء والحصر، التي يحتمل أن تكون هي الشبهة في أفكارهم، ثم ردها واحدة فواحدة بالحجّة الدامغة إبطالاً «للباطل وإثباتاً للحق»[1].

إن ردود القرآن الكريم وحججه القاطعة على مزاعم منكري البعث والجزاء، وتصوراتهم وأوهامهم، واضحة لا تقبل اللبس. فلو قدر لمنكري البعث أن يقفوا قليلاً لديها، فينظروا في ملكوت السموات والأرض لرأوا هذا الكون وما يعج به من نبات وزرع، وإنسان وحيوان، وجبال وأنهار، وشموس وأقمار وعوالم فضائية، لا يعلم مداها إلا خالقها: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾﴾[2].

هذا هو الدليل الملزم، الذي يبسطه القرآن الكريم، رداً على المعاندين، وإقناعاً لهم إقناعاً هادئاً وفي طمأنينة وبأبلغ حجّة.

ثم بنقله هذه الأدلة الاستقرائية الملزمة إلى أدلة تاريخية، يعرفها المنكرون تمام المعرفة، وإفحامهم بالشاهد الصريح، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾[3].

وقبل هذا ساق القرآن الكريم دليلاً وقياساً عقلياً بيّن فيه استبعاد

---

(1) أنظر: العقيدة الإسلامية وأسسها، عبد الرحمن حسن حنبكة الميداني، ص 667، 668، ط 4، دار القلم، دمشق 1986 م.
(2) سورة النازعات، الآيتان 27، 32.
(3) سورة الصافات، الآيتان 137 ـ 138.

المنكرين للبعث وإعادة إلى مرة ثانية، وبيّن فيه أن قصورهم عن إدراك القدرة الإلّهية ناتج من قصورهم عن إدراك ذلك.

فإذا انتهى القرآن الكريم إلى ذلك، لا يترك قضية البعث والجزاء لتفهم من السياق، بل يحرص على الصراحة حين يسأل في تعجب: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ﴾[1]، وهو سؤال لا يمكن دفعه، إذ أن الخلق الأول حقيقة واقعة، يشهد لها وجود المنكرين بأجسادهم وأرواحهم. فإذا أنكروا، فلينظروا أنفسهم وهذا ما لا يستطاع، ويا له من إلزام يأخذ على المنكر منافذ إحساسهُ ومسارب تفكيره، فلا يجد غير السكوت المغيظ! وقد عز عليه أن يعترف بالواقع الصريح، ولا أجمل بعد ذلك، من التهكم بهم: ﴿بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ ۝١٥﴾[2].

هذا وقد ألِف القرآن الكريم أن يتحدث، عقب كل إقناع ملزم، عن البعث الأخروي، باعتباره حقيقة واقعة، لا تقبل الجدل أو المساومة، بعد اتضاح البراهين وقيام الأدلة. وحديث القرآن الكريم يتجه وجهة التصوير الواقعي لما سيكون صارفاً النظر عن إنكار المنكرين.

«وهكذا قدم القرآن الكريم عقيدة البعث والجزاء بكل بساطة، وأعلن أنها حقيقة ثابتة أوجدها الله لحكمة بالغة، وهي من عقائد الحق التي لا تقبل الشك، ولا يقبل الله فيها تأويلاً أو نقاشا، مما جعلها تتسرب إلى القلوب، بعد أن أزال عنها كافة الشبهات»[3]. واستطراداً، فلا بد من البعث لتحقيق الغاية المرجوة منها، وهي المجازاة على الأعمال، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى ۝٣١﴾[4].

---

(1) سورة ق، الآية 15.
(2) سورة ق، الآية 15.
(3) أنظر: مجلة الأزهر، مجلد 22، ص 591.
(4) سورة النجم، الآية 31.

عرض القرآن الكريم وتصويره للحياة الأخروية

لقد تحدث القرآن الكريم عن الحياة الأخروية وأعلامها ومشاهدها وصورها وأهوالها وعذابها ونعيمها، وأورده بأسلوب منسجم مع مفهوم السامعين ومألوفهم، ومتناول إدراكهم وحسهم، وخاصة العرب الذين كانوا أول المخاطبين به، وذلك لكي يقرب إليهم تلك الحقائق. واستهدف فيما استهدفه، إثارة الخوف والرهبة في نفوس الضالين، حتى يرعووا ويستقيموا، وبث الاغتباط والطمأنينة في نفوس المؤمنين، حتى يلتزموا الطريق السوي الذي اختاروه واهتدوا إليه.

حكمة هذا واضحة هي الأخرى، فالقصد القرآني، في أصله، هو دعوة الناس إلى الله وطريق الخير والهدى، وتحذيرهم من الضلال والانحراف والإثم، وإنذارهم وتبشيرهم بالحياة الأخرى، التي يلقى فيها كل إنسان جزاء عمله.

وهذا الأسلوب وسيلة من وسائل تأييد البعث وتدعيمه، لأن ما يراد إثارته في نفوس الناس، لا يتم إلا إذا جاء بالأوصاف المألوفة، والتي يحسونها ويدركونها.

فإن سياق القرآن الكريم وذكره لمشاهد يوم الحساب والجزاء الأخروي، وما فيه من نصب الموازين، ومجالس القضاء، والخصوم والشهود، والاتهام والمحاورات الدامغة، والكتب والوثائق المدونة، هو نقل مباشر من مشاهد الدنيا، ومن الواقع اليومي المعيش، لأن كل ذلك مألوف للسامع يستطيع إدراكه وفهمه.

ثم ما ذكره القرآن الكريم من أهوال يوم القيامة، ذلك الهول الذي يشمل الطبيعة بما فيها، كذكره الجبال تسير سير السحاب، وتارة أخرى تتفتت وتصبح كالعهن المنفوش، والشمس تتكور، وتارة أخرى تجمع مع القمر، بينما السماء تتبدل، والأرض تتجشأ وتدك، وتارة أخرى

تحمل السماء والأرض فتدكان دكة واحدة، وتارة السماء تنفطر وتتشقق، والكواكب تنذثر وتتكور وتنطفىء، والبحار تتفجر، والعشار تتعطل، والوحوش تحشر، وتصير في ذلك اليوم الولدان شيباً.

كل ذلك أهوال لا يمكن للسامع إلا أن يتأثر بها ويدرك أبعادها، ولا سيما تبدل مشاهد الكون المنظم مع عظمته.

ثم يعمد القرآن الكريم إلى ذكر أوصاف الجنة ونعيمها وأنهارها وسررها وفرشها المرفوعة، ومجالس الشراب الأنيقة، بما فيها من أنهار من لبن وعسل وخمر وظلال وقطوف دانية وولدان مخلدين، يطوفون بالكؤوس الممزوجة بالكافور والزنجبيل، وفواكه كثيرة، ولحم طير، وصحائف من ذهب وفضة، وثياب الحرير، وما إلى ذلك من أنواع النعيم المقيم، وهو ما تطمح إليه النفس البشرية التي شاهدت صور ذلك في الحياة الدنيا.

وإذا انتقل القرآن الكريم إلى ذكر العذاب، بما فيه من نار حامية تصهر الحديد، لهيبها كالجبال، طعام أهلها الزقوم، وشرابهم الحميم، فالسامع لا يمكن له أن ينكر ذلك الويل وذلك العذاب الأليم، لأن ذلك منتهى ما تهلع له القلوب وتنكره النفوس، وتتمنى لو بينها وبينه أمد بعيد، ولكن هيهات هيهات.

وحدث ولا حرج عن موقف الكافرين وحالهم المزري، ودفاعهم عن أنفسهم، وأعذارهم المتنوعة، وحوارهم لأنفسهم، وبين بعضهم البعض، وبينهم وبين الملائكة، أو بينهم وبين الله تعالى يعتذرون، وفي جملة أخرى لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً ذلك اليوم الحق.

إتضح، مما تقدم، أن الإيمان باليوم الآخر واجب، وأنه ركن من

أركان العقيدة التي أكدها القرآن الكريم، وأن حكمة الله في ذلك قائمة على مجازاة الناس على أعمالهم.

وهدف القرآن الكريم فيما جاء به من التعابير والأوصاف، هو العظة والتنبيه وإيقاظ الضمائر، ليرعوي الضال عن ضلاله، ويثبت المهتدي في طريقه، بأسلوب يتناسب مع إحساس المخاطبين وتجاربهم ومشاهداتهم ومداركهم وما ألِفوه.

كل ذلك يثير فيهم الرهبة من العاقبة، وأن ماهية هذه الحياة وحقيقتها مغيبتان، لا يستطاع فهم شيء عنهما، إلا بالأوصاف الدنيوية، وأن حكمة الله اقتضت وصفهما بهذه الأوصاف على سبيل التقريب. ولقد شغلت الحياة الأخروية ومشاهدها وأوصافها حيزاً كبيراً من القرآن الكريم، لأنها من المواضيع الرئيسية، بل أهم موضوع دار حوله الجدل بشدة.

الفصل الرابع

نصوص الجدل والمحاجّة
في القرآن الكريم
لأهل الكتاب

المبحث الأول

المحاجّة العامة لأهل الكتاب

الإسلام وعقائد أهل الكتاب

جاء الإسلام ليتولى تصحيح العقيدة في الله تعالى للبشرية، ولينقذها من كل انحراف وكل اختلاط.

جاء ليعلم البشرية جمعاء، أن دين الله واحد، مهما اختلفت الشرائع، وأن التوحيد رسالة كل نبي من أنبياء الله ـ عليهم السلام ـ، وما من نبي إلاّ جاء ليرسم طريق التوحيد، وأن الرسل تتابعوا من قبل، وذلك لنقل البشرية طوراً بعد طور، حتى إذا وصلت إلى طورها الأخير، جاءت رسالة محمد ﷺ.

«وهي خاتمة الرسالات، وهذا يحتم أن يوجد فيها من العناصر ما يجعلها تناسب كل زمان ومكان. ثم إن من عناصر هذه الرسالة أن تعترف بالرسالات السماوية السابقة، وبما جاء به هؤلاء الرسل من كتب، وذلك وضع طبيعي يجعل هذه الرسالات من عند الله تعالى، وتلك الكتب تعليمات منه، ما لم يمسها تحريف، فإذا جاءت الرسالة الأخيرة، فمن الطبيعي أن تحوي الرسالات السابقة وتزيد عليها»[1].

---

(1) مقارنة الأديان، د. أحمد شلبي، جـ 3، الإسلام، ص 109، ط 4، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1973 م.

وبما أن رسالة الإسلام آخر الرسالات، وهي ناسخة لما قبلها، فلا يجوز البقاء على الشرائع السابقة، ودعوة نبيّ الإسلام ـ عليه الصلاة والسلام ـ للمجتمع الإنساني أن يدين بدين واحد، وهو دين الإسلام الذي ارتضاه الله للبشرية جمعاء، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾[1].

والإسلام لا يكره أحداً على ترك معتقداته، ولا يرغمه على اعتناق الإسلام، لأنه لا إكراه في الدين، غير أنه لا يعترف بما عليه أهل الكتاب والمشركون من عقائد وخرافات، بل يصحح اعتقادات أهل الكتاب، كما جاء ليصحح عقائد المشركين والوثنيين سواء، ودعاهم إلى الإسلام جميعاً، لأنه الدين الذي ارتضاه لهم، ولا يقبل من أحد دين سواه: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾﴾[2].

ففي هذا النداء الرباني دعوة لأهل الكتاب للعودة إلى الإسلام، فالرسول مصدق لما معهم، وهو الإسلام، وإنهم في الوقت نفسه، مدعوون للإيمان بهذا الرسول ونصرته وتأييده، كما أخذ عليهم ميثاقه وسجل عليهم شهادته سبحانه بأن هذا النبي ﷺ رسول إليهم وإلى كافة الناس، فلا مجال لإنكار رسالته، لأنها من عند الله، ولا مجال للادعاء.

ثم إن ما قدموه أو ما يدعونه من حجّة من أنه طال عليهم الأمد ومرت عليهم أزمنة منذ آخر أنبيائهم، فنسوا وألبس عليهم الأمر قد سقط. فماذا ينتظرون بعد مجيء خاتم الأنبياء بالدين السوي؟ ومما ساقه القرآن الكريم يحوي الرد على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ

---

(1) سورة آل عمران، الآية 85.
(2) سورة المائدة، الآية 19.

عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾[1].

وبوقفة قليلة عند قوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾[2]، تبين أن الله تعالى دعا أهل الكتاب إلى الإيمان بهذا الرسول، والدخول في دين الله، لعموم رسالته، وكان الأولى أن يجيبوا دعوته، لأنهم كانوا يستفتحون على الذين كفروا بنبي قد جاء وقته، وهو ما حكاه عنهم القرآن: ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾[3].

وهذا الرد توبيخ من الله تعالى لأهل الكتاب، الذين أخذ الله عليهم العهد على ألسنة الأنبياء أن يؤمنوا بمحمد ﷺ، ولكنهم كتموا ذلك، ولهذا استحقوا اللعنة. مع أن هذا الرسول جاءهم رسولاً من عند الله، مصدقاً لما معهم من التوراة والإنجيل.

ولقد كان أهل الكتاب اليهود يدعون الإيمان بأنبيائهم، وينكرون رسالة عيسى ـ عليه السلام ـ ورسالة محمد ﷺ، كما أن النصارى يكتفون بإيمانهم بعيسى ـ عليه السلام ـ، فضلاً عن تأليهه، وينكرون رسالة محمد ﷺ كذلك.

وكان القرآن الكريم ينكر على هؤلاء وهؤلاء، ويقرر التصور الإسلامي الشامل عن الإيمان بالله ورسله، بدون تفريق، لقوله تعالى: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾﴾[4].

---

(1) سورة البقرة، الاية 101.
(2) سورة الأعراف، الآية 158.
(3) سورة البقرة، الآية 89.
(4) سورة آل عمران، الآية 84.

إن التوحيد المطلق لله سبحانه، يقتضي توحيد دينه الذي أرسل به الرسل للبشر، وتوحيد رسله الذين حملوا هذه الأمانة للناس، وكل كفر بوحدة الرسل هو كفر بوحدانية الله في الحقيقة.

لقد وصف الله تعالى أهل الكتاب يهود ونصارى بأنهم يحرفون الكلم عن مواضعه، وبأنهم نسوا حظاً مما ذكروا به، وبأنهم يبدون من كتبهم شيئاً، ويخفون كثيراً: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾[1].

وقوله على النصارى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾﴾[2].

ولهذا قال تعالى، محتجاً على أهل الكتاب: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ...﴾ الآية

ففي هذه الآية خطاب لهم بأن يقيموا التوراة والإنجيل، مضافاً إليهما ما أنزل الله إليهم من قبل، لقد نقض اليهود ميثاقهم مع الله، فقتلوا أنبياءه بغير حق، وبيتوا القتل العمد والصلب لعيسى ـ عليه السلام ـ، وهو آخر أنبيائهم، وحرقوا كتابهم التوراة، ونسوا شرائعها، ووقفوا من خاتم رسل الله محمد ﷺ موقفاً معادياً، وخانوه وخانوا مواثيقهم معه فباؤوا بالطرد من رحمة الله، ولهذا وصفهم الله بقسوة القلوب.

ولقد أخفى النصارى الأساس الأول لدين التوحيد، وأخفى اليهود

---

(1) سورة المائدة، الآية 13.
(2) سورة المائدة، الآية 14.

كثيراً من أحكام الشريعة، كما أخفوا جميعاً خبر بعثة محمد ﷺ.

لقد استعرض القرآن الكريم مواقف أهل الكتاب من مواثيقهم، واستعرض ما حل بهم من العقاب نتيجة لنقضهم لهذه المواثيق، وهو كشف لما وقع في عقائد اليهود والنصارى من انحراف، نتيجة نقضهم لهذه المواثيق التي عاهدوا الله فيها على توحيده، والإسلام له، في مقابل النعم التي أسبغها عليهم، ظاهرة وباطنة، ولجحودهم ذلك باؤوا باللعنة والفرقة والتشريد.

آيات متعددة في القرآن الكريم، جاءت تصرح بأن الله أخذ عليهم العهد في كتبهم، بأن يؤمنوا بمحمد ﷺ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، وهو ما حواه القرآن الكريم. ولما جاء هذا النبي، وتحقق الوعد، جحدوا نبوته، وتركوا ما ألزمهم به كتابهم، ونقضوا العهود التي أخذت عليهم بوجوب تصديقه، والإيمان بما جاء به، وكفروا بالقرآن الكريم، وقالوا ما أنزل الله على بشر من شيء من هذه الآيات: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ١٨٧﴾[1].

الآية تحمل توبيخاً «وتهديداً لأهل الكتاب، الذين أخذ الله عليهم العهد على ألسنة الأنبياء، أن يؤمنوا بمحمد ﷺ وأن ينوهوا بذكره في الناس، فيكونوا على أهمية من أمره، فإذا أرسله الله فاتبعوه، فكتموا ذلك، وتعوضوا عما وعدوا عليه من الخير في الدنيا والآخرة بالدون الطفيف، والحظ الدنيوي السخيف، فبئست الصفة صفتهم، وبئست البيعة بيعتهم»[2].

---

(1) سورة آل عمران، الآية 187.

(2) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، جـ 1، ص 436، طبعة دار المعرفة، بيروت، لبنان 1980 م.

إستشهدت بهذه الآية كدليل على نكث أهل الكتاب، وخاصة اليهود لعهودهم ومواثيقهم التي لم يراعوها، والتي أخذها الله عليهم، وكانوا قد أقروا بذلك، ولكنهم كعادتهم نقضوها وخالفوها.

تتابعت مزاعم أهل الكتاب يسوقها القرآن الكريم ويستعرضها، ليكشف للجماعة المسلمة طبيعة هؤلاء المبطلين، والتي من بينها أن الجنة وقف عليهم، وقف لهم القرآن الكريم بالمرصاد ليحاجهم هؤلاء، ليبطل دعواهم، بما يخرس مدعاهم، وساق بطلان أن الجنة مخصصة لهم دون غيرهم: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾[1].

أثبتت الآيات أن مزاعم هؤلاء من قبيل الأماني والأوهام، وأكدت انتفاء أدنى برهان أو دليل على ما يدعون. ثم أصدر الله حكمه العام، وهي أن الجنة ليست خاصة بطبقة دون أخرى، وإنما لكل من أسلم وجهه لله وهو محسن، ولهذا قال لهم تمنوا الموت إن كنتم صادقين: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾﴾[2]. ثم عقب: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾﴾[3].

أما قولهم كما يحكيه القرآن الكريم عنهم: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۚ﴾[4].

(1) سورة البقرة، الآيتان 111 و112.
(2) سورة البقرة، الآية 94.
(3) سورة البقرة، الآية 95.
(4) سورة المائدة، الآية 18.

فقد رد القرآن الكريم على هذا التصور، وما يترتب عليه من خلل وفساد في الحياة، والذي يتنافى مع عدل الله فوق هذه الأرض. إن الله لا يحابي أحداً، لا فرق بين عربي وعجمي، إلا بالتقوى والعمل الصالح، وأوضح لهم أن قولهم هذا، لا أساس له من الصحة قطعاً، ولهذا أفحمهم بالحجّة: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾[1]. فإن صح أنكم أبناء الله فلم تذنبون؟

لقد أكد القرآن الكريم المسيرة لهذا الكون المنظم، وقرر أن عقيدة الإيمان تتنافى وهذا الادعاء الذي ادعوه، وأن عدل الله نافذ في ضوء مشئيته التي تقرر الغفران بأسبابه، وتقرر العذاب بأسبابه، لا بسبب بنوة أو صلة قرابة وما إليها.

إن هذا البيان الموجه إلى أهل الكتاب، رداً على دعواهم، ليقطع حججهم الواهية، وبهذا يكون قد دحض حجج أهل الكتاب.

وقد سجل القرآن الكريم كثيراً من العقائد الفاسدة والأقاويل الباطلة، التي رددها أهل الكتاب. ومن ذلك ما ذكر عن اليهود أنهم قالوا عزير ابن الله، وعن النصارى قولهم المسيح ابن الله، وأن الفريقين قد اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله تعالى، وأنهم بهذا أرادوا إطفاء نور الله بأفواههم. ولقد رد القرآن الكريم جملة وتفصيلاً ما حكاه هؤلاء من انحراف في أصل العقيدة، والقول بما يبطل مزاعمهم، ويثبت جهلهم وضلالهم، ويبشر بأن العاقبة للمتقين: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا

---

(1) سورة المائدة، الآية 18.

يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾[1].

ولقد أنذرهم إذ نسبوا له الولد، بالعقاب الشديد في قوله: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِـَٔابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾﴾[2].

لقد أورد الله تعالى تقريراً وبياناً لحقيقة ما عليه أهل الكتاب من الكفر والشرك، ثم أخذ في كشف المنهج الفاسد الذي يتخذونه للحكم في أكبر القضايا وأخطرها، ألا وهي قضية العقيدة، والله لم يعبأ بقول هؤلاء الذين يصرفون أنفسهم عن إتباع الحق بعد قيام البرهان، ولما كان قولهم «قول ساذج، ليس فيه بيان ولا برهان، إنما هو بالفم لا معنى تحته، لأنهم معترفون بأن الله سبحانه لم يتخذ صاحبة، فكيف يزعمون أن له ولداً، فهو كذب وقول لساني يخالف الأقوال التي تعضدها الأدلة ويقوم عليها البرهان»[3].

لقد حكّى القرآن الكريم ما تقوله أهل الكتاب على مريم البتول وعيسى ـ عليه السلام ـ بما يميط اللثام على تقولهم وبهتانهم بأبلغ حجّة، وبما يدحضه ويعلي من شأن مريم التي ﴿... وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَـٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَـٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾[4]. وابنها عيسى ـ عليه السلام ـ: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَـٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ

---

(1) سورة التوبة، الآيات 30 ـ 32.

(2) سورة الكهف، الآيتان 4، 5.

(3) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، جـ 8، ص 118، ط 2، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان، سنة 1397 هـ، 1952 م.

(4) سورة التحريم، الآية 12.

﴿إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾[1].

وبعد كل النداءات، ينتهي البيان الموجه إلى أهل الكتاب ببطلان حججهم ومعذرتهم، لأنه واصل معهم المواجهة حتى نهاية المطاف، حتى أوقفهم، وجهاً لوجه، أمام الحقائق السافرة وأمام المصير الذي ينتظرهم، إن هم استمروا في عنادهم وكفرهم حتى لا تعود لهم حجّة من الحجج، بل حتى شبهة.

لقد كشف القرآن الكريم انحرافات أهل الكتاب عن دين الله الصحيح الذي جاءتهم به رسلهم من قبل، وأبطل حجتهم وموقفهم المعادي مع خاتم رسل الله محمد ﷺ، ولم يبقِ لهم عذراً أو شبهة إلى يوم القيامة، واستبان أمرهم أمام الصف المسلم، فهم مطالبون بالرجوع، والدخول في هذا الدين، وإلا فهم كافرون.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾[2].

(1) سورة النساء، الآيات 155 ـ 157.
(2) سورة آل عمران، الآية 64.

المبحث الثاني

جدال أهل الكتاب
ومحاجتهم اليهود

لم يشهد تاريخ أمة ما شهده تاريخ بني إسرائيل، من فساد وجحود واعتداء وتنكر لرسل الله. ولقد سجلت عليهم الكتب السماوية قتل عدد من أنبيائهم، وهو أبشع فعلة تصدر عن أمة مع دعاة الحق والسلام، ويعتبر عملهم هذا أشنع وأبشع معصية. وكان لهم في كل ميدان أفاعيل ليست بعدها أفاعيل. إذ أن أعمالهم يندى لها الجبين، ولهذا كتب الله عليهم الذل والمسكنة في هذه الدنيا، وتوعدهم بعذاب شديد يوم القيامة.

ومع هذا كانوا دائماً يدعون أنهم وحدهم متبعو الصواب... وحدهم شعب الله المختار.

وينفي القرآن الكريم دعاوى اليهود، ويحكي محاجته لهم بعد تعريتهم وتكذيبهم، ويقرر قاعدة من قواعده العامة التي تتخلل القصص القرآني، ويقرر قاعدة وحدة الإيمان ووحدة العقيدة، وأن فضل الله ليس حكراً على مجموعة دون أخرى، كل حسب إيمانه أو كفره أو دينه الذي عليه، حتى إقبال رسالة جديدة.

وجاءت رسالة الإسلام، يحملها محمد بن عبد الله ﷺ إلى العرب

لتردهم إلى الدين القيم. وجاءت أيضاً إلى اليهود، الذين بدلوا وحرفوا وأخفوا التوراة، التي جاءهم بها موسى ـ عليه السلام ـ لتردهم إلى الصواب.

والقرآن الكريم يدعو بني إسرائيل إلى الدخول في الدين الجديد، الذي يعتبر آخر رسالة سماوية.

لقد كشف القرآن الكريم عن عقيدة اليهود الأصلية، التي حملها إليهم رسلهم، فإذا هي خالية من كل تحريف أو زيف، لأنها عقيدة ارتضاها الله تعالى للبشرية جمعاء، ولهذا قال لرسوله: ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ ﴾[1].

وهكذا كانت العقيدة التي نادى بها أنبياؤهم خالية من كل ما يشوبها، كانت ذات فكرة واضحة، ولكن بني إسرائيل، ومع مرور الأيام، ثاروا في وجه أنبيائهم، ورفضوا الاستجابة، واستبد بهم الضلال والجحود، وغلبت عليهم الشقاوة، مما جعلهم يهاجمون أنبياءهم ويقتلونهم أحياناً. واتجهوا إلى عبادة غير الله، وإنكار البعث، ونسبوا إلى أنبيائهم ما لا يمكن أن يصدر عن أنبياء.

لهذا، ليس اليهود على شيء مما جاءهم به رسلهم، وخاصة رسولهم موسى ـ عليه السلام ـ والتوراة.

ولقد سبق الحديث عن دعوة الرسول ﷺ اليهود إلى الدخول في هذه الشريعة التي جاء يحملها، وطبيعي أن يدعوهم، وخاصة لأنهم غيروا وبدلوا وأخفوا. كما أوصى الله نبيه أن يتدرج معهم، ويترفق في

---

(1) سورة النساء، الآية 163.

المجادلة والمحاورة والاحتكام إلى التوراة نفسها، إن كانت لديهم النية الصادقة في الوصول إلى الحقيقة، في ما يجادلون فيه: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٣﴾﴾[1].

إن إخفاء أو تحريف النص الأصلي، الذي ترجع إليه أصول العقيدة، والذي يعتمد المؤمنون في إيمانهم عليه، ليس بالأمر الهين. لهذا، جاء القرآن الكريم ليعلن ويعتبر أن اليهود قد انتهى دورهم في حمل أمانة الله، ولهذا وصفهم تعالى بقوله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ۚ بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥﴾﴾[2].

فبنو إسرائيل حملوا التوراة، وكلفوا أمانة العقيدة والشريعة، ولكنهم لم يقدروا هذه المنة، ولم يراعوا ولم يعملوا بما جاءت به من توجيهات وتعليمات، ومن ثم كانوا كالحمار الذي يحمل الكتب، ليس له منها إلا ثقلها.

ورغم كل زعمهم، أنهم شعب الله المختار، وأنهم أولياء الله من دون الناس، وأن غيرهم ليس على شيء، ومن ثم فهم غير مطالبين بمراعاة أحكام دينهم مع غيرهم من الأميين: ﴿قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾[3] إلى آخر هذه الدعاوى التي تفتري الكذب على الله، بلا دليل، فإن دعوتهم إلى المباهلة كانت أمراً ضرورياً، والتي تكررت معهم ومع النصارى والمشركين.

«وردت آيات كثيرة تدين وتصب اللعنة على من كفر من بني إسرائيل، وتندد بأعمالهم اللاأخلاقية، سواء من كان منهم في عهد

---

(1) سورة آل عمران، الآية 93.
(2) سورة الجمعة، الآية 5.
(3) سورة آل عمران، الآية 75.

النبي ﷺ، أو من كان قبله. والقرآن ينقل إلينا أخبارهم من ذلك العهد القديم، ويندد بأعمالهم وما حل بهم من العذاب والتنكيل والمسخ، وكانوا يستحقونه، وفي كل حقبة من تاريخهم الطويل الذي لم يذوقوا فيه طعم الاستقرار»[1].

نقض اليهود الميثاق

ذكر تعالى كيف أنه أخذ الميثاق على بني إسرائيل، أن يعبدوه، ويطيعوه، وألا يقولوا على الله إلا الحق، إلا أنهم نقضوا ذلك العهد. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾[2].

«ذكر تعالى ما صدر عن بني إسرائيل من الخيانة، ونقض الميثاق، وما أدى إليه ذلك من التبعات ـ لتقرير المؤمنين على ذكر نعمة الله تعالى، ومراعاة حق الميثاق الذي أوثقهم به، وتحذيرهم من نقضه، أو لتقرير على ما ذكر من الهم والبطش، وتحقيق بيان على أن الغدر والخيانة عادة قديمة توارثوها»[3].

---

(1) أنظر: اليهود في القرآن، عفيف طبارة، ص 57، ط 6، دار العلم للملايين، بيروت 1978 م.

(2) سورة المائدة، الآيتان 12 و13.

(3) تفسير أبي السعود محمد بن محمد العمادي، جـ 2، ص 10، 11، مطبعة محمد علي صبيح.

لقد نقض اليهود ميثاقهم مع الله بفعل تلك الأفعال التي صدرت عنهم، وقد أشرت إليها مسبقاً. ولهذا، وصفهم الله بقساوة القلوب، فهي كالحجارة، لا ترق على الرغم مما جاءتهم به الرسل من البينات.

إن استعراض القرآن الكريم لتاريخ بني إسرائيل، الحافل بالكبر والتكذيب والالتواء واللجاجة والكيد والدس التمزق والفسوق، إنه لاستعراض يقرر ما انتهت إليه قلوبهم في نهاية المطاف من قسوة وجفاف وجدب، أشد من قسوة الحجارة وجفافها وجدبها.

إن وصف اليهود بمثل هذا الوصف الذي ساقه القرآن الكريم، يدل على أنهم قد وصلوا إلى الهاوية، حيث لا ينتظر منهم إصلاح وميؤوس منهم إلى الأبد، فلهذا وصفهم بهذا الوصف الذي يليق بهم، فقد هبطوا من سمو الروح الإنسانية إلى رتبة الجمادات، بل إلى ما دون ذلك، ووصلوا إلى أن عبدوا عجلاً. ولهذا قال عنهم تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾﴾[1].

«إن صفة نقض العهود من الصفات التي ذكر القرآن الكريم بها اليهود، في كثير من آياته، والمتتبع لتاريخهم قديماً وحديثاً، يرى أن هذه الرذيلة تكاد تكون طبيعة ملازمة لهم، والقرآن الكريم يذكرنا، في كثير من آياته، بأن الله تعالى قد أخذ عليهم كثيراً من المواثيق على لسان أنبيائه ورسله، ولكنهم نقضوها، والرسول ﷺ عاهدهم غير مرة، فكانوا ينقضون عهدهم معه كعادتهم في كل مرة، وآيات كثيرة في القرآن الكريم، صرحت بأن اليهود قد نقضوا ـ إلا قليلاً منهم ـ العهود التي أخذها الله تعالى عليهم، كما صرحت به الآيات»[2].

---

(1) سورة الأعراف، الآية 148.

(2) محمد عبده، تفسير المنار، جـ 1، ص 307، 310، ط 1، طبعة الهيئة العامة المصرية للكتاب.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾[1].

ولقد استهجن القرآن الكريم ما صدر عن بني إسرائيل من قتل أنبيائهم، وما اقترفوا من إجرام في حق البشرية، وفي حق النفس الإنسانية التي كرمها الله. وفي ذلك يقول: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾[2].

ففي هذه الآية وعيد لبني إسرائيل لاستباحتهم القتل، وإسرافهم في الفساد، كما قال في الآية نفسها: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾[3]. أليس هذا مما يعكس نفسية اليهود الغادرة الحاقدة، المتعطشة إلى الدماء في كل عصر؟

رذائل اليهود

وساق القرآن الكريم بعضاً من رذائل اليهود، التي منها طعنهم في الدين، وإلحافهم في المسألة، ومحاولتهم تضييق ما وسعه الله عليهم، وتهربهم من الحق، وتشكيكهم في صدق ما جاءتهم به أنبياؤهم، وتعنتهم إما للهروب عندما يبين الحق، أو لانطماس بصيرتهم عن فهم مقاصد الشريعة.

---

(1) سورة البقرة، الآيات 84 ـ 86.
(2) سورة المائدة، الآية 32.
(3) سورة المائدة، الآية 32.

ولعل قصة أمرهم بذبح البقرة، على لسان نبيهم موسى ـ عليه السلام ـ خير دليل على تعنتهم وإلحافهم في المسألة. قال تعالى: ﴿وَإِذْ
قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ
٦٧ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ
فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ٦٨ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا
تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ٦٩ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ
لَمُهْتَدُونَ ٧٠ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ
فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ٧١﴾[1].

«أمر بسيط لهؤلاء القوم، إن الله يأمركم بذبح بقرة، وكان المفروض ذبح أي بقرة، غير أنهم بدأوا مفاوضاتهم باللجاجة كعادتهم، واتهموا نبيّ الله موسى ـ عليه السلام ـ بأنه يسخر منهم. ثم أفهمهم أن حل القضية يكمن في ذبح بقرة، وبيّن لهم أنه صادق فيما قاله لهم، غير أنهم يتكلفون. ويعودون إلى المراوغة واللجاجة والالتواء، ويتساءلون أهي بقرة عادية من جنس البقر المعروف أم من جنس آخر؟ فليدع لنا موسى ربه ليبين لنا ما هي. ويدعو موسى ـ عليه السلام ـ ربه، فيزداد التشديد والتضييق عليهم، وتحدد وصف البقرة أكثر من ذي قبل، بأنها بقرة وسط. وإلى هنا كان ينبغي أن ينتهي بهم الأمر، غير أن جدالهم مستمر، ومراوغتهم، هي التي أدت بهم إلى حوار تكلفي، وأجهدوا نبيهم في أمر بسيط للغاية.

وهكذا حددت البقرة بأنها صفراء، فاقع لونها، تسر الناظرين. ورغم وضوح الأمر، فقد عادوا إلى اللجاجة والمراوغة، فشدد الله عليهم، كما شددوا على نبيه وآذوه. عادوا يسألون موسى ـ عليه السلام

---

(1) سورة البقرة، الآيات 67 ـ 71.

ـ أن يدعو الله ليبين لهم ما هي، لأن البقر تشابه عليهم. وأوضح لهم أنها بقرة لا تثير الأرض ولا تسقي الزرع، وسلمت من العيوب، لونها أصفر.

لقد بلغ القوم في اللجاجة نهاية المطاف، وهكذا بدأ البحث عن بقرة بها جملة من هذه الأوصاف الخاصة»[1].

«وهذه الأوصاف في البقرة تشديد عليهم، لأنهم شددوا، فشدد الله عليهم، ودين الله يسر»[2]. إن جو السياق في الآيات، والذي يحكي قصة البقرة، يكشف عن لجاجة القوم وتعنتهم، وما يحويه من ظلمهم، حتى وجدوا هذه البقرة بعد جهد جهيد، وكادوا لا يفعلون.

يوحي بتعنتهم وتسويفهم ومماراتهم ولجاجاتهم في الحق، إنها لدرس نستشف منه مواقف بني إسرائيل المخزية، وهو غير دليل يشير إلى رذائل بني إسرائيل وما هم عليه من فسوق عن أمر ربهم.

دعاوى اليهود الباطلة

ثم إن لليهود دعاوى باطلة، تعرض لها القرآن الكريم، ورد عليها بما يخرس ألسنتهم ويقطع حجتهم، ويميط اللثام عن أكاذيبهم، ويكشف ما خفي من نياتهم ومخازيهم.

ومن دعاواهم زعمهم أن النار لن تمسهم إلاّ أياماً معدودات، ودعواهم الإيمان بما أنزل الله عليهم. ودعواهم أن الهدى في اتباع سبيلهم، وزعمهم أن الجنة وقف عليهم دون غيرهم، وأنهم أبناء الله وأحباؤه، وأن ذونبهم مغفورة لهم. وقولهم يد الله مغلولة. هذا

---

(1) أنظر: قصص الأنبياء، لابن كثير، تحقيق مصطفى عبد الواحد، جـ 2، ص 137، 138، ط 1، مطبعة دار التأليف، مصر 1968.

(2) أنظر: الجامع، للقرطبي المجلد 1، جـ 1، ص 448، ط 2، دار إحياء التراث، بيروت، لبنان.

بالإضافة إلى دعاوى أخرى، سبق الحديث عنها.

«إن اليهود والنصارى قالوا إن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودة، إن مثل هذه الأماني لا يستقيم مع عدل الله، ولا يتفق مع سننه، ولا يتماشى مع التصور الصحيح للعمل؛ والجزاء من جنس العمل. ولا يستند إلى دليل يؤيده، بل أماني الجهال وأكاذيب المحتالين، وأماني المنحرفين عن العقيدة الصحيحة»[1]. لهذا رد عليهم القرآن بحجاجه: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨٠﴾[2].

وهو رد على قولهم: ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ﴾. وبهذا تكون الآية الكريمة قد ألزمتهم الحجّة وأخبرتهم بخلودهم في النار، بالإضافة إلى ما ساقت لهم مع هذا الإبطال من إنكار وتوبيخ.

أما دعواهم الإيمان بما أنزل الله عليهم، فقد حكاها القرآن الكريم، ورد عليها بما يبطلها، وبأبلغ حجّة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ﴾[3].

«وقولهم هذا، يدل على غبائهم وعنادهم، لأن الداعي لهم إلى الإيمان، يطلب منهم أن يؤمنوا بكل ما أنزل الله من كتب، وبكل الرسل الذين أرسلهم الله تعالى، ولكنهم قيدوا أنفسهم بالإيمان ببعض الكتب وببعض الرسل، فثبت كفرهم وضلالهم، لأن الإيمان الصحيح، لا يتم إلا بالتصديق بالله وملائكته وكتبه ورسله بدون تخصيص»[4]. ولهذا رد الله تعالى عليهم: ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ

---

(1) أنظر: تفسير الرازي، جـ 3، ص 141، مطبعة الهيئة المصرية، عبد الرحمن محمد، مؤسسة المطبوعات الإسلامية لنشر القرآن الكريم والكتب الإسلامية.
(2) سورة البقرة، الآية 80.
(3) سورة البقرة، الآية 91.
(4) أنظر: النبأ العظيم، محمد عبد الله دراز، ص 114، 115، مطبعة السعادة 1969، القاهرة.

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝﴾[1].

لقد ردت عليهم الآية بجملة من الأدلة، والبراهين القاطعة، والحجج الدامغة، وثبت كذبهم في دعواهم الإيمان بما أنزل الله عليهم، وصاروا بذلك مستحقين للعقاب.

ومن دعاوى اليهود الباطلة وأقاويلهم الكاذبة، زعمهم أنه ليس عليهم في الأميين سبيل، وأن الهدى في اتباع سبيله. لقد كشف القرآن الكريم زيف وأباطيل هذه الدعوى، ورد عليها بأبلغ حجّة، وبما يوضح زيف وكذب هؤلاء المارقين مع إرشادهم إلى الطريق السوي.

تتابعت مزاعم اليهود العريضة، يسوقها القرآن الكريم، ليكشف لجماعة المؤمنين طبيعة هؤلاء المبطلين. ومن تلك المزاعم: أن الجنة لن يدخلها إلا من كان هوداً، وأن ذنوبهم مغفورة لهم. وهذا نوع آخر من الغرور المركب وأمانيهم الباطلة: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا﴾[2]. لقد ساق القرآن بطلان دعوى اليهود، وأكد أنه ليس لهم أدنى برهان أو دليل على ما يدعون، وأصدر حكمه العام بأن الجنة لعباده المخلصين.

إن اليهود الذين يزعمون أن الجنة خالصة لهم دون غيرهم من الناس، هم أحرص الناس على حياة وأشدهم كرهاً للموت، ولو كانت حياة بؤس وحرمان وشقاء. ولهذا قال لهم الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ۝ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ﴾[3].

ولهذا أفحمهم بجملة من الأدلة والحجج والبراهين. ثم ساق لهم

---

(1) سورة البقرة، الآية 93.
(2) سورة البقرة، الآية 111.
(3) سورة البقرة، الآيات 94 ـ 96.

حجاجاً وتبكيتاً آخر، وهو قوله: ﴿ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾[1].

لقد كشف القرآن الكريم عن طبيعة اليهود المذبذبة، والتي ما تكاد تهتدي حتى تضل، وما تكاد ترتفع حتى تنحط. ثم أوضح ما هم عليه من شرك، وحياة تقوم على الشرك، لا ينتظر منها إصلاح.

«وكان مما حكاه القرآن الكريم عن اليهود من الدعاوى الباطلة، والأقاويل الفاسدة، زعمهم أن يد الله مغلولة ـ وهذا الذي حكاه القرآن عليهم، يدل على جرأتهم على الله تعالى، وسوء أدبهم معه، ووصفهم إياه بما لا يليق به، وإنكارهم جميل نعمه عليهم، وجحودهم لآلائه ولنعمائه التي لا تعد ولا تحصى، ومن الآيات التي وصمت اليهود بالكذب حول هذه الفرية، والتي تعد من أقبح ما اقترفوه من الأقاويل على الخالق ـ عز وجل ـ»[2].

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾[3].

«إن هؤلاء اليهود بوصفهم الله بما ليس من صفته، وهو قولهم: ﴿ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ .. ﴾، قولهم هذا يتنافى مع ذات الله المتصف بكل كمال، المنزه عن كل نقصان، وهو لا يمكن أن يصدر من أمة صحيحة العقيدة.

---

(1) سورة الأعراف، الآية 169.

(2) أنظر: تفسير الكشاف، جـ 1، ص 627، 628 طبعة دار المعرفة، بيروت.

(3) سورة المائده، الآية64.

فقولهم هذا يدل على غبائهم وجهلهم وغرورهم وإنكارهم لجميع ما أسدت به أياديه إليهم من نعماء وخيرات حسان، وما يتبعه من صفحه الجميل عنهم، حيث إنهم قوم لا يتورعون في فعل الموبقات والمنكرات، فتاريخ القوم، قديماً وحديثاً، حافل بمثل قولهم هذا، بل يتعداه»[1]، إذ قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء، وقتلهم الأنبياء بغير حق كما صرح بذلك القرآن: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾[2].

ولهذا رد القرآن عليهم بأبلغ حجّة، وهو قوله تعالى: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا﴾[3].

«حيث أثبت كذبهم وافتراءهم، وحمل الرد في طياته توبيخاً وتقريعاً، وأثبت أن أيديهم هي المحبوسة عن الخير والبذل والعطاء: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[4]. وأن خير الله ورزقه عميم، ولم يمنعه عن أحد من خلقه على حد سواء، فهو ينفق من خزائنه التي لا تنقص، مهما بالغ في الإنفاق، وفي الوقت نفسه يعطي ويمنع كيفما يشاء»[5]، ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾[6].

(1) أنظر: تفسير الطبري، المجلد 4، ص 193، ط 4، دار المعرفة، 1980 م.
(2) سورة آل عمران، الآيتان 181، 182.
(3) سورة المائدة، الآية 64.
(4) سورة آل عمران، الآية 180.
(5) أنظر: تفسير الطبري، المجلد 4، ص 193، ط 4، دار المعرفة 1980
(6) سورة الشورى، الآية 12.

خاتمة المبحث

بعد معايشة أهل الكتاب ومتابعتهم متابعة دقيقة، وخاصة بني إسرائيل، يبدو لي، ومن أول وهلة، أنهم ليسوا على شيء. ولقد تتبع القرآن الكريم وبإستفاضة مواقفهم المخزية من الإسلام ونبي الإسلام محمد ﷺ، ومن كتابهم، التوراة، وما حرفوا وبدلوا وغيروا، وتتبع كل أغلاطهم ورد على دعواهم بأبلغ حجّة، وكشف أمرهم بوضوح، وأسقط ما في مخيلاتهم. حقاً إنهم قوم مردوا على العصيان والنكول حتى عن مواثيق الله اتبعوا أمرهم هواهم.

وسجل بني إسرائيل مع أنبيائهم حافل بالتكذيب والإعراض، حافل بالقتل والاعتداء، حافل بتحكيم الشهوات والأهواء، ولعله من أجل ذلك قص الله تعالى تاريخ بني إسرائيل باستفاضة على أمة الإسلام، لعلها تنأى أن تكون كبني إسرائيل، ولعلها تحذر مزالق الطريق.

إن بني إسرائيل، حين طال عليهم الأمد، قست قلوبهم، فتحكم فيها الهوى، فكذبوا فريقاً وقتلوا آخر.

لقد اقترف بنو إسرائيل تلك الآثام كلها، وهم يحسبون أن الله لن يفتنهم بالبلاء، ولن يأخذهم بالعقاب، حسبوا هذا الحساب غفلة منهم عن سنة الله، وغروراً منهم بأنهم شعب الله المختار، وأنهم أبناء الله وأحباؤه.

حسبوا ألا تكون فتنة، فعموا وصموا، طمس الله على أبصارهم، فلا يفقهون مما يرون شيئاً، وطمس على مسامعهم، فلم ينتفعوا بالمثلات، ولم يتعظوا ولجوا في العصيان.

ويكفي أن يعرف أتباع الإسلام تاريخ اليهود، القديم والحديث، لتنفر قلوبهم المؤمنة من ولائهم، ذلك شأن اليهود من بني إسرائيل.

المبحث الثالث
جدال أهل الكتاب
ومحاجتهم النصارى
(المسيحية)

المسيحية دين توحيد خالص، كتابها الإنجيل، أنزله الله تعالى على نبيه عيسى - عليه السلام -، ويحوي شريعة سامية داخل إطار الدين الواحد: «الإسلام».

جاءت لإصلاح ما طرأ على شريعة موسى - عليه السلام - وما أحدث فيها اليهود من تحريف وتبديل[1].

فعيسى - عليه السلام - آخر رسل بني إسرائيل - عليهم السلام - جميعاً، وقد ذكره الله تعالى في عداد مجموعة الرسل الذين قصهم على رسولنا الكريم محمد ﷺ. وقال في شأنه: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٦﴾[2].

«جاء إلى بني إسرائيل بوحي من الله، وبكتاب الإنجيل المتضمن كافة

---

(1) أنظر: مجلة الوعي الإسلامي، العدد 52 لسنة 1969 م، مجلة ثقافية شهرية تصدرها وزارة الأوقاف الإسلامية بالكويت.

(2) سورة الصف، الآية 6.

أحكام الشريعة»(1).

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾﴾(2).

«جاء بدعوة بسيطة، لا تعقيد فيها، منتهجاً نهج أسلافه الرسل، فأهاب ببني إسرائيل أن يرجعوا إلى دين الله، ويخلصوا له العبادة، ويصححوا ما دخل إلى شريعتهم من تحريف وتبديل، وقام يبلغهم أوامر الله ونواهيه، كما كلفه سبحانه وتعالى»(3). ويبلغهم ما أنزل الله عليه من أحكام تشريعية جديدة، ومنها تحليل ما كان محرماً عليهم في شريعة الله التي أنزلها على موسى ـ عليه السلام ـ من بعض الأحكام، التي لم تكن الحكمة من إنزالها في حينها، إلا لعقوبة اليهود بسبب ظلمهم.

قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾﴾(4).

وقوله تعالى على لسان عيسى ـ عليه السلام ـ: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾(5).

---

(1) أنظر: محاضرات في النصرانية لأبي زهرة، ط 4، ص 11، مطبعة دار الفكر العربي، بيروت، لبنان.
(2) سورة المائدة، الآية 46.
(3) أنظر: موسى محمدي التوحيد، مفتاح دعوة الرسل، ط 2، ص 64، عالم المكتبات، 1984. وانظر: محاضرات في النصرانية لأبي زهرة، ط 14، ص 12، المرجع نفسه.
(4) سورة النساء، الآيتان 160، 161.
(5) سورة آل عمران، الآيتان 50، 51.

«إن الدعوة على لسان عيسى ـ عليه السلام ـ وكما أشرت، لم تكن دعوة عامة، وإنما كانت خالصة لبني إسرائيل، وما أن جهر بها وكثر أتباعها، وبدأت تلبس ثوب الزهد والتسامح، واتجهت إلى التطهير الروحي والتهذيب الوجداني. حملت على عاتقها إصلاح المجتمع الذي كان سابقاً يضجّ بنصوص جوفاء، دون تطبيق، حتى من جانب التابعين لها.

لقد كانت منة كبرى، فرح بها أتباعها لاعتبار أن الدين صلة بين العبد وربه، ولا تكون الصلة كاملة، إلا إذا طبقت الشريعة، وقامت بالإصلاح الذي جاءت من أجله، وهو تصحيح الانحراف»[1].

واصطدم نبي الله عيسى ـ عليه السلام ـ بجدل الرؤساء الوثنيين من اليهود المنحرفين ـ وما أكثر ما ينحرف اليهود! ـ عقائدياً المبتعدين عن أصول الشريعة الربانية، وفي تطبيقاتهم العملية عن السلوك السوي، وهم يرتدون في مظاهرهم مسرح الرياء.

وهكذا يبدو أن عقبات كثيرة وقفت أمام عيسى ـ عليه السلام ـ، وخاصة من الرهبان والأحبار والمنشقين، فإنهم لجوا في جدل عقيم معه، رغم وضوح الحجّة، ورغم ادعائهم الإسلام، ولم يكونوا في الحقيقة قد أسلموا.

لم يقنع رجال الدين والمنشقون الذين انحرفوا عن المبادىء السامية، التي جاءتهم بها هذه الشريعة الغراء، فأدخلوا فيها خرافات وأباطيل، ما أنزل الله بها من سلطان، حتى أصبحت ديانة وثنية، بعد تناولهم الإنجيل بالتحريف والزيادة، وأصبحت الكنيسة هي المهيمنة والمتسلطة.

أسرفوا في عبادة القديسين. والصورة المسيحية وجه خلاف عن

---

(1) أنظر: شلبي أحمد، مقارنة الأديان، الكتاب الثالث الإسلام، ص 38، 40. طبعة 4، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1973 م.

طبيعة المسيح، وما إذا كانت مزدوجة أو إلهية، وتلاشت لها طبيعة المسيح البشرية، مّما قلّل من أتباعها بسبب الانحراف المشين. وما اضطر الاختلاف إذا وقع في أعز ما يملك الإنسان، وهو العقيدة. فالعقيدة هي موضوع الاختيار والقياس للفرد والأمة، كلها. بالعقيدة تتكيف الثقافة وتتشكل الحضارة، وتأخذ المدنية مسارها الصحيح.

ويأبى الله تعالى أن يترك نبيه عيسى ـ عليه السلام ـ، فأيده بنصر من عنده، وأوحى إلى الحواريين أن يقفوا بجانبه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾[1].

إمتثل الحواريون[2] ما ألهموا به من ربهم، واستجابوا وانقادوا لرسولهم عيسى ـ عليه السلام ـ)[3].

وقفوا معه حتى في أحلك الظروف وأشدها، ولهذا كانوا هم خيرة من آمن به، وكانوا أنصاراً لدين الله تعالى، فجزاهم الله خيراً.

ولبث رسول الله عيسى ـ عليه السلام ـ بعد ذلك، يجادل المنحرفين في العقيدة، عظماء اليهود وأحبارهم رؤساء، وقسيسين ورهباناً وكهنة، فيرشدهم إلى أمور دينهم الصحيح، ليبين لهم ما طرأ على عقيدتهم من فساد، وليبطل رياءهم وخبثهم، حتى ضاقوا به ذرعاً، مما اضطرهم أن يبيتوا النية لقتل الرسول عيسى ـ عليه السلام ـ كما قتلوا أنبياء الله الذين جاؤوهم بالحق من قبل، ولم ينجه منهم إلا أن رفعه الله إليه.

---

(1) سورة المائدة، الآية 111.

(2) الحواريون: جمع الحواري وهو لغة الناصر أو ناصر الأنبياء، وهم أصحاب عيسى ـ عليه السلام ـ وخواصه/ معاني القرآن تفسير لغوي تأليف إبراهيم عبد الله رفيدة وآخرين، الربع الأول، ط 1، ص 379، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، طرابلس الجماهيرية، 1986 م.

(3) تفسير ابن كثير، جـ 2، ص 115، طبعة دار المعرفة بيروت، 1980 م.

﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾[1].

وبعد انتقال المسيح ـ عليه السلام ـ إلى الرفيق الأعلى، أخذت عقيدة التوحيد تلبس لبوساً، يبعدها عن مسارها الصحيح. لقد أصبحت الشريعة التي جاء بها عيسى ـ عليه السلام ـ بدعة نتيجة ما حرفوا وابتدعوا من أشياء غريبة، طرأت بعد رفع المسيح ـ عليه السلام ـ، إذ بدأت حركة الاضطهاد والقتل والقسوة بين المسيحيين بعضهم والبعض الآخر، وبين المسيحيين وسواهم، وتناسوا ما عرفهم به عيسى ـ عليه السلام ـ من تعاليم دينهم السمح ومن التسامح، الذي اشتهرت به هذه الديانة المسيحية التي جاء بها عيسى ـ عليه السلام ـ «شريعة ومنهاجاً سهلاً، ولكن ما طرأ عليها من التعقيد والتعصب أصبح عسيراً جداً فهم كثير من مبادئها، وحتى أصبح غموضها طبيعة واضحة فيها»[2].

«ولقد صمم اليهود على إنكار المسيح ـ عليه السلام ـ ولم يتركوا له مكاناً في تاريخهم. كما أن طوائف من أهل الأناجيل، أعلوا من شأن عيسى وأمه، واعتبروه إلَهاً أو ابناً للإلَه، مما جعلهم يجادلون في حقيقته، وناداهم الرسول ﷺ برفق ألا تغلوا في دينكم، ولا تقولوا على الله غير الحق.

وطال الجدل بين هؤلاء والرسول ﷺ في شأن عيسى ـ عليه السلام ـ ولم تهدهم عقولهم إلى تصديق الرسول فيما أوحى به الله إليه»[3]. ﴿إِنَّ

---

(1) سورة النساء، الآيتان 157 ـ 158.

(2) مقارنة الأديان المسيحية، د. أحمد شلبي، ص 21، ط 4، سنة 1973، مع اختلاف.

(3) أنظر: النشار علي سامي، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، جـ 1، ط 4، دار المعارف القاهرة 1965 م.

﴿هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ۝٥٩﴾ . الآية .

ولما رأى الرسول ﷺ أن القوم يتمادون في الجدل، وأنهم مصرون على اعتبار عيسى ـ عليه السلام ـ إلّهاً أو نداً للإلّه. نزلت آية المباهلة تدعو وفد النصارى إلى المباهلة: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ۖ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ ۝٦٠ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ۝٦١﴾[1] .

«وهذه الآية هي المعروفة بآية الباهلة، وهي من أمهات الكتاب، والقصد الأول من هذه الآية، تدعيم الدين الحنيف، وإثبات الرسالة المحمدية الإنسانية. وترتبط هذه الآية بالسنة التاسعة لهجرة الرسول الأعظم ﷺ إلى المدينة، وهي السنة المعروفة بعام الوفود»[2] .

«دعاهم وأعلمهم أنه قد جاء الفصل في أمر عيسى ـ عليه السلام ـ من الله، فإن لم يذعنوا ولم يعتقدوا، فليجتمع المسلمون مع أهل الكتاب في صعيد واحد، رجالاً ونساء وأطفالاً، ثم يبتهلوا ويستنزلوا لعنة الله على من كان كاذباً»[3] .

«وإذ كانت المباهلة بين الوفد النجراني وبين الرسول ﷺ دعاء وابتهالاً إلى الله ـ عز وجل ـ، وليست حرباً يدفعون ثمنها غالياً، فكان الأولى أن يقبلوا ذلك، وخاصة وهم يدعون أنهم أبناء الله وأحباره، فما كان لهم إلا المسارعة، لأن الأمر لا يكلفهم شيئاً إلا أن يبتهلوا إلى الله

(1) سورة آل عمران، الآيات 59 ـ 61.
(2) التفسير الكاشف، محمد جواد مغنية، المجلد 2، جـ 3، ص 76، ط 3، دار العلم للملايين، بيروت.
(3) قصص الأنبياء، محمد أحمد جاد المولى وآخرون، جـ 1، ص 461، ط 10، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، مصر 1969 م.

نظراً لمكانتهم عنده يدعونه لينصرهم عليه فيما فيه مختلفون معه، وما الذي يمنعهم في ذات الوقت إن كانوا هم الصادقين.

ولكن مبيتات الوفد النجراني وأمرهم كان محيراً، مما اضطرهم إلى أن يترددوا لما اتضح لهم من صدق نبوة الرسول ﷺ كما أكدته كتبهم، إلا أن إصرارهم على العناد، ومراوغتهم هما اللذان وقفا سداً منيعاً في قبول أمر الابتهال، وطلبوا من الرسول أن يمهلهم أياماً حتى يستعدوا فيها، وتتاح لهم الفرصة للتشاور، ويأتوا بأبنائهم ونسائهم وبالتالي لا يمانعون في أمر المباهلة.

وأمر الرسول ﷺ محير، لما يعرف من أنه على حق، ولما عرف من عناد القوم وإصرارهم. ولم يخفَ عليه حال القوم من التردد والحيرة في مثل هذه المجادلة والمطاولة. وكان طبيعياً من الرسول ﷺ أن يستجيب لمطلب خصومه، لأن دعوته دعوة إقناع واقتناع، دعوة المجادلة بالتي هي أحسن، كما أوصاه الله تعالى بذلك.

«إستجاب لخصومه لينفس عليهم، وأشعرهم أن المسألة مسألة هدى وإرشاد، لا مسألة تكبر وعناد. ومن شأن ذلك أن يكون أبلغ حجّة وأقطع للمعذرة، حيث لبى طلبهم ومنحهم مهلة تكفيهم، وانقلب الوفد ليتشاور فيما هو فيه من أمر محير، رغم وضوح المسألة. وبعد مداولات ومشاورات حادة، أجروها مع أنصارهم من اليهود، حيث أشاروا عليهم أن يصالحوا الرسول ﷺ على أن يدفعوا له الجزية، وأشاروا عليهم ألا يباهلوا الرسول ﷺ لما عرفوا من صدق نبوته، ولما عرفوا ما يلحقهم من خطر، إن باهلوا الرسول محمد ﷺ، إذن فلا داعي إلى المباهلة»[1].

«وتعتبر الآية دحض شبهة النصارى في أن عيسى ـ عليه السلام ـ

(1) أنظر: مجلة الأزهر، المجلد 26، ص 838.

إلّه أو ابن الإلّه، كما أثبتت دلالة صحة نبوة الرسول ﷺ»[1].

ولما بين جل شأنه القصص الحق في شأن رسوله عيسى ابن مريم - عليه السلام - والمختلفين فيه، دعاهم إلى المباهلة ولم يبق إلا أن يأمر نبيه محمداً ﷺ إلى الحق الواجب اتباعه، ألا وهو الإيمان. وقد ظهر بالدعوة انقطاع حجاج المكابرين، ودل نكولهم عنها على أنهم ليسوا على يقين من اعتقاداتهم الواهية في المسيح - عليه السلام - وفاقد اليقين يتزلزل عندما يدعى إلى شيء عاقبته وخيمة، فلما نكلوا دعاهم الرسول ﷺ إلى أمر آخر هو أصل الدين والذي نادت به رسل الله جميعاً: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾[2].

إنها دعوة لا يرفضها إلا من لا يريد أن يفيء إلى الحق الذي أقره الله تعالى، إنها دعوة إلى عبادة الله وحده، لا يشركون به أحداً، لا بشر ولا حجر، دعوة لا يتخذ بعضهم بعضاً من دون الله أرباباً، لا نبياً ولا رسولاً، فكلهم عبيد، إنما اصطفاهم الله للتبليغ عنه، لا مشاركته في الألوهية والربوبية.

قصة عيسى - عليه السلام -
كما يصورها القرآن الكريم

لقد حرص القرآن الكريم أن يقدم قصة عيسى ابن مريم - عليه السلام - بكل استفاضة، لأنها كانت، ولا تزال مثار جدل وعناد أهل الكتاب في دين الإسلام، لا لشيء إلا لأن أهل الكتاب حرفوا وبدلوا

---

(1) أحكام القرآن، للجصاص، جـ 3، ص 14، ط 1، الناشر دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.
(2) سورة آل عمران، الآية 64.

كتبهم، وبالتالي فسدت عقيدتهم، وكانوا يستدلون بهذا التحريف على بطلان الإسلام.

فكان لزاماً على منهج القرآن الكريم أن يضع أمام المؤمنين قصة عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ على حقيقتها حتى يرفع كل الشبهات، وحتى يضعه في مصاف بقية رسل الله الذين اختارهم لتبليغ دينه.

هذه هي حقيقة عيسى ـ عليه السلام ـ كما تحدث عنها القرآن الكريم، لا لبس فيها، ولا غموض، إنه صاحب رسالة، جاء ليجدد دين إبراهيم وموسى ـ عليهما السلام ـ، جاء بالإنجيل، وكأي نبي، لا بد أن يجد في طريقه كل الصعوبات في عملية الإقناع والاقتناع، وفي تحويل أناس كافرين ملحدين مفسدين منحرفين، إلى أناس مؤمنين.

إنه من العجب العجاب، أن تثار تلك الشبهات حول هذه الحقيقة البسيطة، فشأن عيسى ـ عليه السلام ـ شأن بقية الرسل، شأن نوح وإبراهيم وموسى ـ عليهم السلام ـ ومحمد ﷺ وغيرهم ممن اصطفاهم الله واختارهم للرسالة على مدار الزمان.

ويعجب الإنسان، وهو يرى وضوح القضية وبساطتها، من فعل الهوى ورواسب الوثنية التي عقدت قصة عيسى ـ عليه السلام ـ، هذا التعقيد كله في أذهان أجيال وأجيال، وهي كما يصورها القرآن الكريم بسيطة للغاية.

وهكذا تتجلى بساطة هذه الحقيقة، حقيقة عيسى وحقيقة آدم ـ عليهما السلام ـ وحقيقة الخلق كله، وتدخل إلى النفس في وضوح، حتى ليعجب الإنسان كيف ثار الجدل حول هذا الحادث، وهو جار وفق السنة الكبرى، سنة الخلق والنشأة جميعاً.

وهذه هي طريقة القرآن الكريم في مخاطبة الفطرة بالمنطق الفطري الواقعي البسيط، في أعقد القضايا التي تبدو، بعد هذا الخطاب، من أيسر القضايا وأبسطها.

الفصل الخامس

نصوص الجدل والمحاجّة في القرآن الكريم لغير أهل الكتاب

المبحث الأول

جدال المشركين والكافرين ومحاجتهم

القرآن الكريم وعقيدة الشرك

إن كافة الشرائع السماوية، وكما أنزلها الله تعالى على رسله، جاءت تدعو إلى عبادة الله وحده، وإخلاص العبادة له دون غيره. وهذه حقيقة أكيدة يعرفها كل من يتتبع أهداف الديانات والعقائد على الأرض، فلم تأت الديانات القائمة على الوحي الإلهي، إلاّ لتوجه الإنسان إلى نفسه وإلى ربه، إلى نفسه، فيتعرف بنوازع الخير فيها فيغذيها، وبنوازع الشر فيحاربها، ليخلص بذلك إنساناً سوياً، ويتجه إلى ربه بالعبادة، والامتثال لأمره، والاجتناب لما نهاه عنه.

إن كل شرع من الشرائع الإلهية، جاء بهذه الحقائق وأعلنها إلى الناس، وبشّر بها بين أتباعه.

إن رسالات الله إلى الناس، كانت تترى، مبطلة صور الشرك، داعية إلى الحق في أمر العقيدة، وإلى الاستقامة في السلوك حتى ينسجم مع هذه العقيدة.

ولم تكن هناك عقيدة اهتم بها القرآن الكريم، كعقيدة الشرك التي دبت في أفراد البشرية، عبر مراحل عصورها المتعاقبة.

لقد اهتم القرآن الكريم اهتماماً بالغاً بالشرك والمشركين، لتخلص

العبادة لله وحده، دون سواه، من كل ما علق بها من أساطير وما شابها من الانحرافات، التي طرأت على العقائد التي سبقته، حرص هذا الحرص لأن التوحيد حقيقة أولية، يقوم عليها هذا الوجود كله، ويشهد بها هذا الوجود شهادة أكيدة، ولأن التوحيد في الوقت عينه، قاعدة لا تصلح الحياة البشرية كلها في أصولها وفروعها، إلا إذا قامت عليه، والأنداد التي يشدد الله تعالى في النهي عنها، لتخلص عقيدة التوحيد نقية واضحة، لا تكون آلهة تعبد على النحو الساذج، الذي كان يزاوله المشركون، فقد تكون الأنداد في صورة خفية، وقد تكون تعليق الرجاء بغير الله في أي صورة، وفي الخوف من غير الله في أي صورة[1].

إن وحدانية الله يقررها القرآن الكريم بشتى أساليب التوحيد، بتوحيد المعبود الذي يتجه إليه الخلق بالعبودية والطاعة، لقوله تعالى: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ ﴾[2].

ويستفيد الإنسان من عقيدة التوحيد الاستقلال والحرية، فليس لأحد سلطان عليه. وما طرأ على الإنسان من مصيبة الخضوع لرجال الدين والملوك وغيرهم، سببه جهلهم بالمؤثر الأعلى، وخضوعهم لقوتهم الوهمية. لهذا، وجه الله تعالى إليهم هذا الحجاج: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾[3]. وقوله: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾[4].

كما يستفيد الإنسان من التوحيد الأنفة والعفة، من اعتقاده بأنه لا

---

(1) أنظر: الدستور القرآني في شؤون الحياة، محمد عزة دروزة، ص 35، 36، 37، دار إحياء الكتب العربية، الباب الحلبي.
(2) سورة البقرة، الآية 163.
(3) سورة الأعراف، الآية 194.
(4) سورة الأحقاف، الآية 4.

رزاق إلا الله: ﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ﴾[1].

كما يستفيد الشجاعة وعدم الخشية من أحد، حتى الموت لا يخافه، لأن الذي يملكه هو الله وحده، وبذلك ترتفع نفسه إلى العزة والإباء والاستشهاد في سبيل الحق: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا . . . ﴾[2].

إن تعدد الآلهة تجعل البشر عبيداً لها، ولذلك كان يقع على كاهل الناس من جراء تعدد الآلهة، من الأعباء التي ألزموا بها، ما تفوق استعداداتهم لتقديم الهدايا والنذور والقرابين والشعائر العملية التي ترضي الآلهة، ولذلك يخاطب القرآن الكريم المشركين: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ۝ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝ ﴾[3].

والقرآن الكريم يستهل خطابه ببيان الحكمة عبادة إله واحد، يخضع الجميع لحكمه، وما يستدعي ذلك التوحيد من التخفيف عن كاهل الإنسان من التضحيات المرهقة، والشعائر الوهمية. إن هذا التوحيد يوحد بين البشرية، ويقضي على كثير من أسباب الخلاف الذي نشأ بسبب اختلاف، المعتقدات.

ثم يتنقل القرآن الكريم إلى محاجّة المشركين، قائلاً: كيف تعبدون آلهة من صنعكم، أطلقتم عليها أنتم وآباؤكم أسماء مختلفة، ما أنزل الله

---

(1) سورة العنكبوت، الآية 62.
(2) سورة آل عمران، الآية 145.
(3) سورة يوسف، الآية 40.

بها من سلطان، أي ما جعل الله فيها من حجّة أو برهان عقلي، يطمئن إليه من يعبدها من دون الله؟

والإنسان بعد أن نظر في الكون، وتمعن جيداً فيما حوله من نظام ودقة الصنع، التي تجمع بين أجزائه، لا بد أن يؤمن بوحدانية الله. وقد أوضح الله تعالى الفساد الذي يعتري الكون من جراء تعدد الآلهة، ويصف مظاهر هذا الفساد وصفاً، يرتفع به إلى أعلى مراتب الإقناع، ويفحم المشركين والمكابرين بأدلة لا يمكن دحضها: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾[1]. فهذا دليل يلزم المشركين الحجّة ويبطل كفرهم بالمنطق، وبعض العوامل التي دفعتْ إلى عبادة الأصنام، رغم أنها لا تنفع ولا تضر. من تلك الدوافع ما ذكره القرآن الكريم على لسان المشركين: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾[2].

«لقد احتال المشركون لتبرير شركهم، وبأنهم لم يذهبوا بعيداً، وبأن أولئك الذين اتجهوا إليهم من دون الله إنما هم مفاتيح للاله الأكبر، لجأوا إليها لتوصلهم إليه... وقالوا ما نستطيع أن ننسب إلى حجر أو بشر خلقاً أو رزقاً، ولا نجحد تفرد الله تعالى بهذا العمل، ولكن اتخذنا بناته وبنيه وسطاء خير له»[3].

ولهذا ردّ الله تعالى عليهم بقوله: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ..﴾[4].

---

(1) سورة المؤمنون، الآية 91.
(2) سورة الزمر، الآية 3.
(3) أنظر: د/ عمر فروخ، تاريخ صدر الإسلام، ص 93، ط 4، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان 1979 م.
(4) سورة الزمر، الآية 3.

وقوله: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾[1]. ولم تكن فكرتهم هذه، إلا نظرية محجوبة، مغمورة تحت معتقدات وعبادات كانت تؤدي إلى عدد لا يحصى من الآلهة.

وتحكي الآيات قصة إبراهيم ـ عليه السلام ـ وهو ينتهج مع قومه سبيل الاهتداء تدل على أن الشرك حالة عقلية إنسانية قبل أن يهتدى، وقبل إرسال الله الرسل لهداية الناس إلى عبادة الله وحده. إن قصة إبراهيم ـ عليه السلام ـ تفسر المحاولة الاهتدائية عن طريق صورة التدرج النفسي في طريق الهداية، والوصول إلى الإيمان الصحيح عن طريق التجربة الفعلية والممارسة التلقائية: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾[2].

«إن إبراهيم ـ عليه السلام ـ مؤمن بالله حنيفاً، وما كان من المشركين، كان لا يترك فرصة إلا ويناظر فيها قومه ويجادلهم فيما يشركونه مع الله تعالى. والآيات السابقة تبين المحاورة التي أراد بها بطلان عبادة الكواكب، وعبادة المعبود الحق، الذي لا إله إلا هو وحده، لا شريك له، وهو الله.

لقد بصر الله تعالى خليله إبراهيم ـ عليه السلام ـ ليطلع على معرض الكون، ومن ثمّ يوصله إلى الإيمان الواعي الصحيح، الذي يصلح أن

---

(1) سورة يوسف، الآية 106.

(2) سورة الأنعام، الآيات 75 ـ 79.

يكون عقيدة. لقد أوقفه الله سبحانه وتعالى على الأسرار المبثوثة في صميم الكون، وكشف له الآيات المبثوثة في صحائف الوجود. لقد أوصلته فطرته السليمة وما يوحيه هذا الكون العجيب من دلائل الإيمان لينتقل من درجة الإنكار على عبادة الآلهة الزائفة إلى درجة اليقين الواعي بالإله الحق»[1].

لقد وفقه تعالى إلى معرفتها، وأرشده بما يشرح صدره للإيمان، إذ عرّفه طريق الاستدلال ليكون من المؤمنين. ولقد أرشد أباه وقومه، أراد أن يبين لهم الخطأ في دينهم، وأن يرشدهم إلى طريق النظر والاستدلال الصحيح، الذي يؤدي إلى أن وراء هذا الكون مسيّر ومدبر له، هو الله الخالق لهذا الكون.

هذا هو طريق الفطرة البديهي العميق، وعي لا يطمسه الركام، وبصر يلحظ ما في الكون من عجائب صنع الله البديع، وتتبع للمشاهد حتى تنطق له بسرها المكنون.

إن تتبع الرحلة مع فطرة إبراهيم ـ عليه السلام ـ الصادقة، وهي رحلة هائلة، وإن كانت تبدو هينة بسيطة ميسّرة، وهذه ميزة القرآن الكريم، لا يلجأ إلى التعقيد حتى في أخطر القضايا. رحلة من نقطة الإيمان الفطري إلى الإيمان الواعي المدرك، إنها صورة لنفس إبراهيم ـ عليه السلام ـ لقد ساورها الشك، بل الإنكار الجازم لكافة أنواع المعبودات، التي يشركها قومه مع الله تعالى. لقد تكشف لإبراهيم ـ عليه السلام ـ الصواب، فكشف له ما عليه قومه من الشرك، وهم لم يكونوا يجحدون الله قطعاً، ولكنهم كانوا يشركون معه معبودات زائفة، وإبراهيم ـ عليه السلام ـ يتجه إلى الله وحده بلا شريك، فالاتجاه

(1) أنظر: التفتازاني أبو الوفاء الغنيمي، الإنسان والكون، ص 31، 32، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، مصر.

الحنيف، الذي لا ينحرف إلى الشرك، وهي الكلمة الفاصلة واليقين الجازم والاتجاه الأمثل.

إن فطرة القوم، حين تنحرف تتمادى في ضلالها، وتتسع الهوة ويبعد المسير عن نقطة الانطلاق، حتى ليصعب أن تثوب، وهذا ما عليه المشركون.

ولهذا، بعد أن تبرأ إبراهيم ـ عليه السلام ـ من معبوداتهم، خاطبهم قائلاً: إني وجهت قصدي إلى عبادة الله، وما أنا من المشركين. هذا هو نظر إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ واستدلاله في نفسه، حكاه الله عنه، وهو يصلح أن يكون نبراساً يهتدي به الجميع في كل عصر ومصر، فالشرك في عهد إبراهيم ـ عليه السلام ـ هو نفسه الشرك في عهدَي موسى ـ عليه السلام ـ ومحمد ﷺ وإلى اليوم.

ولعل العكس صحيح، فيكون الشرك في عهدَي موسى ـ عليه السلام ـ ومحمد ﷺ امتداداً للشرك في عهد إبراهيم ـ عليه السلام ـ.

الشفعاء

لقد سلك المشركون، في اتصالهم بالله، مسلك اتخاذ الوسطاء ليشفعوا لهم عند الله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾[1].

«تبين هذه الآية الكريمة أن هؤلاء يعبدون آلهة، لا تنفعهم، ولا تضرهم في الدنيا، حال عبادتهم إياها، ولهذا أمر الله رسوله محمداً ﷺ أن يخاطبهم خطاب المنكر عليهم: ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ...﴾. كما بيّنت لهم أن هذا زعم باطل، فالشفاعة لا تكون عند الله إلا بإذنه»[2]. ولهذا احتج عليهم بقوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾[3].

---

(1) سورة يونس، الآية 18.

(2) أنظر: القرطبي، جـ 8، ص 322، طبعة 2، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان 1966 م.

(3) سورة الأنعام، الآية 94.

ويعيب القرآن على المشركين اتكالهم على الشفاعة ويبين بطلان ذلك. فالذي ذكره الله تعالى من اختصاص الشفاعة، وأنه سبحانه وتعالى يأذن بها لمن يريد، إن ذلك لسبيل إصلاحي كبير، يقطع الأمل الذي يتعلل به العصاة المتكلون على الشفاعة، كما يحول بين كل من يدعي من البشر الصلاح والتقوى لاستغلال الناس بأنه شفيع لهم عند الله، يجلب لهم المغفرة، إذ إذن الله، كما صرح به القرآن الكريم، غير معروف لأحد من الخلق. لذا، يصرف الإنسان كامل عبوديته لله تعالى، ويروض نفسه على مجابهة صعاب الحياة، ويكون فرداً صالحاً في المجتمع.

الاحتجاج بالقضاء والقدر

مشيئة الله تعالى

لقد ساق القرآن الكريم مناظرة وشبهة، تشبت بها المشركون في شركهم، وتحريمهم ما حرموا: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾[1].

وقولهم أو ادعاؤهم أن هذا من شرع الله، بغير علم ولا دليل، يجعلون كل هذا من مشيئة الله سبحانه وتعالى، فلو شاء الله ما أشركوا أو حرموا. وجاء القرآن الكريم ليبين بأن كذبهم كما كذّب من قبلهم: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا﴾.

والسبب في ذلك أن مشيئة الله غيب، لا يستطيعون الوصول إليه، وليس لهم وسيلة توصلهم إليه أو أنهم لا يعلمون عنها شيئاً. وما دام الأمر هكذا، فكيف يحيلون ذلك عليه؟ ولهذا أفحمهم الله بقوله: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾، وهم من غير شك، ليس عندهم ما يثبت ذلك، ولهذا ألزمهم الله الحجّة، وتأكد أن ما اتبعوه هو محض الظن،

(1) سورة الأنعام، الآية 148.

الناشيء عن سوء الفهم والإدراك: ﴿ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ ﴾، «أي أن هذا القول احتيال على الحقيقة، فإن كل شيء يقع في هذا الوجود وفق مشيئة الله تعالى، هذا حق، ولكن مشيئة الله جعلت للإنسان قدرة على اختيار الهدى أو اختيار الضلال، وكلفه سبحانه وتعالى اختيار الهدى ورضيه له، ولم يرضَ له الشرك والضلال، وكانت مشيئة الله قادرة أن تخلقه مائلاً إلى الهدى أو الضلال»[1].

وهم عندما يحيلون كل شيء على مشيئة الله يصبحون مخطئين، ولهذا دحض الله تعالى شبهتهم هذه وردها، لأنها تدعو إلى السخرية، ولا تستند إلى أي قوة أو دليل، إنها مجرد المحاكاة، ومحض التقليد، بلا تدبر، ولا فكر، ولا حجّة، ولا دليل يؤكدها، صورة مزرية شبيهة بصورة القطيع، يمضي حيث يساق، ولا يسأل أين يمضي، ولا يعرف معالم الطريق. «والرد هو ما تضمنته آيات الله في حجته البالغة: ﴿ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾[2]، ولكن ترككم وما خلقكم على اختيار، وكلفكم بناء على ما منحكم من قوة وإرادة»[3].

---

(1) أنظر: العقيدة الإسلامية وأسسها، عبد الرحمن حسن الميداني، ص 777، ط 4، دار العلم للملايين، دمشق 1986 م.

(2) سورة الأنعام، الآية 149.

(3) أنظر: تفسير شلتوت، ص 387، طبعة 5، طبعة دار الشروق، 1973 م.

اهتمام القرآن الكريم
بالشرك والمشركين

لقد واجه القرآن الكريم والمشركين إلى أبعد حد. واهتم بأمرهم اهتماماً كبيراً، نظراً إلى خطرهم المحدق على كافة الديانات السابقة واللاحقة. فلا تكاد تخلو آية من كتاب الله العزيز تتعلق بالشرك، من وصف دقيق ظاهري لحالة الشرك. ومن خلال تحليل فسيولوجي نفسي للمشركين، أو لحالة الشرك، أو تصوير للعذاب، الذي ينتظر المشركين، أو لما يصيب المشركين من ندم وخوف، من جراء اقترافهم جريمة الشرك النكراء، التي ليس لصاحبها النجاة من النار؛ إذ الله يغفر كل شيء إلا الشرك[1] به لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾[2]،وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾[3].

والسبب في تهويل جريمة الشرك وخروجها عن دائرة المغفرة، أن

---

(1) أنظر: الدسوقي، د. محمد، في تاريخ القرآن وعلومه، ط 1، ص 30 وما بعدها، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس الجماهيرية 1983 م.

(2) سورة النساء، الآية 48.

(3) سورة لقمان، الآية 13.

من يشرك بالله فقد خرج من حدود الأمن والصلاح: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾[1]. إذ فقد كل الروابط التي تربطه بالإنسانية، ولو بقي خيط واحد من خيوط الفطرة لشده إلى حظيرة الإيمان. إن حالة المشرك في تخبط عشوائي دائم، لأنه على غير هدى: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾[2].

ولعل بعد هذا يعد الشرك انقطاعاً عاماً بين العبد وربه، وخاصة إذا خرج صاحبه من هذه الدنيا، وهو متلبس بهذه الجريمة النكراء.

نتائج الشرك بالله

لقد ضرب الله مثلاً للمشرك، في ضلاله وهلاكه وبعده عن الهدى، حيث قال: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾[3].

«إن من أشرك بالله فقد أهلك نفسه هلاكاً ليس بعده نهاية، بأن صور حاله بصورة حال من خرّ من السماء فتخطفه الطير، فتفرق مزعاً في حواصلها، أو عصفت به الريح حتى هوت به في بعض المطاوح البعيدة. والذي ترك الإيمان، وأشرك بالله، شبهه بالساقط من السماء، والأهواء التي تتوزع أفكاره بالطير المختطفة، والشيطان الذي يطوح به في وادي الضلالة بالريح التي تهوي بما عصفت به في بعض المهاوي المختلفة»[4]. فهو غير مستقر على القاعدة الثابتة التي تربطه بهذا الوجود، الذي يعيش فيه.

---

(1) سورة النساء، الآية 116.
(2) سورة الملك، الآية 22.
(3) سورة الحج، الآية 31.
(4) تفسير الكشاف، للزمخشري، جـ 3، ص 12 ـ 13، ادار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.

أما الحكمة في عدم مغفرة الشرك، ذلك أن الله تعالى شرع لعباده الدين لتزكية نفوسهم، وتطهير أرواحهم، وترقية عقولهم، إذ الشرك هو منتهى ما تهبط إليه عقول البشر وأفكارهم ونفوسهم، فمنه تتولد كافة أنواع الرذائل والخسائس، التي تفسد نزوات الأفراد والمجتمعات. فالإضافة إلى أنه عبارة عن رفع فئة معينة من مخلوقات الله عن أخرى إلى رتبة تقديس واستشارة، ويتم لها الخضوع بدافع الشعور بأنها سلطة عليا بيدها القدرة على النفع والضرر، وأن إرضاءها وطاعتها هو عين طاعة العبد لله تعالى.

فهذه الخصلة الدنيئة، كانت سبب استبداد رؤساء الدين والدنيا بالأقوام والأمم، واستعبادهم إياهم وتصرفهم فيهم، وفي أنفسهم وكافة مصالحهم، تصرف السيد المالك القاهر لعبده.

ناهيك بما كان عليه ذلك من الأخلاق السافلة والرذائل الفاشية، من الذل والمهانة والدناءة والتملق والكذب والنفاق وما إلى ذلك.

لقد صور القرآن الكريم المشركين من الداخل تصويراً رائعاً، فهم لا يشركون عن إيمان، ولكن وضعهم النفسي المزعزع، يجعلهم يحسون بالقلق والاضطراب وانعدام التوازن في التصرف إزاء الأوضاع المختلفة التي يوجدون عليها، فهم في صراع فكري، ضاقت بهم الأرض، فهم في بوتقة أمر محير، لا يحسدون عليه.

مناقشة المشركين وجدالهم

لقد تتبع القرآن الكريم الشرك والمشركين بالأهمية نفسها التي تتبع بها الكافرين عموماً، لأنهم كانوا طائفة أو مجتمعاً حاربوا الإسلام، كما حاربوا الأديان من قبل، وكانوا عقبة في سبيل هداية الآخرين، لما نشروه من ضلال وتفريق بين المجتمعات، حتى يضلوهم عن الطريق السوي.

لهذا، كان ما عاناه الإسلام من المشركين ضعف ما عاناه من الكفار عموماً، ومن أهل الكتاب. حتى في طريقة الإقناع، كانت مخاطبة المشركين، واقتلاع جذور الشرك من عقلياتهم أكثر صعوبة، في بعض الأحيان، من مخاطبة أهل الكتاب.

ولهذا، جاءت صور الجدل التي استخدمها القرآن الكريم مع المشركين متنوعة، إذ ناقشهم مناقشة منطقية في كل ما يشركون به مع الله تعالى. وبهذا الجدل المنطقي المنظم، الذي يحمل أصولاً وآداباً لمحاجّة الخصوم عموماً، أقام الحجّة عليهم، إذ أن ما يشركونه مع الله، يعتبر مخلوقاً من مخلوقات الله الكثيرة التي لا تحصى، وليس له أية خاصية من خصائص الألوهية، سواء في الخلق أو الإبداع أو النجاة. وكل آية من هذا القبيل، تحدد نوعاً ما لعقلية إشراكية، أفحمت المشركين بأسئلة

أحرجتهم ووضعتهم في مواجهة ثقافتهم العقلية الإشراكية، التي ألقت بهم إلى عبادة غير الله تعالى، أو الإشراك به: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾[2].

ومنها قصة الخليل إبراهيم ـ عليه السلام ـ وإلى المحاجّة القوية الصارمة، التي واجه بها المشركين، وكما يحكيها القرآن الكريم: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾[3].
ومنها محاجّة أخرى شبيهة بتلك المحاجّة: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾﴾[4].

وبصيغة الاستفهام الإنكاري عن هؤلاء الشركاء، يتحدث القرآن الكريم: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟

---

(1) سورة الأحقاف، الآيتان 4 ـ 5.
(2) سورة الأنعام، الآيتان 40 ـ 41.
(3) سورة الأنعام، الآيتان 80 ـ 81.
(4) سورة فاطر، الآية 40.

﴿لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾﴾[1].

ولقد اتجه القرآن الكريم إلى المشركين الذين وصفهم بقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾[2]، وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ﴿٢٣﴾﴾[3].

هؤلاء هم الذين أطال معهم الحديث، وناقشهم مناقشة مطولة، وكشف عن نفوسهم المريضة، ورد على ادعائهم الواهي، الذي لا أساس له من الصحة. وبيّن لهم سخف دعواهم، وأوقفهم على الحق، فأقروا بأن الله تعالى هو وحده خالق لكل شيء، وأنه هو الذي يجيب المضطر إذا دعاه حتى أنه وصفهم بقوله: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾[4].

وساق القرآن الكريم، في محاجته المشركين، آيات تتميز بطابع التحدي، وطلب منهم البرهان على صحة إشراكهم بالله، وأوضح أنه لا برهان لهم يذكر،وذلك في قوله: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ

---

(1) سورة الرعد، الآية 16.
(2) سورة لقمان، الآية 25.
(3) سورة يونس، الآيتان 22 ـ 23.
(4) سورة البقرة، الآية 171.

ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ
وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن
يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ
تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ
وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾[1].

وفي هذه الجولة المتعمدة، يقف القرآن الكريم بالمشركين أمام مشاهد الكون وأغوار النفس. يبدأ معهم ويسألهم أسئلة متلاحقة متتابعة، موحية مؤثرة، ليفحمهم بها، ويلزمهم الحجّة. ويبدأهم بالسؤال الأساسي الذي يقرون به: من خلق السموات والأرض؟ ومن الذي أنزل من السماء ماء؟ ومن الذي جعل الأرض قراراً؟ ومن الذي يهديهم في ظلمات البر والبحر؟ ومن الذي جعلهم خلفاء في الأرض؟ ومن الذي يرزقهم في السماء والأرض؟ ومن الذي يبدأ الخلق ثم يعيده؟ وفي كل مرّة يقرعهم بالحجّة الدامغة أإلّه مع الله؟ والقوم لا يملكون أن يدّعوا هذه الدعوى، ولا يملكون أن يقولوا إن مع الله إلّهاً يفعل من هذا شيئاً. ومع هذا، فهم يعبدون مع الله آلهة، ويشركون به شركاء. وقد جاءت هذه الآيات بعد عرض مفصل لقصص بعض الأمم السابقة مع أنبيائهم الذين بعثوا إليهم، وكيفيّة إهلاك الله لتلك الأمم بسبب عتوهم وطغيانهم في الأرض.

ولما كان في هذا القصص عبرة لأمة محمد ﷺ، وفيها الدليل على وحدانية الله ووجوده، والرد على الباطل الذي يتمسك به الكافرون والجاحدون، عقب الله عليهم بالالتفات إلى هؤلاء الكافرين، يستنهض عقولهم للعبرة والتأمل، ويناقشهم في باطلهم الذي يحتضنونه بمختلف

(1) سورة النمل، الآيات 60 ـ 64.

البراهين والأدلة القاطعة التي يرونها من حولهم. ويخلص القرآن الكريم من هذا العرض إلى عرض مشاهد يوم القيامة والحشر، ويقف بالمشركين عند قضية البعث والجزاء، والسبب أن المشركين ينكرون ويشكّون في أمرها، ولهذا ربط بينها وبين تصميم الوجود كله. وينتقل القرآن الكريم بالمشركين فيوقفهم أمام مشهد من مشاهد القيامة، وكأنهم يرونه واقعاً بهم، وإن لم يحن بعد موعده، لأن التصوير القرآني يعرضه حياً شاخصاً، كأنهم يرونه رأي العين ومن خلال الكلمات: ﴿ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾[1].

وينقلب بهم إلى عرض مشاهد الحشر وما فيه من هول وفزع، ويرجع بهم في ومضة خاطفة إلى الأرض، ثم يردهم إلى مشهد الحشر، وكأنما يهز قلوبهم هزاً عنيفاً. بعدما أطلعهم على الحقيقة، يترك المشركين المستهزئين بالوعيد، المكذبين بالآخرة، وقد وجه قلوبهم إلى مشاهد الكون، وأهوال الحشر، وعواقب الطائعين والعصاة، ومصيرهم الذي يختارون.

لقد حكى القرآن الكريم النهاية القاسية، التي انتهى إليها المشركون المكذبون بالأديان والعقائد والرسالات. لم يكن هذا العقاب عقاباً تتحمله الأنفس، وإنما عقاب أليم تطهرت به الحياة من دنس هؤلاء المكذبين وبهتانهم، وخلص بعد ذلك الدين لله.

---

(1) سورة الجاثية، الآيتان 22 ـ 26.

جدال القرآن الكريم للكافرين

اهتمام القرآن الكريم بالكفر والكافرين

تحدث القرآن الكريم عن نماذج الكافرين وأصنافهم، وهو يحلّل شخصياتهم ويصوّر عقلياتهم، ويصف أعمالهم، إنما يفعل ذلك من خلال تمثيله لنوعية الكافرين في طباعهم وسلوكهم، وأثرهم في الرسالة التي جاء بها القرآن الكريم، سلباً أو إيجاباً.

«كما اهتم الله تعالى اهتماماً بالغاً بهم، بحيث شغلوا حيزاً كبيراً من كتابه، لأنهم حقيقة واقعة في زمن الدعوات الإلَهية جميعاً. ولم يكن دورهم أن يقفوا بعيدين عنها أو مسالمين، ولكنهم كانوا من التنوع، بحيث وقف بعضهم منكراً لها أو مسالماً، ووقف آخرون معاندين جاحدين، ووقف فريق ثالث منهم معتدين، ووقف نوع رابع دساسين، يؤذون الأنبياء، غدراً وحيلة. هؤلاء جميعاً كونوا مجتمعاً، كانت له خطورته في كل دعوة إلَهية قام بها نبي أو رسول من أنبياء الله ورسله. لم يكن إذاً، موقف هؤلاء الكافرين بجميع أصنافهم سلبياً، ولكن كان موقفاً إيجابياً، ولهذا دخل القرآن معهم في جدال ليفحمهم بالحجّة الدامغة، وبيّن لهم كفرهم وعنادهم والمصير الذي ينتظرهم: عذاب في الدنيا، وخزي في الآخرة. دخل معهم القرآن الكريم في جدال ونقاش

مرير قصد إقناعهم، ولكنها لم تنفع معهم في كثير من الأحيان»[1].

والقرآن الكريم، حينما ينزل لجدال الكافرين ومحاجتهم، فليكشف عن عقلياتهم وكفرهم، وليكشف الشبهات التي يأتي بها هؤلاء الكافرون أحياناً للدفاع عن رأيهم، وأحياناً لتضليل المؤمنين ومحاولة الزيغ بهم.

ومن تتبع آيات القرآن الكريم التي تتحدث باستفاضة عن الكافرين وجدالهم وحجاجهم، يلاحظ عمق الأحداث التي مرت بها رسالات الله تعالى منذ عهد نوح - عليه السلام - حتى عهد إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد - عليهم السلام - فلم تكن أحداثاً سهلة يسيرة كما تصورها كتب التاريخ وكتب السيرة، التي تعنى بمظاهر الحديث فحسب، ولكنها كانت عميقة بعيدة الغور عمق النفس البشرية وعمق الصراع العقائدي بكل إرثه الثقيل، الذي جاء من الفكر أو العادة أو الخرافة أو التقليد أو التشبث بما في ذلك من المنفعة المادية والمعنوية.

لقد كشف القرآن السر الحقيقي عن عمق النفس البشرية، وهي تؤمن وهي تنافق، وهي تكفر وهي تعاند في كفرها أو تجادل بالباطل.

---

(1) أنظر: سلسلة أعداء الإسلام، صراع مع الملاحدة حتى العظم، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، جـ 2، ص 378، ط 2، دار القلم، دمشق، بيروت، 1980 م.

جدال الكافرين

الجدل بالباطل من الصفات البارزة والكبرى لدى الكافرين، وقد وصفهم الله تعالى بأنهم يجادلون بالباطل ليغلبوا به الحق، ويبطلوه من واقع استقراره في النفوس، كما هو مستقر ثابت في الواقع والحقيقة. ورغم وضوح الحقّ، فهم يطلبون الخوارق، ويستعجلون العذاب ولا يبتغون نفعاً: ﴿ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوٗا ﴿٥٦﴾ ﴾[1]. هؤلاء الكفار لم يقتصروا عل الجدل بالباطل، بل يضيفون إليه الهزء والسخرية، لتغطية فساد أسلحتهم التي يستعملونها في الجدال.

وليس الجدال أمراً مستحدثاً أو مستغرباً من الكافرين، بل هو من طبيعتهم الشريرة المعارضة للدعوة الإلهية ضدّ كل نبي مرسل، لقوله تعالى: ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾ ﴾[2]. فالذين كفروا، من بعد قوم نوح إلى مشركي قريش وكفار أهل الكتاب إلى غيرهم، كل

(1) سورة الكهف، الآية 56.

(2) سورة غافر، الآيتان 5 ـ 6.

أولئك قد جادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق،ولذا وصفهم الله تعالى بهذا الوصف، وجعله وصفاً ملازماً مستمراً في كل الكافرين، ما تجدد في الناس كفر، وكأنه شيء طبيعي ومرض مزمن: ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ﴿٣٥﴾ ﴾[1].

وحين يجادل الكفار، يذهبون مذاهب متهافتة، يتخبطون بغير علم تخبطاً عشوائياً، ويقرون أموراً باطلة، ويلجأون إلى الكذب تارة، وإلى المراوغة تارة أخرى، ويغالطون في الحقائق بالتمويه، سواء أكان بالتعميم أم بالتخصيص أم بالحذف أم بالإضافة أم بنحو ذلك: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصۡرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾[2].

إن جدال الكافرين المتعمد غير مبني أساساً على قاعدة، إنه ينصرف إلى سبيل الباطل، وليس لديهم أدنى شبهة توصلهم إلى حجّة مقبولة. أما أتباع الكافرين، فقد ورد فيهم قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾ ﴾[3]. «فهم يجادلون في الله بغير علم ويتبعون في جدالهم القادة الشياطين، الذين يضلونهم ويسوقونهم إلى عذاب النار»[4].

أما القادة الذي جاء سياق القرآن الكريم فيهم بقوله: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ﴿٨﴾ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي

---

(1) سورة غافر، الآية 35.
(2) سورة غافر، الآية 69.
(3) سورة الحج، الآيتان 3 ـ 4.
(4) تفسير القرآن العظيم، أنظر: ابن كثير، جـ 3، ص 206، طبعة دار المعارف، لبنان، بيروت 1980 م.

﴿الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ۝٩﴾[1]. فهؤلاء القادة يجادلون في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، مبالغين في موقفهم الريادي الاجتماعي، يصرفون الناس إلى مكانتهم بينهم ليحافظوا على منزلتهم في نفوس أتباعهم وفي نفوس الآخرين، ويزيد ذلك على منزلتهم، تنكشف أو تبدأ تنكشف ثغرات الضعف في حججهم التي يسوقونها، وكلما شعر أحدهم بضعف موقفه في النقاش، ثنى عطفه استكباراً ليضل عن سبيل الله. من أجل ذلك، ضاعف الله له العقاب، بأن له في الدنيا خزي، وفي الآخرة عذاب الحريق.

وأمام الأمر الواقع الذي عليه الكافرون، إقتضت ضرورة حماية رسالة الإسلام التي جاء بها محمد رسول الله - عليه الصلاة والسلام - وتثبيتها، وتأييدها، مقارعة السلاح بنظيره. كان على الرسول وأتباعه أن يقاوموا هذا الجدال بالجدال، ويقارعوا الحجّة بالحجّة، ويدحضوا الباطل بالحق، ولكن جدال المؤمنين يجب أن يكون بالتي هي أحسن، لقوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾[2].

يتضح مما تقدم أن طبيعة الكافرين العناد، بل العناد المركب أحياناً، والساذج في كثير من الأحيان. وهو راجع إلى موقفهم المتعصب تجاه الدعوة الإلَهية، والمعروف أن جدل الكافرين لا يرتقي إلى درجة الجدل المنطقي أحياناً، وأنه الجدل العقيم الفارغ من الحجّة تارة أخرى.

وقف القرآن الكريم للكفار بالمرصاد في كثير من الأحيان، ليجادلهم بالحجّة والمنطق والبرهان، وليؤكد تفاهة منطقهم الذي استندوا إليه، وليفضح مجادلتهم ويبطلها، ويبين لهم أنها غير منطقية وليست سليمة، وأنها مرفوضة، شكلاً ومضموناً.

---

(1) سورة الحج، الآيتان 8 ـ 9.

(2) سورة النحل، الآية 125.

والقرآن الكريم استخدم الجدل كأبرز وسيلة من وسائله الهامة ضد خصومه، مهما كان نوعهم، حتى يغزوا أعماق نفوسهم. ولم يستعمل القرآن الكريم المحاجّة مع المشركين وأهل الكتاب في عصر النبي محمد ﷺ فحسب، حيث إنه اتخذ من قصص الأنبياء مناسبات، ليفضح بها كل الحجج الواهية التي تقدم بها خصوم الدعوة في ذلك الوقت، حتى ينتصر على خصوم الدعوة في عهد الرسول ﷺ، لأن النماذج البشرية المعاندة واحدة، كما أشرت، سواء في عهد نوح أو إبراهيم أو موسى أو عيسى ـ عليهم السلام ـ لا تختلف في كل العصور والأزمنة. ولذلك، كان الجدل من أجل إثبات الفكرة والدفاع عنها مبدأ من مبادىء القرآن الكريم.

ومن خلال تتبع جدال جميع أصناف الكافرين، يلاحظ أن أقواهم جدلاً وأكثرهم منطقاً ودراية هم أهل الكتاب. ولهذا، أمر الله الرسول محمداً ﷺ ألاّ يجادلهم إلا بالتي هي أحسن، لقوله: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ ﴾[1].

إن لمثل هذه النصيحة الأثر العميق والتأثير في تبليغ رسالة الله وانتشارها، لقوله تعالى: ﴿ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِۚ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ ۝٦٧ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝٦٨ ﴾[2].

إذ إن منهج الرسول عليه الصلاة والسلام هو طريق الهدى، الطريق الموصل، وإذا ما تعرض لجدال بعض الأقوام، فعليه أن يختصر، فلا ضرورة لإضاعة الوقت والجهد، إذ إن الجدال يجدي مع القلوب المستعدة للهدى والمعرفة، لا مع القلة المصرة على الضلال والمكابرة.

---

(1) سورة العنكبوت، الآية 46.
(2) سورة الحج، الآيتان 67 ـ 68.

«إن طبيعة الجدال في الإنسان وواقع الجدل الذي اتبعه الكافرون من المشركين وأهل الكتاب والمعارضين للدعوة، دفعت بالقرآن الكريم أن ينزل إلى حلبة الصراع بأصول الجدل وآداب المحاجّة، ويناقش معارضيه اعتراضاتهم عن طريق أصول الجدل وآداب المحاجّة، وإعطاء الحجّة والرد على شبهاتهم وحججهم، إن كانت لديهم حجج، ذلك بما يتعلق بإثبات وجود الله أو مايعبدونه من دون الله، أو ما ينكرونه من الدين، أو موقفهم من الإسلام وأتباعه والأنبياء والرسل السابقين.

وأكثر ما كشف القرآن الكريم عن كيفية جدال الكافرين يوم القيامة، حيث هم أمام الحقيقة السافرة وجهاً لوجه، حينئذ يجادلون للتخلص من المسؤولية، ظناً منهم أن ذلك منجى لهم من العقاب الذي ينتظرهم»[1].

وجميع فئات وأصناف الكافرين، اتجه إليهم القرآن بالمناقشة عن طريق الجدل، حيث يقدم نموذجاً أو فرقة منهم الذين كفروا عن طريق الإصرار والتعنت. والغرض من جدال القرآن رد النفوس الشاردة إلى مأمنها، لتنعم بالسعادة والهناء، وتفوز بخيرَي الدنيا والآخرة، وللقضاء على الفئات الكافرة، التي تقف سداً منيعاً ضد رسالات الله والتابعين لها.

---

(1) صراع المذهب والعقيدة في القرآن، عبد الكريم غلاب، ص 382، 383، ط 2، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس (مع اختلاف) 1399 هـ/ 1979 م.

الجدل حول الطبيعة
مع الكافرين

إن أول ما اهتم به القرآن الكريم الجدل المنطقي المنظم، الذي يستند إلى أصول، مع كل الفئات ـ فئات الكافرين عموماً ـ ومناقشاتهم عموماً في جميع قضايا شكوكهم، والتي من أبرزها قضية وجود الخالق العظيم، ولو لم يأتوا بحجّة على ذلك.

وأبرز الحجج التي يستخدمها معهم، حيث يضع بين أيديهم نماذج من الخلق والإبداع، سواء أكان في الكون المحيط بهم أم في أنفسهم التي هي أقرب الأشياء إليهم ويبدأهم بها. من ذلك قوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾[1]. في هذه الآية الكريمة، يدلل الله تعالى على وجوده وقدرته بأنه الخلاق العليم المتصرف في شؤون عباده، يوجه إليهم السؤال كيف تفكرون بالله «أي كيف تجحدون وجوده أوتعبدون معه غيره ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾، أي وقد كنتم عدماً، فأخرجكم إلى الوجود»[2]، وكما في قوله:

---

(1) سورة البقرة، الآية 28.

(2) تفسير ابن كثير، جـ 1، ص 67، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1980 م.

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۝٣٦﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ۝١﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ۝١٧ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۝١٨ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ۝١٩ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ۝٢٠ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ۝٢١ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ۝٢٢﴾[3].

ساق القرآن الكريم آيات عديدة توضح مثل ذلك، إن الكفر في مواجهة الدلائل الواضحة كفر قبيح شنيع، مجرد من كل حجّة أو سند. والقرآن الكريم، يوجه الناس إلى ما لا بد من مواجهته والاعتراف به، والتسليم بمقتضياته، حيث واجه الإنسان بأطوار حياته ورحلته على ساحة البسيطة، هذه الحقيقة لا تحتاج إلى دليل، ولا جدوى من الهروب. كيف يكفر بالله من تلقى منه الحياة؟ فلا جدال، ولا مراء، فهي الحقيقة التي تعرض نفسها عليهم. ما كان يماري أو يجادل إلا الذين انطمست بصيرتهم، وانكمشت وعادت إلى تلك الجاهلية الأولى، قبل قرون مضت.

وبهذا الاستعراض والمواجهة السريعة، يوصل القرآن الكريم حقائقه إلى أعماق النفس، ويدفع بها، مهما تقوقعت تلك النفوس، وهذه طبيعة القرآن الكريم. وبالتدرج يرتقي النقاش، بعد إحالة المخاطبين إلى ملكوت السموات والأرض وهي أقرب بيئة إلى نفوسهم، وربما كانت أقرب من النفس عند من ينظرون بأعينهم، ولا يرون ببصيرتهم، ويأخذ هذا تدرجاً طبيعياً في مختلف الآيات، التي تجادل الكافرين في كيفية خلقهم وتصويرهم، حتى يفتح لهم أعينهم ليشاهدوا ما حولهم من آيات: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ

---

(1) سورة الطور، الآيتان 35 ـ 36.
(2) سورة الإنسان، الآية الأولى 1.
(3) سورة عبس، الآيات 17 ـ 22.

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٢٩﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ۝٣٠﴾[2]. وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۝٩ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ ۝١١﴾[3]. آيات كثيرة ساقها القرآن الكريم تحيل المخاطبين إلى التدبر والنظر في ملكوت السموات والأرض، وتبصرهم بخلقهم ومصيرهم، وتبصرهم بالمعاد والعذاب الذي أعده الله للكافرين.

إن ما حوته هذه الآيات يتخذ الأسلوب التقريري، كأنه يحكي واقعاً. إن عمق الأسلوب القرآني يؤكد الطابع الجدلي مع الذين ينكرون وجود الله وقدرته.

تلك هي آيات جدلية، ناقشت الكافرين وشككتهم في نكرانهم لقدرة الله تعالى وبديع صنعه.

ولقد نوع القرآن الكريم كافة أساليب الجدال مع الكافرين، علّهم يستشعرون، كالجدل الذي يبدأ بصيغة الاستفهام كما في قوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ۝١٦ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ۝١٧ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ۝١٨ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ إِنَّهُ

---

(1) سورة البقرة، الآية 29.
(2) سورة الأنبياء، الآية 30.
(3) سورة ق، الآيات 6 ـ 11.

بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ۝١٩ أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ۝٢٠ أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ ۚ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ۝٢١﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ۝٩٩﴾[2].

وبعد أن سد القرآن الكريم أمام الكافرين كل الطرق عن كل حجّة يأتون بها أو يفكرون في الإتيان بها، لإنكار قدرة الله تعالى وإبداعه وخلقه، وبعد أن ألزمهم الحجّة، لم يزدهم كفرهم إلاّ تمادياً في باطلهم وضلالهم.

ونظراً إلى أن حجج الكافرين والمشركين واحدة، فالقرآن الكريم، لم يفصل في أغلب الحالات بين الكفر والإشراك، إذ الإشراك هو أصل الكفر، وهو نقطة الانطلاق. ولهذا، كانت حجج المشركين هي نفسها حجج الكافرين.

(1) سورة الملك، الآيات 16 ـ 21.
(2) سورة الإسراء الآية 99.

جدال القرآن الكريم للكافرين
يوم القيامة

تتبع القرآن الكريم الكفار والمشركين، واستخدم في جدله معهم الجدل المنطقي، وهو بالطبع جدل متطور يأخذ طابعين.

أولهما:

طابع الجدال عمّا ينكرون من المصير الذي ينتظرهم يوم القيامة، إستمراراً لإنكارهم وجود الله تعالى، وكل ما جاءت به الشرائع السماوية المتلاحقة، والتي منها البعث والجزاء يوم القيامة.

وثانيهما:

طابع الجدال معهم عن يوم القيامة، وعن كل ما أنكروه، عن وجود الله تعالى وشرائعه، وإقامة الحجّة عليهم أثناء ذلك، تأكيداً للعقيدة وما حوته من جهة، ثم درساً للشاهدين الذين يستحضر القرآن الكريم أمامهم مشهداً من مشاهد يوم القيامة، لكي يتأثروا ويتعظوا، فيدخلوا في دين الله الذي أقره لعباده.

ومن الطابع الثاني: جادل القرآن الكريم الكافرين عن صحة البعث، حيث وجه الخطاب الكريم إلى الناس عموماً تارة، وإلى الكافرين

والمشركين خصوصاً، تارة أخرى، حيث فصل بينهم، يقنعهم بالحجّة المنطقية الواضحة.

وصف القرآن موقف الكافرين من البعث وصفاً دقيقاً ممحصاً، كأنه يذكرهم بكل خطأ اقترفوه، وبكل فرية من إنكارهم وجحودهم، علّهم يقفون عندها عندما يكشف الغيب زيفهم وجحودهم وإصرارهم. وفي ذلك يقول تعالى حكاية عن ثمود، قوم هود: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾﴾[1].

وكثير من الآيات حكت عن إنكارهم ليوم القيامة، وتنوعت فيها المحاجّة والجدل مباشراً أحياناً، وبالمنطق المواجه، وأحياناً يلجأ إلى التوجيه والنصح أو الإخبار المجرد ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾﴾[3].

والطابع الثاني:

يقوم على جدال الكافرين والمؤمنين في يوم القيامة، بعد وضوح

(1) سورة المؤمنون، الآيات 33 ـ 38.
(2) سورة سبأ، الآيتان 29 ـ 30.
(3) سورة التغابن، الآية 7.

الحقيقة، حيث كل شيء أمامهم ويرون نتيجة إنكارهم وجحودهم. والقرآن الكريم إذ يسترجع هذا الواقع المنتظر ليواجه حججهم الواهية من جهة، وليضعهم أمام الواقع، وكأن كل شيء واقع، وليكن ذلك درساً لمن تسول له نفسه الاعتماد على هذه الحجج، والانسياق وراءها. ولمْ يترك القرآن الكريم حجّة من حججهم إلاّ واجهها، ولم يترك موقفاً من مواقفهم في إتيان الساعة، إلاّ أبطله بالمنطق والحجّة والبرهان.

ولقد تعددت أساليب القرآن الكريم وتنوعت، حسب متطلبات
المواقف، واستخدم مع الجاحدين أسلوب الحكاية عما سيجري حتماً،
سيل من الآيات في سور مختلفة توضح ذلك: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ
لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٢٢) ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا وَٱللَّهِ رَبِّنَا
مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣)﴾[1]، وقوله: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١١)
وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ (١٢) وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا وَكَانُوا بِشُرَكَآئِهِمْ
كَٰفِرِينَ (١٣) وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ (١٤) فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ
فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ (١٥) وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْءَاخِرَةِ فَأُولَٰٓئِكَ فِى
ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (١٦)﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ
مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا
ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ (٤٧)﴾[3]، وقوله: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا
رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ
لَكَٰذِبُونَ (٨٦)﴾[4]. وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ

---

(1) سورة الأنعام، الآيتان 22 ـ 23.
(2) سورة الروم، الآيات 11 ـ 16.
(3) سورة فصلت، الآية 47.
(4) سورة النحل، الآية 86.

﴿كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ۝٦٢ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ۝٦٣﴾[1].

ومن أروع وأرقى الأساليب القرآنية في هذا المنهج من محاجّة الكافرين والمشركين، استعراض مشهد للجدال بين الضالين والمضللين، كما في الآيات: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ۝٣١ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ۝٣٢ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٣٣﴾[2].

ومن محاجّة الكافرين ما يصور من مشاهد يوم القيامة، وكأنه واقع، كما في الآيات من قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ۝٣٣ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ۝٣٦ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۝٣٧ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝٣٨ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۝٣٩ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝٤٠ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝٤١ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ۝٤٢﴾[3].

وقبل ذلك ما جاء من التهديد الصريح لإقامة الحجّة على الكافرين والجاحدين، قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا

(2) سورة القصص، الآيتان 62 ـ 63.
(2) سورة سبأ، الآيات 31 ـ 33.
(3) سورة عبس، الآيات 33 ـ 42.

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٧٠ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ۝٧١ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ۝٧٢ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ۝٧٣﴾[1].

كشفت تلك الآيات عن العقاب الأليم، الذي سيلقاه كل الكافرين. والذي يهمني في هذا الأمر، هو جانب المحاجّة، إذ الإقناع هو السبيل الأمثل الذي استخدمه القرآن الكريم في كافة ما يدعو إليه، وهو جانب لا يقتصر على المحاجّة في الحياة الأولى، بل يتعداه إلى المحاجّة يوم القيامة.

وقد استخدم القرآن الكريم مع الكافرين الحوار والجدل اللذين يأخذان طابع المحاجّة يوم القيامة عن الإشراك والمشركين، من ذلك قوله: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝٣٤ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ ۚ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّي إِلَّا أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝٣٥﴾[2].

ولقد ألجأ القرآن الكريم الكافرين والمشركين إلى أسلوب الاستسلام، في محاجته لهم، يكشف عن نياتهم، ويوضح حقيقة أمرهم، فيستسلمون للحقيقة. وكي لا ينكروا ما أشركوا به، محاولة للتخلص من المسؤولية: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۝٥٢﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ۝٨٥﴾[4].

والقصد من الجدال والحوار، هو فضح الكافرين والمشركين يوم القيامة، ووضعهم أمام مسؤولياتهم بإقامة الحجّة، سواء كانوا في الوقت

---

(1) سورة غافر، الآيات 70 ـ 73.
(2) سورة يونس، الآيتان 34 ـ 35.
(3) سورة الإسراء، الآية 52.
(4) سورة النمل، الآية 85.

الذي يستطيعون فيه المحاجّة والحوار في دنياهم، أو في الوقت الذي لا يستطيعون فيه حواراً ولا مجادلة ولا محاجّة، وإنما الاستسلام ومحاولة التخلص من المسؤليات، حين تزاح الستارة يوم القيامة؛ وهو واقع لا محالة.

ومن صور الجدل والحوار التي استخدمها القرآن الكريم، وهي لا تختص بموضوع معين، ولا بزمن معين، إذ هي جدال عام. وهو عمّا ينكرونه من الدين سواء كان ذلك دعوة دينية أو كتاباً منزلاً أو جزءاً من الدعوة. والآيات في هذا المجال تعرض صورة مجموعة من الكافرين والمشركين، وتكشف عن عقلياتهم المختلفة، وهي في الوقت نفسه، تقيم الحجّة والبرهان على ضلالهم وخطئهم. غير أن أسلوب القرآن الكريم يختلف فيها باختلاف النماذج السابقة، وفي بعض الآيات يستخدم أسلوب الحكاية، ويمزجه بأسئلة محرجة للغاية، القصد منها إعجازهم، لأنهم لا يملكون لها جواباً، حيث يقحمهم بالعديد من الأسئلة، وكثيراً ما يستعمل القرآن الكريم أسلوب الحكاية عن تصرفاتهم، يمزجه بسخرية، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾[1].

والناظر في هذه الآيات، لا يجد حواراً ولا جدلاً، ولكنه في الواقع يجادلهم في هذا النوع من الإشراك الذي يدفع بهم إلى تصرفات خرقاء، مثل قسمة الحرث والأنعام بين الله وشركائهم الذين يدعون. وذلك نوع من الجدال بطريقة غير مباشرة، كما سيتضح في آيات أخرى. وقد ينتقل القرآن الكريم إلى أسلوب آخر، حيث يتعرض إلى قصة إشراك

(1) سورة الأنعام، الآية 136.

بعض أهل الكتاب، ليدفع بالرسول محمد ﷺ إلى حوار ببساطة، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴿٣٦﴾﴾[1].

وفي هذا الجدال أجد جدلاً يكتسي طابعاً حاداً، حيث يوجه الله تعالى رسوله محمداً ﷺ ليردّ على حجج الكافرين والمشركين في صحة الكتاب المنزّل عليه، وإثبات نبوته، في هذه الآيات يتنوع الأسلوب القرآني الذي يتنقل بين الحكاية والخطاب والاستفهام الإنكاري، والسخرية من منطق الكافرين.

من ذلك قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ

(1) سورة الرعد، الآية 36.
(2) سورة الأحقاف، الآيات 8 ـ 11.
(3) سورة الطور، الآيات 35 ـ 43.

اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (26) فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَٰذَا الَّذِي
كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ (27) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ
مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (28) قُلْ هُوَ الرَّحْمَٰنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (29)
قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ (30)﴾[1].

ولقد كان كفار قريش يقولون نحن أفضل من المسلمين، بل نحن أعز منهم. وساق القرآن الكريم آيات تناقشهم فيما يزعمون، من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (34) أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (35) مَا
لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (36) أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (37) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ
(38) أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ (39) سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ
زَعِيمٌ (40) أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ (41) يَوْمَ يُكْشَفُ عَن
سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (42) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا
يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ (43) فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ
لَا يَعْلَمُونَ (44) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (45) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ (46)
أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (47)﴾[2].

ومن الأساليب التي اتخذها القرآن الكريم طريقاً للإقناع والتأثير، الأسلوب القصصي، وضرب الأمثال، وتضمين كل ذلك الأدلة على بطلان ما يعتقدون.

إن الأسلوب القصصي وضرب الأمثال، من أقوى الأساليب التي تميز بها القرآن الكريم، وهو أسلوب بارع بالغ القوة والتأثير في الإقناع وإبراز الحجّة. وهذه قصة وردت في سورة الكهف، تناقش المشركين

---

(1) سورة الملك، الآيات 25 ـ 30.
(2) سورة القلم، الآيات 34 ـ 47.

والكافرين، عقيدتهم وحججهم، يقول تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾﴾[1].

إن سياق القرآن الكريم لهذا المثل، لا يقصد منه القصة، بقدر ما يقصد منه المناقشة والحوار والبرهنة على خطأ ما أشركوا به، وما اعتقدوه، وهو من أساليب القرآن الكريم القوية في التأثير وبلوغ القصد.

---

(1) سورة الكهف، الآيات 32 ـ 42.

صور من حوار
الأقوام السابقين

وينتقل القرآن الكريم إلى صورة أخرى من صور الحوار والمجادلة، التي استخدمها في مناقشة الكافرين والمشركين، وهي جدال الأقوام السابقين الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم في تاريخ الرسالات السماوية. قصص تحكي واقع جدال الأنبياء لأقوامهم، الذين قاوموا دعواتهم ورسالاتهم بالمنطق الذي استخدموه، وبالعناد والمحاجّة غير المستقيمة أحياناً، وبالادعاء والافتراء تارة أخرى.

«ومن المعروف، وكما أشرت في ثنايا البحث، أن الإيمان واحد والكفر واحد، وأن الكافرين والمشركين في عهد الرسول ﷺ هم نسخة من أولئك الكافرين والمشركين، الذين ينحدرون من عهد نوح أو هود أو صالح أو إبراهيم أو موسى أو عيسى ـ عليهم السلام ـ.

من أجل ذلك كانت الأمثلة التي ساقها القرآن من جدال وحوار الأقوام السابقين، لا يراد بها الاحتجاج على قوم معينين كقوم محمد ﷺ، وعلى الذين يأتون من بعده فيكفرون أو ينكرون الله في آياته وإبداعاته. وإنما يستحضر القرآن مواقف الأقوام السابقين ليؤكد الحجّة ضد أمثالهم وأشباههم من الكافرين والمشركين»[1]، كما في قوله تعالى:

(1) أنظر: دراسات وبحوث في الفكر الإسلامي المعاصر، د. فتحي الدريني، ط 1، =

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا ۚ وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ ۚ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝٦﴾[1].

وإلى مقال آخر يسوقه القرآن الكريم وهو جدال عام، لا يقصد به قوم معينون، إنما هو جدل وحجاج عام، كما في سياق الآيات من قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝٨٢ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۝٨٣ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ۝٨٤ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ۝٨٥﴾[2].

غير أنه توجد قصص أخرى، تعالج وتحدد قوماً من هؤلاء الكافرين أو المشركين، وتحكي تفصيلياً قصتهم مع أنبيائهم، وموقفهم منهم، وطريقة الحوار والجدال معهم، ولقد تضمن البحث مبحثاً خاصاً بحوار وجدال ومحاجة الأنبياء لأقوامهم المشركين والكافرين.

وعلى الرغم من أن الكفر يتسم بالطابع السلبي، إلا أن أتباعه لم يقفوا موقفاً سلبياً تجاه دعوات الرسل ـ عليهم السلام ـ للإيمان، بل تصارعوا مع القرآن الكريم فكرياً وعملياً. ومن هنا، تتبع القرآن الطابع النفسي لهؤلاء الكافرين، وأوضح أن موقفهم أولاً وأخيراً مبني على العناد المطلق. ومن خلال تتبع مجريات الأحداث، يتضح أن منشأ هذا العناد عائد إلى عدة عوامل، منها:

= مجلد 2، ص 572 وما بعدها، دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا 1988 م.

(1) سورة التغابن، الآيتان 5 ـ 6.

(2) سورة غافر، الآية 82 ـ 85.

العناد من أجل العناد

نفوس الكافرين متحجرة، لا تتفتح أمام أي دعوة موجهة إليها، وتأبى الاهتداء إلى الصواب: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾﴾[1].

ومن غير شك، إن عنادهم هذا لا يستند إلى أي دليل أو منطق أو حجّة، وإنما هو لمجرد العناد، لا أكثر، إذ إنهم معاندون متمسكون بالقديم، ولو كان لا ينفعهم ولا يضرهم: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾[2]، ويسوق القرآن الكريم عنادهم ضد رسول من رسله ـ عليهم السلام ـ وهو موسى ـ عليه السلام ـ فيقول: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾[3].

تقليد الآباء

ساق القرآن الكريم أدلة قاطعة واقعة، صورت تشبث المعاندين بما كان عليه آباؤهم، ولو كان آباؤهم على ضلال مبين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾[4].

لقد وقف هؤلاء المعاندون سداً ضد كل رسالات الله إلى البشرية. وإلى حكاية أخرى من حكاياتهم، يحكيها القرآن الكريم عنهم، وهم

---

(1) سورة الحج، الآية 55.
(2) سورة الزخرف، الآية 22.
(3) سورة يونس، الآية 78.
(4) سورة لقمان، الآية 21.

قوم عاد ووقفتهم المعاندة ضد رسولهم هود - عليه السلام - الذين وصل بهم العناد إلى أن اتهموه: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾[1].

وليس قوم نوح بأحسن منهم، بل كانت حجتهم شبيهة بمنطق إخوان لهم، أمثال عاد وثمود. وساق القرآن الكريم ذلك العناد بصورة حجاج في قوله: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾﴾[2]. كما بين: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾﴾[3].

صورت الآية السابقة موقف كفار قريش، الذين يقفون موقفاً مشابهاً لأمثالهم المعاندين المقلدين. كما صور القرآن الكريم أيضاً مواقف العناد اليهودي، وهي من غير شك مواقف تعنت وعداء، وخاصة أن طبيعة اليهود هي العناد والتشكيك، فشككوا في بعثة الرسول محمد ﷺ، ووقفوا ضد دعوته الحق. صور القرآن عنادهم في آيات كثيرة، منها: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾[4].

---

(1) سورة المؤمنون، الآيتان 33 - 34.
(2) سورة المؤمنون، الآيتان 24 - 25.
(3) سورة سبأ، الآية 43.
(4) سورة القصص، الآية 48.

آيات عديدة ساقها القرآن الكريم، صورت الطابع النفسي لأولئك المعاندين، وجلّ اهتمامهم منصب على الكذب المحض، فقد أعيتهم الحيلة، وألجمهم القرآن الكريم في كافة ما جادلوا فيه، فلجأوا إلى الكذب والمراوغة، حتى لا يكلفوا أنفسهم البحث عن أي حجّة، ولو شبهة، لما يزعمون من أكاذيب. ومما لا شك فيه أن انعدام الحجّة، يعتبر برهاناً قاطعاً وحجّة دامغة تبرهن على سخف العناد والمعاندين، مما تركهم في دوامة يتيهون: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾﴾ (1). وقوله: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ (2).

يوضح هذا الوصف، الذي يسوقه القرآن الكريم، ليحاج أولئك الذين يكذبون بآيات الله تعالى، أنهم ليسوا صماً وبكماً، ولكنهم صمّ وبكم، وفي ظلمات يعمهون، ولا يبصرون.

ومن خلال تتبع صور الجدال مع الكافرين والمشركين، وما ادعوه على الله ـ سبحانه وتعالى ـ، ساق القرآن الكريم صورة من ادعاء النصارى، الذين حيث نسبوا إليه الولد، وهذا ما تجادلهم فيه الآيات: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَـٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَـٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ (3).

ومن أروع صور الجدال مع الكافرين والمشركين، ما يكشف عن

---

(1) سورة الأنعام، الآية 39.
(2) سورة هود، الآية 24.
(3) سورة مريم، الآيات 88 ـ 95.

طبيعة الإشراك والكفر اللذين لا حجّة معهما، ولا حتى شبهة تساندهما، وخاصة عندما ألجأهم عنادهم إلى تحدي الله تعالى وآياته.

وينزل القرآن الكريم إلى ساحتهم، ويقارعهم بالسلاح الذي شهروه عليه، بالتحدي كذلك، وقد بلغ بهم التحدي أنهم قالوا: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾[1] .وساق القرآن الكريم آيات عديدة، في عدة سور، تصور هذا الجدل القائم أصلاً على التحدي، ويجيبهم بتحدٍ أقوى وأبلغ من تحديهم،من ذلك قوله تعالى:﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾[3].

إن مصدر تلوين الجدال وأنواع الحجج، هو الصمود في المحاجّة، إذ إن القرآن الكريم، لا يعبأ بحجج المنكرين والمعارضين، لأنها لا تستند إلى حق، بل هي حجج واهية مبنية على جهل.

ويستمر القرآن الكريم في جدال الكافرين، بالحجج المنطقية، وبالأسلوب الجدلي الذي اتبعه معهم.

ويردهم من جديد إلى معرض الكون، ويذكر بخلق السموات والأرض: ﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾﴾[4]

---

(1) سورة الأنفال، الآية 32.
(2) سورة مريم، الآيات 77 ـ 79.
(3) سورة التوبة، الآية 32.
(4) سورة فصلت، الآية 9.

وبعد هذه الوقفة معهم، ينذرهم إذا ما أعرضوا، بعد ذلك، بصاعقة مثل صاعقة عاد وثمود، ويقص عليهم، للعبرة والذكرى، قصة قومي عادوثمود: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ۝١٥ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ ۝١٦ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝١٧﴾[1].

ثم يستمر القرآن الكريم في إضفاء الملامح الكبرى على صور الكافرين، تارة بالتمثيل، وتارة بالحكاية: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ۝٢٦﴾[2]. وتارة بالجزاء الذي أعده الله للكافرين يوم القيامة، مصداقاً لقوله: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝١٩ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٢٠ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٢١﴾[3].

لقد تنوعت أساليب الجدل القرآني مع الكافرين، بغية الوصول معهم إلى الإقناع، الذي هو الهدف الأول والأسمى من جدل القرآن الكريم عموماً.

لقد خاض معهم جولات علنية صريحة، عنيفة وقوية، حسبما تقتضيه تلك المواقف والمواجهة معهم.

---

(1) سورة فصلت، الآيات 15 ـ 17.
(2) سورة فصلت، الآية 26.
(3) سورة فصلت، الآيات 19 ـ 21.

ولعله، هنا، بعد تلك المعايشة معهم، يريد أن يوصلهم إلى موردهم الذي ينتظرهم، ويتركهم إلى مصيرهم الذي اختاروه:

﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ ﴾[1].

(1) سورة سبأ، الآية 17.

المبحث الثاني

«جدال ومحاجّة القرآن الكريم للمنافقين»

جدل القرآن الكريم للمنافقين

النفاق داء قديم ابتلي به الناس، وأغلب الظن أنه نشأ مع الإنسان، فقد فطر الله الناس مختلفي الطبائع، قسوة وضعفاً، وشجاعة وجبناً. والنفاق في أكثر الأحيان، يلازم ذوي النفوس الضعيفة التي يسهل تلوينها بوسائل الإغراء.

والمنافقون هم الذين آمنوا بأفواههم وألسنتهم، ولم تؤمن قلوبهم، فأضمروا خلاف ما أظهروا، ولهذا قال فيهم تعالى: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾[1].

وسماهم (المنافقين)، وكانوا أخبث الكفرة، وأبغضهم وأمقتهم عند الله سبحانه، لأنهم خلطوا الإيمان بالكفر، تمويهاً وتدليساً، وبالشرك استهزاءً وخداعاً.

وقد شغلت الآيات القرآنية، المنزلة في شأن النفاق والمنافقين، حيزاً كبيراً من كتاب الله تعالى.

لقد كشف الله تعالى عن خبثهم ومكرهم، وفضحهم، وسفههم،

(1) سورة النساء، الآية 143.

واستجهلهم، واستهزأ بهم، وتهكم بفعلهم، وسخر بطغيانهم، ووصفهم بأنهم صمّ بُكم عُمي، وضرب لهم في القرآن الأمثال الشنيعة.

ونظراً إلى كثرتهم، وشدة ابتلاء الإسلام والمسلمين بهم، لأنهم منسوبون إليه، وفي عداد قوته، وهم في الحقيقة ألدّ أعدائه، وقفوا ضده، منذ أول غزوة خاضها مع الكفار والمشركين.

وهم على هذا الوجه من شر ما ابتلي بهم الأمم والجماعات، لأنهم يظاهرون أعداءها، ويدلون على مواطن الضعف فيها، لأنهم على بينة من أمرها. ولقد انتبهت الأمم لخطر هذا الطابور، ووقفت ضده موقفاً متصلباً، وقاومته مقاومة عنيفة، وقست عليه.

كما استنكر الإسلام النفاق في الأقوال والأعمال، في أي صورة، وعلى أي وجه من وجوهه كان، لأن عواقبه وخيمة، واعتبر النفاق رذيلة اجتماعية خطيرة، لها أبعادها، ترفع الثقة بين أفراد المجتمع المتماسك، في كافة شؤونهم وأعمالهم؛ إذ النفاق يذهب ببهاء ونتاج التعاون بينهم، ويفقدهم الثقة المتبادلة بينهم، مما يؤدي، استطراداً، إلى إيقاف عجلة الحياة بينهم، مما يجعلهم متخلفين عن الركب الحضاري الذي ينشدونه.

والنفاق في ذاته خلق ذميم، وهو مدعاة لطائفة أخرى من الأخلاق الذميمة، كالغدر والكذب والخيانة والرشوة والتجسس والنميمة والفجور والجبن. وهذه كلها أمراض، تعود على المجتمع بالخسران والخيبة.

لهذا كله، أنكر الإسلام النفاق والمنافقين، وصورهم في أبشع الصور وأقبحها، وأنذرهم شديد العذاب وسوء المنقلب، ولم يعتد بأعمالهم لمجانبتها الإخلاص والقصد السوي: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا

﴿أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾﴾[1].

وقال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾[2].

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾[3].

هذا توضيح القرآن الكريم للنفاق والمنافقين وموقفه منهم. وإنه لموقف صارم حازم، هم جديرون به، لأنهم هم الذين جلبوا المذلة لأنفسهم، وهم الذين يسلبون أمن مجتمعهم وطمأنينته.

لقد ذاق المسلمون الأمرّين من هؤلاء، على الرغم من أنهم يزعمون دوماً أنهم مصلحون، وأنهم يحسنون صنعاً: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾[4].

«لقد صور الله تعالى حيرة المنافقين وتذبذبهم، فهم في أمر محير، لا يحسدون عليه. يتخبطون بين ريب وشك، لأنهم ضعفاء في تفكيرهم ومعتقداتهم، حتى في ما بين أنفسهم وبينهم، وبين الله تعالى ورسوله، وأمر البعث، على الرغم من أنهم يدعون أنهم يحسنون صنعاً، وأنهم هم المصلحون حقاً. والحقيقة أنهم يفسدون لأن قولهم هذا مجانب الحقيقة، ويعتبر عين السفه، حيث إن السفيه يفسد من حيث يرى أنه يصلح،

---

(1) سورة النساء، الآية 138.
(2) سورة التوبة، الآية 68.
(3) سورة التوبة، الآية 73.
(4) سورة البقرة، الآيات 11 ـ 13.

ويهدم من حيث يرى أنه يبني، وهذا حال المنافقين وما هم عليه. ولهذا وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾، وبقوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾»[1].

ولما كان أمرهم يشتبه على كثير من الناس، فقد أمعن الله تعالى في ذكرهم بصفات متعددة: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾[2].

ومن خلال تتبع مسلكهم، يتضح أن المنافقين عمي عن الحق، على قلوبهم أقفال، فهم لا يفقهون، جاءهم نور الإيمان، فلم ينتفعوا به، «وخرجوا في طلب التجارة البائرة في بحر الظلمات، فركبوا مراكب الشبهة والشكوك، تجري بهم في موج الخيالات.. فلعبت بسفنهم الريح العاصف فألقتها بين سفن الهالكين»[3].

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾﴾[4].

«جاءت هذه الأمثلة التي تناولتها الآيات، والتمثيل الذي ضربه القرآن يصور حال المنافقين، وما هم عليه من الخبث والغباوة والجبن، فهم في واد، والإيمان الذي يرضاه الله لعباده في واد، وأن كل أمانيهم

---

(1) أنظر: تفسير ابن جرير الطبري، المجلد الأول، الجزء الأول، ص 100، الطبعة الرابعة، دار المعرفة للطباعة والنشر، 1980 م.

(2) سورة البقرة، الآيتان 9، 10.

(3) مدارج السالكين ابن القيم الجوزية، تحقيق محمد أحمد الفقي، جـ 1، ص 350، الطبعة الثالثة، الناشر دارالكتاب العربي، بيروت، لبنان 1973 م.

(4) سورة البقرة، الآيتان 17، 18.

وادعائهم كالرماد، الذي اشتدت به العواصف، أو كالسراب. فما أكذبهم، وكذبهم يعود عليهم بالحسرات والندمات يوم يطرحون في نار جهنم خالدين فيها أبداً»[1].

وفي تشبيه حالهم، يقول تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ۚ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ ۖ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾[2].

إن «إفادة تشبيه المنافقين، وهو تشبيه واحد بالصيب وما فيه من الرعد والبرق والظلمات، ليكمل معنى التشبيه المراد الذي هو الإخبار عنهم بحالهم في الإسلام، وترددهم فيه، فإذا مالوا إليه بالظاهر، بما يظهرون منه، أشبهت حالهم حال من يضيء له البرق، فيمشي فيه، فإذا غمض أيمانهم وقعوا في تلك الظلمات التي في الصيب فلا يهتدون سبيلاً»[3].

ونظراً إلى تذبذب حالة المنافق، فإن من شروط توبته هو الإخلاص، لأن دينه الرياء، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾﴾[4].

والمنافقون كفار في الحقيقة، لأن ما أظهروه من الإيمان غير معتد به

(1) أنظر: من روائع القرآن، د. محمد سعيد البوطي، ص 219، 220، الطبعة الخامسة، مكتبة الفارابي.
(2) سورة البقرة، الآيتان 19، 20.
(3) بديع القرآن، لابن أبي الأصبع المصري، تحقيق د. حنفي محمد شرف الدين، ص 62، الطبعة الثانية، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، الفجالة، القاهرة.
(4) سورة النساء، الآيتان 145 ـ 146.

لمخالفتهم ما يبطنون، إذ «الأعمال بالنيات» و«لكل امرىء ما نوى».

ولهذا قال فيهم تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨﴾[1]. إذ بيتوا النية على أن ينسلخوا من الإيمان والإسلام والدعوة لهما.

«وللنفاق صور مختلفة، تبدو كل صورة منه، في الواقع، حسب الوضع النفسي الذي يلائمها من الحدث أو الواقعة التي تواجهها، وكل صورة لها واقعها وخلفياتها، والعوامل الداخلية المحركة لها. ولذلك، كان القرآن الكريم متتبعاً لهذه الصور، مهما تعددت، محللاً لها، كاشفاً سرها، معرياً لخفاياها»[2].

ومن هذه الصور، تلك الصورة التي وصف الله فيها المنافقين بالجبن والخوف: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾[3]. «هذا وصف الله تعالى، مبالغة منه عن حال المنافقين، وشدة خوفهم وجبنهم وقت البأس والشدة، نتيجة خوفهم وحذار أن يصيبهم الموت من أي جهة كان، فصورها لهم بحال المغشي عليهم، ثم زاد بأن وصفهم بحال المغشي عليه من الموت، لأن حال المغشي عليه من الموت أشد حالة من غيره.

وخوفهم هذا هو الذي دعاهم إلى النفاق الذي هم عليه، ولهذا أحبط الله عملهم وكانوا من الخاسرين.

والقرآن الكريم لا يميز بين الكفر المطلق الصريح، والكفر الخفي، والذي يعتبره نفاقاً، لأن المنافق لم يقصد في إيمانه وجه الله تعالى»[4].

---

(1) سورة الصف، الآية 8.
(2) أنظر: الدسوقي، في تاريخ القرآن وعلومه، ط 1، ص 132.
(3) سورة الأحزاب، الآية 19.
(4) أنظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، الجزء الرابع عشر، ص 153، 154، =

ثم زاد القرآن الكريم وأكد بأن النفاق مرض نفسي، وعبر عنه أصدق تعبير وأبلغه، بأن في قلوبهم مرض: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ ﴾[2].

وقد وصم التعبير القرآني النفاق بمرض القلب لخطورة هذا المرض واستعصاء علاجه، رغم تقدم العلم والطب. وكانت التحليلات التي أعطاها القرآن الكريم لفئة المنافقين من الناس، الذين وقفوا ضد رسالة الإسلام، منسجمة مع مرض القلب، الذي لا ينتظر له شفاء.

إن المجتمع الإسلامي، يأبى أن يسالم هذه الشرذمة من المرضى. ولذلك، قارعهم القرآن الكريم، وشهر عليهم كافة أسلحته. وأخطر ما حاربهم بها هذه الفضيحة التي تعتمد على التحليل النفسي.

كذلك، حاربهم عن طريق الحكاية القصصية لأقوالهم وأفعالهم، التي يندى لها الجبين.

ويكفي أن وردت في القرآن الكريم سورة باسمهم، تفضحهم، وتعريهم أمام الملأ، وهي سورة «المنافقون». وسورة التوبة، حوت كثيراً من أحوالهم ومعاملتهم للنبي ﷺ والمسلمين.

تتبع الله تعالى كافة المنافقين في كثير من آيات وسور القرآن الكريم، حيث تحسس كل أوضاعهم النفسية والخلقية والاجتماعية والمصيرية، وكان يحاكمهم محاكمة صارمة، لا في الدنيا فحسب، بل كذلك في

= الطبعة الثانية، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1952 م.
(1) سورة الأحزاب، الآية 12.
(2) سورة الأحزاب، الآية 60.

الآخرة؛ وهي أشد وأقوى.

ومن خلال ذلك، تبين أن هدفه الحقيقي تجاه المنافقين، هو إصدار حكمه العادل عليهم. ولكن الهدف هو تفهيم المجتمع، أنهم إنما يخربونه بأساليبهم وأكاذيبهم، لأن كافة الديانات السماوية التي أرادها الله، والشرائع أقيمت على أرضية صلبة، وطرقها واضحة المسالك.

وما دام أمر المنافقين معروفاً، وأنهم يتسترون ويتختلون ويكيدون، وما كيدهم إلا ضلال، دون أن يظهروا بوجه واضح في الكيد والمكر والخديعة كان لزاماً فضحهم، وكانوا أول جماعة أقام عليها الحد والطرد، وحكم عليها بمصير محتوم.

والمنافقون والمنافقات، في كل زمان ومكان، تختلف أفعالهم وأقوالهم، ولكنها ترجع إلى دافع واحد: وتنبع من معين واحد. سوء الطوية ولؤم السريرة والغمز والدس، والضعف عن المواجهة، والجبن عن المصارحة. تلك سماتهم الأصلية. أما سلوكهم، فهو الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف، والبخل بالمال، إلا أن يبذلوه رياء الناس. وهم حين يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف، إنما يفعلون ذلك دساً وهمساً وغمزاً ولمزاً، لأنهم لا يجرؤون على الجهر.

فهم خارجون عن الإيمان، منحرفون عن الطريق، وقد وعدهم الله مصيراً كمصير الكفار: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِىَ حَسْبُهُمْۚ﴾[1]، وفيها كفايتهم، لأنهم جمعوا بين قبح الكفر وقبح النفاق.

«هذه الطبيعة الفاسدة المنحرفة الضالة، ليست جديدة في تاريخ البشرية، لها نظائر وأمثال، ولقد حوى تاريخ البشرية، من قبل هؤلاء،

(1) سورة التوبة، الآية 68.

نماذج كثيرة من هذا الطراز. ولقد لاقى السابقون مصائر تليق بفسوقهم عن الفطرة المستقيمة، والطريق القويم، بعدما استمتعوا بنصيبهم المقدر في هذه الأرض، وكانوا أشد قوة وأكثر أموالاً وأولاداً، فلم يغنِ عنهم ذلك كله شيئاً. والقرآن الكريم يذكر القوم لعلهم يهتدون، حتى لا يسلكوا طريق أسلافهم، يحذرهم أن يقعوا فيما وقعوا فيه»[1].

هذه قبسة من نور الذكر الحكيم، الذي أضاء الله به الخليقة، لتهتدي الأجيال بهديه، وتسير على ضوئه، وتتمسك به إذا تشابكت بها أغصان الباطل.

وما أردت بهذا البحث المتواضع إحصاء لأصول جدل وآداب محاجّة القرآن الكريم في استدلاله، ولا استقراء لمسالكه في جدله، وتنوع مفاهيم حجاجه. فدون ذلك ينفق القوي وينبت الظهر ويقصر الشأو، فجدل القرآن وحجاجه دونه الإعجاز، حتى عند من بلغ شأواً في ذلك، ففوق كل ذي علم عليم.

ولكن أردت أن يرى القارىء الكريم مثلاً من أصول الجدل القرآني وآداب محاجته، وكيف أنها كانت أعلى من المنطق تدقيقاً، وإن لم تتقيد بأساليب المناطقة، ولا بأشكال الأقيسة، ففيها التقديم والتأخير، والحذف والإطناب، تبعاً لحسن البيان، لا تبعاً لأشكال البرهان.

إن فنية جدل القرآن وحواره، تختلف عن صياغة أساليب المجادلة والمحاجّة. وتنقل الصياغة الفنية إلى القارىء، في أمانة الحق، كل ما يريد، تصويراً دقيقاً بالغاً، فيه أقصى غايات الكمال، فهو كلام رب العالمين. ومثل ذلك يحدث في المحاجّة وتقديم البراهين المؤيدة للحق. وقد تنوعت الأساليب المستخدمة، لتتناسب مع القضية المطروحة والبرهان المعروض.

---

(1) أنظر: الدسوقي، في تاريخ القرآن وعلومه، ط 1، ص 132، 133.

إن جدل القرآن الكريم، لم يكن في صوره المختلفة ليحدث في العقول الإقناع فحسب، بل كان يصحبه لون من الإيمان العميق، نتيجة رضا وارتياح نفسي تحدثهما الحجّة وأسلوب المحاجة معاً.

والقرآن الكريم نزل حجّة للعقيدة الإسلامية، أراد أن يحاجّ جميع الفئات التي وقفت في وجهه، فكان عليه أن يحاجّ بالرأي الذين يناقشون بالرأي، وكان عليه أن يفضح الذين لا يحاجون برأي، ولا بمنطق، ولكن يعرقلون سير العقيدة بمرض نفسي، لا تنفع في شفائهم منه حجّة برأي، ولا وضوح سبيل. وأكثر الذين ناقشهم بالرأي هم أهل الكتاب والمشركون والوثنيون التابعون، الذين استعظمو أن يتخلفوا عما وجدوا عليه آباءهم الأولين.

ففي أسلوب القرآن الكريم وبياناته الخطابية، المثل الأعلى للكلام المؤثر والحجج الدامغة.

ولقد بلغ من أثره في المشركين أن كل من كان يسمعه، ينال من نوره قبساً.

وكان من أثر القرآن في المؤمنين الأولين، أن عكفوا عليه، يرتلونه، ويتفهمونه، ويتعرفون أحكامه، جعلوه إمامهم الأول، ومرجعهم إذا اختلفوا، ومنهلاً لعقائدهم، ينهلون من معينه الذي لا ينضب، ينهلون منه ما يقوي إيمانهم، ويثبت يقينهم، ولم يعرفوا حجة سواه، ولا محجة غير طريقه وهديه به يجادلون، وعن هديه، يصدرون.

وهذا ما حاولت أن أكتبه في هذا البحث المتواضع، وحسبي هذه الجولة، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

لقد قضي الأمر وانتهى الجدال، وسكت الحوار، وصدق الله العظيم. وأسأل الله بفضله أن أكون وفقت فيما إليه قصدت، وجزى الله بكرمه كل يد كريمة أسدت إليّ جميلاً من أساتذتي الأجلاء وإخواني البررة المخلصين الكرام الأوفياء. . إنه نعم الموفق والمستعان.

الخاتمة

وماذا بعد تلك الرحلة المباركة مع كتاب الله الكريم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، والذي يهدي للتي هي أقوم، والذي أمر الحق باتباعه؟

وماذا بعد أن حاولت عرض بعض ما جاء به القرآن الكريم، من أصول للجدل وآداب المحاجّة؟

إن محاولة الرد والإقناع، ستظل قاصرة، بعيدة عما جاء به وحي السماء.

إن نتيجة رحلتي في هذا البحث المتواضع، ومحاولتي تؤكد الحقيقة التي يمتري فيها، إلا من أبى أن ينصاع للحق، الحق هو الذي يجب أن ينصاع له الجميع، وهو الذي يجب أن يتبع.

لقد شقيت البشرية عبر تاريخها الطويل، وهي تتخبط بين شتى المناهج، وشتى الأوضاع، وشتى الشرائع، بقيادة أولئك العمي، الذين يلبسون أردية الفلاسفة والمفكرين والمشرعين والسياسيين، على مدار القرون، فلم تستعد إنسانيتها قط، ولم تكن في مستوى الخلافة عن الله تعالى في الأرض قط، إلا في ظلال ذلك المنهج الرباني في الفترات

التي فاءت فيها إلى ذلك المنهج القويم.

لقد ضلت البشرية في تصورها لمفهوم العقيدة ضلالاً بعيداً، ثم جاء القرآن بالحل الحاسم الواضح.

إن هذا القرآن الكريم هو معلم هذه الأمة ومرشدها، وحادي طريقها على طول المشوار الذي تقطعه، وهو يكشف لها عن حال أعدائها، وعن جبلتهم، وعن تاريخهم مع هدى الله.

ولو ظلت هذه الأمة تستشير كتابها، وتسمع توصياته، وتقيم قواعده وتشريعاته في حياتها، لما استطاع أعداؤها، في يوم من الأيام، أن ينالوا منها شيئاً.

ولكنها حين نقضت ميثاقها مع ربها، وحين اتخذت القرآن الكريم مهجوراً، وإن كانت لا تزال متخذة منه ترانيم وتعاويذ وأدعية، أصابها ما أصابها.

وما تخلفت هذه الأمة إلا حين التفتت إلى غير كتابها، والتمست الهدى من غيره، وحين تطلعت إلى موائد الغير وهي خاوية. فلتعد إلى قرآنها المجيد، وتتخذه قدوة وإماماً، وتسترشد به في كل شؤونها وأحوالها. فقد تقلبت على شتى الوجوه، ففشلت، ولن ينفعها من هذا إلاّ أن تعود إلى الجادة، إلى كتاب الله وسنة رسوله، فتفلح كما أفلحت في الماضي، وإلا فهي خاسرة ضائعة، ولن يصلح حاضر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.

إن الإيمان والتوحيد غلب على الكفر والشرك والإلحاد، واستقرت العقيدة في الله فوق هذه الأرض، ودانت لها البشرية بعد كل ما وقف في طريقها من عقبات الشرك والوثنية، بعد الصراع الطويل مع الكفر والشرك والإلحاد. وإذا كان هناك فترات، عاد فيها الإلحاد والشرك إلى الظهور، في بعض بقاع المعمورة، كما يقع الآن، في الدول الملحدة

والوثنية، فإن العقيدة في الله، ظلت المسيطرة بصفة عامة، فضلاً عن أن فترات الإلحاد والوثنية إلى زوال، مؤكد، لأنهما غير صالحين، والبشرية تهتدي كل يوم إلى أدلة جديدة، تهتدي إلى الاعتقاد بالله والتمكين لعقيدة التوحيد.

وإذا كان القرآن الكريم لا تنقضي عجائبه، ومهما بلغت الدراسات والكتب التي ألفت حوله، فدراسة موضوع أصول الجدل وآداب المحاجّة في القرآن الكريم، لم تحظ بعناية كافية واهتمام يناسبها، على خطورة هذا الموضوع وأهميته. فالأبحاث ما زالت فيه قليلة نادرة، والحاجة إلى بحثه ودراسته تزداد وتزداد، بتقدم العلم وارتقاء الإنسان.

ولا أدعي أن ما كتبته قد يسد هذا النقص، أو قد يفي بالمقصود، بل يكفي أن يكون لَبِنَة في بناء، وخطوة على الطريق، ولعله يثير انتباه الباحثين، وما أحوج الأمة الإسلامية إلى ذلك، بعدما تفرقت بها السبل، وابتعدت عن منهج الله، وحاجتها إلى متابعة كل ما يكتب عن الإسلام والمسلمين، والرد عليه والتصدي له، ومقارعة الحجّة بالحجّة، والدليل بالدليل، وما أهش الباطل أمام الحق، وفي دستور الإسلام خير دليل.

ودعوة مخلصة إلى المتعلمين، وأخص من بينهم المهتمين بالجدل والحجة والمنطق، أن يأخذوا بأصول الجدل وآداب محاجّة القرآن التي اتبعها.

إن هذا القرآن الكريم ربّى أمة، أن تجادل بالتي هي أحسن، وأن تدعو إلى سبيل ربها بالحكمة والموعظة الحسنة.

إن هذا القرآن الكريم منهاج حياة يهدي للتي هي أقوم، وهذا مما يفرض على معتنقيه أن يمعنوا النظر دائماً في هذا المنهاج، ليقفوا على معالمه، ويعرفوا بعض أسراره، حتى يكون أخذهم به واتباعهم له على

بينة، وحتى يدفعوا عن قرآنهم الكريم مزاعم المتحرضين والذين في قلوبهم زيغ، ويؤكد للبشرية قاطبة، أن كتاب الله هو الذي ختم به الله الكتب والرسالات السماوية، وهو طريق السعادة في الدنيا والآخرة.

ولهذا، كان لا بد من غرس روح الغيرة على هذا الكتاب الخالد، وصونه، وتقديسه، وعدم التهاون في المساس به، أو الانتقاص منه.

وبعد أن أوشك هذا البحث على نهايته، فإني أستطيع أن أضع بين يدي القارىء النتائج التالية:

1 ـ اشتمل الكتاب العزيز على الأحكام التي لا تستقيم الحياة الإنسانية إلا بها، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾[1].

2 ـ للقرآن الكريم أسلوبه الفريد في الرد، لم يتخذ أسلوباً واحداً، بل نوَّع فيه بطرق تشهد له بالبيان والإعجاز.

3 ـ اشتمل الكتاب العزيز على كل الأجوبة والردود التي أجاب بها أو رد بها على الخصوم، أو أرشد إلى أتباعها، وعليه فكل من يلتمس حجّة غيره، يفضلها على حجج القرآن، فقد ضل سواء السبيل.

4 ـ إن الجدل القرآني يمتاز بأنه يقدم الحلول لجميع المشاكل الفكرية القديمة والمعاصرة، وهذا ما لم يستطع أن يصل إليه الفكر الإنساني الذاتي، وذلك لقصور العقل البشري عن إمدادنا بأصول الأشياء وحقائق الواقع.

5 ـ إن القرآن الكريم قد اعتمد، في انتصاراته في محاجّة الخصوم، على قوي الحجّة وصدق الكلمة، وحدّد مشروعية الاعتراض على الباطل، وكشف عن الأسلوب الأمثل للاستدلال وللجدل وللحوار، وربطها بالنبل والدوافع والمقاصد. واستخدمها لترسيخ

(1) سورة الإسراء، الآية 9.

هذه القيم والشواهد، التي تسرد تجارب الأمم السابقة، لتكون مرآة ترى فيها النفس ما يلهمها إلى الحلول المثلى في علاجها لمشكلاتها المتجددة. وكان القرآن الكريم يدعو إلى المشاهدة، وإلى التدبر والاعتبار، ويحذر من تدخل الخصائص الذاتية في التقديرات الموضوعية، وينبه إلى قصور الأحكام العقلية عن ظواهر الأشياء، التي تقوم دليلاً على وجود حقائق ثابتة، يتجاوزها مع الحرص على استبعاد الخرافات والتأملات العقلية المنشطة المنبعثة من الواقع.

6 ـ إن المنهج الذي اتخذه القرآن الكريم في أصول جدله وآداب محاجته، يأخذ بالنفس الإنسانية إلى أن تستريح في ظل النص القرآني، وتأمن بما فيه، لأن رد القرآن جاء مقنعاً من أقرب الطرق، وخالف ذلك ما جرى عليه كثير من الناس في أساليبهم ومحاوراتهم وجدالهم.

إن القضايا لا تعرض عرضاً جدلياً بارداً، يقال في كلمات وينتهي كأي قصة ذهنية باردة، إنما تعرض وحولها إطار هذا الكون بما فيه.

7 ـ إن جدل القرآن الكريم يستتبع الإنسان، فيقوده إلى اليقين، ولا يتركه إلا وقد أشبعه أدلة وحججاً.

8 ـ إن أدلة القرآن الكريم تساق لمخاطبة العقل والوجدان معاً، وهي أدلة تستمد مقوماتها من الواقع المتصل بالإنسان والكون معاً،

وهذا ما جعل جدل القرآن جدلاً مؤلفاً، وليس جدلاً مشتتاً، فمن طبيعة هذا الدين (الدين الإسلامي) أنه دين الوحدة وعدم الفرقة.

ولا أدعي أنني أتيت على كل الآيات، التي تقرر أصول الجدل وآداب المحاجّة في القرآن الكريم، لأن هذه الآيات كثيرة ومتفرقة في

سور متعددة، وحسبي أنني تناولت أغلبها، والله الموفق إلى الصواب والسداد.

كما أنني ابتعدت عن المذاهب ومدارسها المختلفة كل البعد، وحاولت قدر الإمكان تبسيط الموضوع الصعب والدقيق، وأخرجته في هذه الصورة التي هو عليها.

هذا ما حاولت الكشف عنه في هذه الدراسة، وأرجو أن أكون قد وفقت في ما حاولت. وأعتذر عما وقع فيه من هفوات، فالكمال لله وحده. ورحم الله العماد الأصفهاني حين قال: «إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتاباً في يومه، إلا قال في غده لو غير هذا لكان أحسن، ولو زيد هذا لكان يستحسن، ولو قدم هذا لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء القصر على جملة البشر».

هذا، وليعلم القارىء أن هذا العمل قد استنفد مني جهوداً بالغة ومضنية، لا تخفى على المتأمل في القرآن الكريم. وعليه، فإن وجد في هذا البحث ما يرضي ويساعد، فإني قد حققت الغاية من هذا الجهد، وإلا فهي محاولة، والله أسأل أن يوفق أهل الخير إلى الخير، إنه سميع مجيب.

المصادر والمراجع

أولاً ـ القرآن الكريم: بالرسم العثماني على رواية حفص، قراءة عاصم، طباعة ونشر وتوزيع دار الرشيد، دمشق/ بيورت.

ثانياً ـ مؤلفات:

1 ـ أحكام القرآن، للجصاص، مطبعة الأوقاف، الطبعة الأولى 1335 هـ، طبعة مصورة عن الطبعة الأولى، دار الكتاب العربي، بيروت/ لبنان.

2 ـ إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، دار المعرفة، بيروت/ لبنان.

3 ـ أسلوب الدعوة في القرآن، محمد حسين فضل الله، الطبعة الثانية، 1392هـ/ 1972 م، دار الإهداء، بيروت/ لبنان.

4 ـ الأحكام في أصول الأحكام للآمدي، طبعة دار الكتب العلمية، 1983 م، بيروت/ لبنان.

5 ـ أنبياء الله، أحمد بهجت، الطبعة الثالثة، 1973 م، دار الشروق، بيروت/ لبنان.

6 ـ الإنسان والكون في الإسلام، أبو الوفاء الغنيمي التفتازاني، 1975 م، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة/ مصر.

7 ـ الإيمان والحياة، يوسف القرضاوي، الطبعة الأولى، 1389 هـ/ 1969 م، الدار السعودية للنشر والتوزيع.

8 ـ بديع القرآن، إبن أبي الإصبع المصري، تقديم وتحقيق د. حنفي محمد شرف، الطبعة الثانية، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، الفجالة، القاهرة/ مصر.

9 ـ البرهان في علوم القرآن، الزركشي، الطبعة الثانية، 1972 م، دار المعارف للطباعة والنشر، بيروت/ لبنان.

10 ـ البيان والتبيين، الجاحظ، طبعة 1968 م، دار إحياء التراث، بيروت/ لبنان.

11 ـ تاريخ الجدل، محمد أبو زهرة، الطبعة الأولى، 1934 م، دار الفكر العربي، بيروت/ لبنان.

12 ـ تاريخ القرآن، د. محمد حسن علي الصغير، الطبعة الأولى، 1403 هـ/ 1983م، الدار العالمية للنشر والتوزيع، بيروت/ لبنان.

13 ـ تفسير أبي السعود، محمد بن محمد العماري، مطبعة محمد علي صبيح.

14 ـ تفسير القرآن العظيم، الشهير بتفسير ابن كثير، إسماعيل بن كثير، طبعة 1400 هـ/ 1980 م، دار المعرفة، بيروت/ لبنان.

15 ـ تفسير القرآن الكريم، محمود شلتوت، الطبعة الخامسة، 1973 م، مطابع الشروق، القاهرة/ مصر.

16 ـ تفسير القرآن الكريم، المسمى «أنوار التنزيل وأسرار التأويل»، البيضاوي، الطبعة الأولى، مطبوعات أسعد ومحمد سعيد الحبال وأولاده بجدة على هامش المصحف الشريف.

17 ـ التفسير الكبير المسمى «مفاتيح الغيب» للفخر الرازي، نشر عبد الرحمن محمد مؤسس المطبوعات الإسلامية لنشر القرآن الكريم والكتب الإسلامية، المطبعة البهية، مصر.

18 ـ التفسير الكاشف، محمد جواد مغنية، الطبعة الثالثة، سنة 1981 م، دار العلم للملايين، بيروت/ لبنان.

19 ـ تفسير المراغي، أحمد مصطفى المراغي، الطبعة الرابعة، طبع ونشر مكتبة مصطفى البابي الحلبي، مصر.

20 ـ تفسير النيسابوري الموضوع بهامش تفسير ابن جرير الطبري، الطبعة الرابعة، 1400 هـ/ 1980 م، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت/ لبنان.

21 ـ جامع البيان عن تأويل القرآن، الشهير بـ «تفسير الطبري»، تأليف أبي جعفر بن جرير الطبري، الطبعة الرابعة، 1400 هـ/ 1980 م، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت/ لبنان.

22 ـ الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، الطبعة الثانية، 1397 هـ/ 1952 م، دار إحياء التراث العربي، بيروت/ لبنان.

23 ـ دراسات قرآنية، بحوث في الدراسات القرآنية والاجتماعية، تأليف عبد الله الوصيف، طبعة 1979 م، طبع ونشر مركز البحوث، تونس.

24 ـ الدستور القرآني في شؤون الحياة، محمد عزة دروزة، دار إحياء الكتب العربية، البابي الحلبي، القاهرة/ مصر..

25 ـ ديوان عنترة بن شداد العبسي، تحقيق فوزي عطوة، الطبعة الثالثة، 1980 م، دار صعب، بيروت/ لبنان.

26 ـ سلسلة أعداء الإسلام، صراع مع الملاحدة حتى العظم، عبد الرحمن حسن حنبكة الميداني، الطبعة الثانية، 1400 هـ/ 1980 م، دار القلم، دمشق وبيروت.

27 ـ شخصية المسلم كما يصورها القرآن، مصطفى عبد الواحد، دار إحياء الكتب العربية، البابي الحلبي، القاهرة/ مصر.

28 ـ شرح ديوان زهير بن أبي سلمى، الإمام أبو العباس أحمد بن يحيى بن زيد الشيباني ثعلب، طبع ونشر الدار القومية للطباعة والنشر، 1944 م، القاهرة/ مصر.

29 ـ صراع المذاهب والعقيدة في القرآن، تأليف عبد الكريم غلاب، الطبعة الثانية 1399 هـ/ 1979 م، الدار العربية للكتاب، ليبيا/ تونس.

30 ـ العقيدة الإسلامية وأسسها، عبد الرحمن حسن حنبكة الميداني، الطبعة الرابعة، دار القلم، دمشق/ سورية 1406 هـ/ 1986 م.

31 ـ من علوم القرآن، د. فؤاد علي رضا، ط 3، ص 226، دار اقرأ، بيروت/ لبنان، 1404 هـ/ 1984 م.

32 ـ العقيدة في القرآن، د. عبد السلام التونجي، الطبعة الأولى، 1395 هـ/ 1986 م، طبع ونشر جمعية الدعوة الإسلامية، طرابلس/ الجماهيرية.

33 ـ في رياض القرآن، عبد اللطيف السبكي، سلسلة التعريف بالإسلام، الكتاب الخامس، 1963 م، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.

34 ـ القرآن المجيد، محمد عزة دروزة، المكتبة العصرية، صيدا/ لبنان.

35 ـ قصص القرآن، محمد جاد الخولي وآخرون، الطبعة العاشرة، 1389 هـ/ 1969 م، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة/ مصر.

36 ـ قاموس القرآن، أو إصلاح الوجود والنظائر في القرآن، الحسين بن محمد الدمغاني، تحقيق عبد العزيز سيد أهل، الطبعة الثالثة 1400 هـ/ 1980 م، دار العلم للملايين، بيروت/ لبنان.

37 ـ قصص الأنبياء، إسماعيل بن كثير، تحقيق مصطفى عبد الواحد، الطبعة الأولى، 1388 هـ/ 1968 م، مطبعة دار التأليف، مصر.

38 ـ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، للزمخشري، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت/ لبنان.

39 ـ كتاب نقد النثر، أبو الفرج قدامة البغدادي، طبعة 1402 هـ/ 1982 م، دار الكتب العلمية، بيروت/ لبنان.

40 ـ لسان العرب، لابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري، طبعة مصورة عن طبعة بولاق، الدار المصرية للتأليف والترجمة.

41 ـ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، القسم الثاني، تأليف ضياء الدين بن الأثير، قدمه وحققه وعلق عليه د. أحمد الحوفي، د. بدوي طبانة، الطبعة الأولى، 1380 هـ/ 1960 م، مطبعة نهضة مصر.

42 ـ مجمع البيان في تفسير القرآن، الشيخ أبو علي الفضل بن الحسن الطبري، طبعة جديدة مصححة، 1980 م، منشورات مكتبة الحياة، بيروت/ لبنان.

43 ـ محاضرات في النصرانية، محمد أبو زهرة، الطبعة الرابعة، مطبعة الفكر العربي، بيروت.

44 ـ مدخل إلى القرآن الكريم، عرض تاريخي وتحليلي مقارن، عبد الله دراز، طبعة سنة 1406 هـ/ 1986 م، دار العلم والنشر والتوزيع، الكويت.

45 ـ مدارج السالكين، إبن قيم الجوزية، تحقيق محمد أحمد الفقي، الطبعة الثالثة، 1973 م، دار الفكر العربي، بيروت/ لبنان.

46 ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، محمد فؤاد عبد الباقي، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت/ لبنان.

47 ـ معجم القرآن الكريم، عبد الرؤوف المصري، الطبعة الثانية 1948 م، مطبعة حجازي، القاهرة/ مصر.

48 ـ المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق وضبط محمد سيد الكيلاني، دار المعرفة، بيروت/ لبنان.

49 ـ مقارنة الأديان، سلسلة من الكتب في مقارنة الأديان، كتاب 3، الإسلام. د. أحمد شلبي، الطبعة الرابعة 1973 م، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.

50 ـ مقارنة الأديان، سلسلة من الكتب في مقارنة الأديان، كتاب 2، المسيحية. د. أحمد شلبي، الطبعة الرابعة 1973 م، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.

51 ـ من روائع القرآن. د. محمد سعيد رمضان البوطي، الطبعة الخامسة، مكتبة الفارابي، القاهرة.

52 ـ المنطق الحديث ومناهج البحث، د. محمود قاسم، الطبعة السادسة، 1970 م، دار المعارف، القاهرة/ مصر.

53 ـ مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة/ مصر.

54 ـ النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن الكريم، محمد عبد الله دراز، 1389 هـ الموافق 1969 م، مطبعة السعادة، القاهرة/ مصر.

55 ـ اليهود في القرآن الكريم، عفيف طبارة، الطبعة السادسة، 1978 م، دار العلم للملايين، بيروت/ لبنان.

56 ـ التونجي، د. عبد السلام (الإيمان باليوم الآخر)، الطبعة الأولى، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، طرابلس، الجماهيرية.

57 ـ الرازي، المختار أحمد بن محمد بن المظفر، (كتاب حجج القرآن)، الطبعة الثانية، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان 1982 م.

58 ـ السيوطي، (الاتقان في علوم القرآن)، الطبعة الثالثة، طبعة البابي الحلبي، القاهرة، 1966.

59 ـ بدراي، أبو العلاء علي حسن (الرائد إلى سليم العقائد)، الطبعة الأولى، مطابع دار الكتاب العربي، مصر، 1956 م.

60 ـ ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري، ت 711 هـ (لسان العرب) طبعة مصورة عن طبعة بولاق) الدار المصرية للتأليف والنشر.

61 ـ رفيدة، د. ابراهيم عبد الله وآخرون، (معاني القرآن تفسير لغوي موجز)، الجزء الأول، الطبعة الأولى، منشورات جمعية الدعوة العالمية، طرابلس الجماهيرية، 1396 من وفاة الرسول 1986 م.

62 ـ الدسوقي، د. محمد (في تاريخ القرآن وعلومه)، الطبعة الأولى، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس، الجماهيرية 1983 م.

63 ـ رشيد محمد رضا، (تفسير القرآن العظيم الشهير بتفسير المنار)، الطبعة الثانية، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

64 ـ الدريني، د. فتحي (دراسات في الفكر الإسلامي المعاصر)، مجلد 2، طبعة 1، دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق سوريا 1988 م.

65 ـ بركة، د. عبد الغني محمد سعد (أسلوب الدعوة في القرآن)، الطبعة الأولى، مكتبة وهبة، القاهرة 1983 م.

66 ـ الشيخ، د. محمد عبد الغني (النثر الفني العباسي الأول)، الدار العربية للكتاب، طرابلس، الجماهيرية 1966 م.

67 ـ عبده، محمد رسالة التوحيد، الطبعة الثالثة، دار إحياء العلوم، بيروت، لبنان 1979 م.

68 ـ عرجون، محمد الصادق (القرآن العظيم هدايته وإعجازه)، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة 1966 م.

69 ـ عبده، محمد (تفسير المنار الجزء الأول، الطبعة الأولى، الهيئة العامة المصرية للكتاب.

70 ـ الفرجاني، راشد عبد الله (الأديان المعاصرة، الجزء الأول، ط 2، نشر جمعية الدعوة العالمية، طرابلس، الجماهيرية 1985 م.

71 ـ فروخ، عمر (تاريخ صدر الإسلام)، الطبعة الرابعة، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان 1979 م.

72 - قدامى جعفر البغدادي، (نقد النثر) الطبعة الثانية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان 1982 م.

73 - الجوزية ابن القيم، الأمثال في القرآن، تحقيق: سعيد محمد نمر الخطيب، دار المعرفة، بيروت 1981 م.

74 - معلوف: الأب لويس (المنجد في اللغة العربية والآداب واللغة)، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، لبنان.

75 - موسى محمد علي (التوحيد مفتاح دعوة الرسل)، ط 2، عالم المكتبات، 1984.

76 - الميداني، عبد الرحمن حسن حنبكة، (العقيدة الإسلامية وأسسها)، الطبعة الرابعة، دار القلم، دمشق سوريا 1986.

77 - النشار، علي سامي (نشأة الفكر الفلسفي)، الطبعة الرابعة، دار المعارف بمصر 1964 م.

78 - أيوب، (حسن تبسيط العقائد الإسلامية)، الطبعة السابعة، دار التراث العربي، القاهرة 1986 م.

ثالثاً ـ أبحاث ومنشورات في الدوريات التالية:

1 - عالم المعرفة، مفاهيم قرآنية العدد ٧٩، تأليف د. محمد أحمد خلف الله، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، عدد شوال ١٤٠٤ هـ/ يوليو ١٩٨٤ م (مطابع الرسالة ـ الكويت).

2 - القرآن ومشكلات الإنسان، د. مهدي أمبيرش، ربيع الأول 1393 و.ر. موافق ديسمبر 1983 م، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية، طرابلس.

3 - مجلة الجمعية الفلسفية العربية، بحث للدكتور محمود قاسم بعنوان مشكلة الجبر والاختيار، العدد الأول 1983 م.

4 - مجلة الدعوة الإسلامية، مجلة إسلامية ثقافية تصدر سنوياً عن كلية الدعوة الإسلامية، العدد الثاني 1985 م.

5 - مجلة الدعوة الإسلامية، عدد خاص سنة 1986 م، بمناسبة انعقاد المؤتمر الثالث للدعوة الإسلامية.

6 ـ مجلة الأزهر الشهرية، تصدر عن مشيخة الأزهر الشريف، أعداد مختلفة، القاهرة، جمهورية مصر العربية.

7 ـ مجلة الوعي الإسلامي، عدد 52، سنة 1969 م، مجلة ثقافية تصدرها وزارة الأوقاف الإسلامية بالكويت.

فهرس الكتاب

الموضوع	الصفحة
المقدمة	5
التمهيد	15
الفصل الأول: منهج القرآن الكريم في تناول أصول الجدل وآداب المحاجة	39
المبحث الأول: مفهوم الجدل والجدال في القرآن الكريم	41
المبحث الثاني: منهج القرآن الكريم في الاستدلال على وجود الله ووحدانيته.	50
أدلة الإيمان بوجود الله ـ أولاً الأدلة الكونية	51
التوحيد نوعان: توحيد الربوبية	64
توحيد الألوهية	67
مسلك القرآن الكريم في إثبات الوحدانية	73
الفصل الثاني: مجال الجدل والمحاجّة في القرآن الكريم	92

المبحث الأول: تعريف الحجّة وأنواعها في القرآن الكريم 93
أنواع الحجج 94
طريقة القرآن الكريم في إلزام الخصم 99
القصص القرآني وأثره في الدعوة إلى الإيمان 106
المبحث الثاني: الاحتجاج القرآني في مقام النبوة وقصص الأنبياء 110
الرسول ﷺ والكافرون من أهل الكتاب 123
المبحث الثالث: حوار ومحاجة الأنبياء
ـ عليهم السلام ـ لأقوامهم 133
جدل نوح ـ عليه السلام ـ لقومه 136
جدل هود ـ عليه السلام ـ لقومه 141
جدل وحوار صالح ـ عليه السلام ـ لقومه 144
جدل إبراهيم ـ عليه السلام ـ لقومه 146
جدل شعيب ـ عليه السلام ـ لقومه ومحاجاتهم 157
حوار موسى ـ عليه السلام ـ لفرعون وقومه 162
خاتمة الرسل ـ عليهم السلام ـ 167
الفصل الثالث: جدال ومحاجة القرآن الكريم عن عقيدة
البعث والجزاء 170
المبحث الأول: جدال ومحاجة القرآن الكريم عن أحقية البعث 171
البعث حقيقة لا شك فيها 175
المبحث الثاني: في مقام محاجة منكري البعث 180

عرض القرآن الكريم وتصوره الحياة الأخروية 191
الفصل الرابع: نصوص الجدل والمحاجة في
القرآن الكريم لأهل الكتاب 194
المبحث الأول: المحاجة العامة لأهل الكتاب 195
الإسلام وعقائد أهل الكتاب 195
المبحث الثاني: جدال ومحاجة أهل الكتاب، اليهود 204
خاتمة المبحث 216
المبحث الثالث: جدال ومحاجة أهل الكتاب، النصارى 217
الفصل الخامس: نصوص الجدل والمحاجة في
القرآن الكريم لغير أهل الكتاب 226
المبحث الأول: جدال ومحاجة المشركين والكفار 227
مناقشة المشركين وجدالهم 241
جدل القرآن الكريم مع الكافرين يوم القيامة 257
صور من حوار الأقوام السابقين 266
المبحث الثاني: جدال ومحاجة القرآن الكريم للمنافقين 274
جدال القرآن الكريم للمنافقين 274
الخاتمة 284
المصادر والمراجع 290